

د . حسين اليسد
الطبعة 2
الشيخ الأسود
كتاب الدم
Looloo
www.loolooLibrary.com
رواية

اهداء

إلى من منحوني المعنى الحقيقي للبقاء في هذه الحياة..

إلى من منحوني البهجة والفرحة والضحكة والصخب والجديد.

إلى فرحتي التي لا تنتهي ..

إلى السيد وريماس ..

وإلى يامن وآسر وسامر ..

وإلى سارة وهاجر ..

كم تمتلئ الحياة بالبهجة مع فرحتكم و ضحكاتكم..

أحبكم ...



الفصل الأول

البَعْثْ



(1)

نظر بحيرة حوله فشعر أن هذا العالم الذى يراه الآن غير العالم الذى يعرفه. بدا كل شىء غريبًا وكأنما يقتحم عالمًا يراه للمرة الأولى. كانت قاهرة أخرى غير التى فارقها منذ سنوات سبع. بدت وكأنما قامت قيامتها وسكانها فى فزع وصخب، وكلٌ منهم يعدو بلا هوادة، كى ينجو بروحه من الهول القادم. راح يُحَمْلِق بِحِيرَة فى الوجوه المُكفَهِرَة الكئيبة، والعيون الكالحة الكادحة، والأبدان المترهلة الغارقة فى عرقها وهمومها. لا ضحكة واحدة تزين وجهًا ما، ولا أمل يبرق فى عينٍ من العيون. كانوا موتى يتحركون، أو هم أحياء فى ثوب الموت هائمون، وقد فنيت أرواحهم وبقيت أبدانهم.

كانت سبع سنوات من الحياة كالموتى قضاها فى مصحة العباسية للأمراض العقلية، ثمنًا لجريمة لا يُصَدِّقه أحد أنه لم يقترفها. وعلاجًا من مرض نفسى لا يعانيه. كان الأمر كله عبثى. لكنه عبثٌ كالجحيم. عبثٌ هشَّم نفسه ومَزَّقَ روحه، وها هو الآن يغادر المصحة شاعرًا بسقم حقيقى وقد دخلها صحيحًا كالجرس.

تحاشاه كل من حوله وأعرضوا عنه كأنه مصاب بالجرب. كانوا ينظرون إليه بعيون مملوءة بالنفور والحذر، وهم يتأففون منه سرًا وجهرًا. حتمًا يراه البعض مخبولًا و ربما يحسبه البعض لصًا؟. فى الواقع لم تزعجه تلك النظرات ولم تنل من نفسه، كان يدرك أن العالم بأكمله لا يقلقه أو يعنيه. إنه غريب فى أرض غريبة لا يعرفها، فلماذا يعبأ بقاطنيها؟..

مضى الوقت بطيئًا. وفى النهاية ومع صلاة العصر وصل إلى ميدان المطرية حيث انحرف إلى الشارع الجانبى المؤدى إلى العقار الذى يقطنه. كان عجيبًا أن يمر بالكثيرين دون أن يتعرف أغلبهم، لكنه وما إن اقترب من بيته القديم، حتى رأى وجهًا مألوفًا. كان الحاج رضا. جاره الذى يعيش فى

شقة أسفل شقته. كان العمر قد تقدم بالرجل وازداد الجسد القصير بدانة، وقد تدلت بطنه أمام جسده وتكورت وانتفخت بصورة لا تكون إلا لمرضٍ ما. اضطرب قلبه وهو يلحظ الوجه الذى ازداد شحوبًا واصفرارًا. والظهر الذى انحنى وَهنًا. ورأى فى كَفِّ العجوز عُكَّازًا خشبيًا يتوكأ عليه ويستند. وجد نفسه يسير نحوه وهو يفكر أنه لابد كان عائدًا من المسجد بعد صلاة العصر. اعترض طريق العجوز فتوقف الرجل هو الآخر ورفع ببطء عنقه نحوه وقد ضاقت عيناه المنتفختان متفحصة إياه بحيرة لبعض الوقت، قبل أن يتعرفه فى النهاية. تهلل وجه الحاج رضا وأشرق واحتضنه بشوق حقيقى وهو يربت على ظهره، ثم أبعد بعدها رأسه عن عماد ليتأمله بمقلتين التهمتهما المياه البيضاء والشيخوخة والمرض. لاحظ سوء حاله، فارتعشت يده، وارتجفت جفونه وهو يهز رأسه بأسف، ودموع خفيفة تنبثق من بين أجفانه، قبل أن يضرب بعصاه الأرض، ويدمدم بحسرة :

- حمدًا لله أننى رأيتك ثانية قبل أن أموت يا عماد. لكنك تغيرت كثيرًا.. لا أصدق أننى أراك هكذا. تبدو كشبحٍ يا فتى.

واصلا التحرك وعماد يهز رأسه بلا معنى، إن آخر ما يقلق باله الآن هو صحته.

دعاه الحاج رضا لمشاركته فى تناول الغذاء فرفض عماد بتهذيب ولم يستجب لإلحاح العجوز. سارا بعدها واجمين. كانت هناك عشرات العيون التى تَعَرَّفَت عماد. حملت بعض النظرات شفقة حقيقية دفعت أصحابها لتحيته بحرارة. وجاءت النظرات الأخرى فى المقابل مليئة بالاتهام والنفور، فكانت تحية أصحابها له باردة جافة، بينما تجاهله الكثيرون بعد أن رمقوه بنظرات لو اكتسبت كيانًا ماديًا لتحولت لحِرَابٍ وسِهَامٍ ومزقته.لكن



كل هذا لم يعبأ به أو يهتم بما يراه. فلا الأحضان الحارة أسعدته، ولا النظرات المستنكرة المحتقرة أزعجته.

كان حبيس آلامه، وكان بحاجة لأن يُعاوِدَ البحث فى أروقة ذاته عن نفسه. كان عليه أن يستعيد عماد ثانية، فلماذا يهتم إذًا بنظرات يعرف مبرراتها ودوافعها. إنه أمام أغلبهم مذنب لا يستحق الرحمة والشفقة.

إنه فى عيونهم الفتى الذى قتل أمه..

*****

(2)

وصل إلى مسكنه فلم يشعر بأى حنين له. ثم صعد بعدها للطابق الثالث، وتوقف محبوس الأنفاس أمام باب شقته. حَدَّقَ فى الباب فشاهد الكثير من الذكريات التى مازالت محفورة على بابه وواجهته. الخربشات الطفولية على الخشب والتى نُحِتَتْ بخط طفولي(مرحبًا بالزائرين). المسدس المرسوم على إطار البيت بالألوان الفلوماستر. الجزء الخشبى المفقود من الإطار الذى انتزعه يومًا فى خرق فكان عقابه على يد أبيه.

انتبه لنفسه وتذكر أنه لا يحمل مفتاح الباب، فكيف يدخل شقته؟

لكن جارته أم محسن أتت بالحل حين ظهرت بغتة من شقتها. تعرفته فاحتضنته وراحت تبكى قبل أن تخبره أنها تحمل مفتاحًا احتياطيًا لباب شقته.

دعته أم محسن هى الأخرى للطعام فاعتذر. اقترحت أن يمكث فى دارها حتى تنظف شقته لكنه رفض. كان يرغب فى أن يخلو بنفسه فاستأذنها ودخل شقته ثم أغلق الباب خلفه. ظلت أم محسن فى مكانها خلف الباب

للحظات متعجبة من حاله،قبل أن تستدير وتعود لشقتها وهى تهز كتفيها بإشفاق

وبالداخل غرقت الشقة فى ظلامها المشئوم. كانت هناك رائحة غريبة لم يعتدها. كانت مزيجًا من الرطوبة والهواء المكتوم والذكريات المشئومة. أشعل المصباح الكهربائى فبدد الضوء الأصفر الظلام. رمق المكان بعينين خاويتين. فبدت الشقه أمامه غريبة هى الأخرى وكأنه لا يعرفها. شعر أنه يرتادها للمرة الأولى رغم أنه قد عاش عمره كله من قبل بها. كانت الصالة مترِبة يكسوها الغبار، والجدران مسكونة بأعشاش العنكبوت. وعن يمينه قبعت حجرة نوم أمه مظلمة ساكنة كالقبر وبابها مازال مواربًا.

تعلقت عيناه بها وعقله يجترُّ بأسى ما جرى فيها من أهوال. راوده إحساس عجيب أن أمه مازالت بداخلها، بل وربما تخرج من بابها بعد قليل لتُرَحِّبَ بعودته. انزلقت عيناه نحو الجدار الملاصق للباب فشاهد العلامات الدامية للحريق المُفْزِع. رأى آثار كَفٍّ دامٍ، ليدٍ مشتعلة قبضت على الجدار يومًا دون أن تعبأ بالألم. ارتجف قلبه وهو يتذكر، فأغمض عينيه بقوة ليطرد الذكرى عن عقله ثم فتحها ببطء. هنا رأى أمه واقفة أمام الباب ترمقه بعيون زجاجية ميتة ووجه مُكْفَهِرّ. اضطرب قلبه فأغمض عينيه بسرعة ثانية، وهو يتذكر كلمات الدكتورة سحر التى طالما رددتها على أذنه بالمصحة مِرَارًا :

- الموتى لا يعودون للحياة، و أمك قد غادرت هذا العالم للأبد. وشبحها الذى تراه ليس إلا أوهام يختلقها عقلك. وهم عليك أن تحاربه ولا تخضع له.

ثم فعل ما طالبته به ودَرَّبَتْهُ عليه مِرَارًا. وبصوت مرتعش راح يعد.. واحد. اثنان. ثلاثة..



حتى وصل بلسانه للعدد عشرة ففتح عينيه بحذر، فوجد أن شبح أمه قد اختفى. وعاد مكانها فارغًا، زفر بارتياح وقد أفلح الأمر، لكن هل يفلح فى كل مرة؟.

نزع نفسه من جموده وتحرك ببطء نحو حجرته. دفع بابها المغلق بتردد، وأشعل النور. كانت تضرب فى الفوضى. الدولاب كان مفتوحًا، وقد تناثرت محتوياته من ملابس وغيرها أسفله، وسائد الفراش كانت مبعثرة على الأرض وقد برزت حشوتها القطنية. وتدلت الأباجورة أسفل الكمود، ومازال سلكها معلقًا بالقابس الكهربائى. هل فعل رجال الشرطة كل هذا فى بحثهم الفاشل عن دليل ما غير موجود أصلًا؟!.

لم يخالجه الضيق لتلك الفوضى التى تضرب المكان. ولم يبتئس لحال البيت. شعر أن مشاعره محايدة تمامًا. لا أسف هناك لما حدث من قبل ولا فرحة بالعودة. كل ما كان يحسه فى تلك اللحظة هو الخواء. فقط الخواء.

تحرك نحو الحمام ليفرغ مثانته. وفتح صنبور الحوض وراح يحرك بأصابعه الماء فى كل اتجاه بالحوض ليزيح التراب العالق به. ثم بأصابعه المبتلة راح ينظف سطح المرآة التى تعلو الحوض. وبعد لحظات صنعت يده دائرة نظيفة فى منتصف المرآة راح خلالها يتأمل وجهه..

كان يرى شخصًا آخر لا يعرفه. غارت العينان فى محجريهما وانطفأ بريقهما فصارتا كعينى شيخ عجوز باهته كئيبة، وقد أحاطتهما هالات سوداء كثيفة. كما برزت عظام وجنتيه وامتصَّ خديه،وأحاط وجهه لحية كثة مبعثرة. وتقلصت شفتاه عن أسنان اصفرَّ سطحها واسودت حوافها، وسقطت خصلات ناعمة من شعره على جبهته وقد أصاب الشيب أكثره.

حمل وجهه وجه رجل فى الستين من عمره لا شاب فى بداية الثلاثينات من عمره. بدا فى تلك اللحظة كالمجاذيب. فلم يكن ما يراه أمامه الآن هو عماد الذى عرفه من أعوام. بل كان عماد آخر شاخت روحه وجسده فصار عجوزًا لم يتخط الثلاثين من عمره. خفض رأسه ناحية الصنبور ليغلقه وقد بدأ الماء يملأ الحوض وحين رفعها ثانية رأى وجه أمه فى المرآة وهى تقف خلفه وتبتسم ابتسامتها المخيفة. انتفض جسده وخفق قلبه، وأغلق عينيه على الفور وهو يعد مرة أخرى الأرقام من واحد حتى عشرة. ثم فتح عينيه ببطء بعدها ليكتشف أنها قد اختفت. ظل قلبه ينتفض بلا انتظام لبعض الوقت فغادر الحمام من فوره وعاد لحجرته. أعاد مرتبته القطنية لمكانها ونفض عنها التراب الذى علق بها ثم ألقى بجسده عليها. أغمض عينيه وراح يتنفس ببطء كى تنتظم أنفاسه ويهدأ قلبه كما علموه من قبل فى المستشفى. راح يبحث عن جنود النوم فى عقله. وكانوا فى انتظاره فأتوه متعجلين. وبعد دقائق غلبه النعاس.

*****

(3)

عادت الهمسات لعقله ثانية، وككل مرة كانت خافتة، ومُلِحَّة، ومُخِيفَة. حملت الهمسات أصواتًا غير بشرية بلا شك، لكنه رغم هذا تعرف صوت أمه من بينها. ثم ارتفع صوت أمه بغتة وتحول من الهمس إلى صراخ. وهى تردد:

"liberati Dominus de bello, et ignis"

راحت تصرخ فى أذنه بتلك الكلمات الغريبة بلا توقف حتى كاد عقله أن ينفجر. جاهد روحه كى يستيقظ وهو يجبر جفنيه على مغادرة عناقهما الحميم، وحين أفاق سكت الصراخ على الفور. فتح عينيه فاصطدمتا

بظلام الحجرة. هَبَّ من فراشه، وهو يلهث ويجاهد لالتقاط أنفاسه، وصدره يصعد ويهبط بلا انتظام، دون أن يكف عقله عن التفكير..

لماذا عاودته الهمسات مرة أخرى بعد شهور من الإختفاء، ظن خلالها أنه قد برأ من تلك الوساوس التى تؤرقه وتهز اتزانه النفسى، بل وتشككه فى قواه العقلية؟. لماذا عادت فى نفس اليوم الذى خرج فيه من المستشفى!. أيعنى هذا أنه يواجه انتكاسة مرضية جديدة؟!!.

وبدأ وريد جبينه الأيمن فى النبض، فعلم ما سيأتى بعد قليل. صداع نصفى رهيب يمزق عقله ويفتك بخلاياه. تعلم ألا ينتظر حتى يصير ذلك الصداع اللعين وحشًا لا يُقْهَر. وتعلم أن يعاجله ويطعنه بالمسكنات قبل أن يشتد بأسه.

نهض من الفراش وجلس على طرفه فى الظلام وراح يستدعى من ثنايا ذاكرته ما اخبرته به الدكتورة سحر عن تلك الهمسات. أغمض عينيه وهو يتذكر ملامحها الهادئة ونظارتها الأنيقة وابتسامتها الوائقة المرحة. كان قد سألها يومًا وقد أنهكته تلك النوبات التى تطارده الهمسات الهلاوس خلالها حتى كادت أن تذهب عقله. لماذا يحدث هذا معه ؟ وهل هو مجنون؟.

هنا أجابته الدكتورة سحر بابتسامتها الخالدة التى لا تعرف الفناء:

-أنا أؤمن أنك لست مجنونًا أو تختلق ما يحدث لك، لكن عليك كذلك أن تدرك أنه لا وجود لتلك الوسوسات الشيطانية. إن إجابة كل تساؤلاتك بسيطة للغاية. أنت تعانى من اضطراب نفسى ولهذا يحدث لك هذا، وكى تُشفى منه عليك أن تدرك طبيعته، وأن تعى أعراضه. أنت مريض بالفصام، والفصام هو سيد الضلالات والهلاوس. ستشاهد رؤى لايراها غيرك. ستسمع أصوات وهمسات ووساوس تتردد داخل رأسك وحدك. هذا مألوف للغاية ولا يحدث لك وحدك. المصحة كما ترى مليئة بمن هم

مثلك، وكلهم لديهم ضلالاتهم الخاصة. ولو شئت أن تتخلص منها فعليك أن تقاوم تلك الضلالات يا عماد. دع عقلك يرفضها ويطردها. لا تصدق وجودها مهما بدت لك حقيقية. واعلم أنها لا تعدو ألعاب يختلقها عقلك الباطن والمناطق المظلمة فى عقلك.

لكن الهمسات التى تطارده لم تبدُ له أبدًا أوهامًا أو ضلالات كما تزعم. كانت دومًا حقيقية. حقيقية ككل شىء فى هذا العالم القاسى. إن كلماتها مُحَيِّرَة ولا يستطيع عقله أن يهضمها. هل يعمل عقل المرء ضده وهل يرغب فى أن يسقطه أسيرًا لأوهامه ومرضه. لم يستطع أن يعى أبدًا كيف يمكن أن يحدث هذا. أخبرها باعتراضه، فحَدَّثَته عن شىء غريب، وقالت له:

-هل تعلم أنك محظوظ أنك لا تحيا بمرضك هذا فى العصور الوسطى. لن تتخيل كم كنت ستعانى لو عشت فى تلك الأوقات الكئيبة. هل تعلم أنهم كانوا يعدون المرض النفسى دليلًا على ضعف الإيمان، وعملًا من حبائل الشيطان والأرواح الشريرة وقوى الظلام التى تبغى التهام أرواح المؤمنين. لقد آمنوا أن الهمسات التى يشكوها المرضى هى أصوات كائنات الظلام ووسوستهم. كانوا يعالجونهم بالرقى والعقاقير البدائية التى لا تجدى بلا شك، أو يلجأون للمراسم الكنسية لطرد الشياطين بواسطة الكهنة والقساوسة. لو كان المريض محظوظًا حينها لبرئ حينها، وإلا فهناك الحبس والتعذيب البدنى لإخراج تلك الكائنات الشريرة من رأسه وجسده، بالطبع مات الكثيرون من تلك الوسائل البشعة، لكن الأكثر قسوة كان مصير أولئك الذين يفشلون فى علاجهم فيتهمومهم بممارسة السحر والشعوذة ويحرقوهم أحياء أو يغرقوهم.

اقشعر جسده من هول ما يسمعه. من حسن طالعه بالفعل أنه يحيا فى القرن الواحد والعشرين ولم يختبر تلك الأساليب العنيفة، لكنه رغم كل

ما تقوله لا يصدق أن ما يحدث له مجرد أوهام. فى النهاية هو يدرك أنه ليس مريضًا كما يَدَّعِى الأطباء. هناك بالفعل شر خفى يحاول اقتناصه والنَيْلَ منه. وهذا ما يؤمن به. لكن العجيب أن جلسات علاجهم وأقراصهم قد نجحت فى تخفيف حدة تلك النوبات التى تهاجم عقله حتى انتهت تلك الهمسات تمامًا منذ شهورطويلة. وربما كانت مفارقة تلك الهمسات لعقله سببًا فى اعتقادهم أنه قد شفى مما به، ولهذا أخرجوه من المصحه.

تذكر الأقراص التى زوده بها الأطباء فى المستشفى قبل أن يخرج. والتى طالبوه أن يتناولها لو عاودته تلك الأعراض ثانية. رفع حقيبته التى تحوى الأقراص وفتش داخلها عنها. ثم انتقى من بينها شريطًا كُتِبَ على ظهره بالإنجليزية "اربيبرازول" 30 مجم. انتزع منه قرصًا ووضعه بفمه ثم ابتلعه بلا ماء متجاهلًا مرارته.

غادر الغرفة بعد دقائق نحو الصالة. كانت حجرة أمه فى مواجهته. وكانت علامات أصابعها الدامية على الحائط بجوار الباب كما هى تُذَكِّرَهُ بإصرار بما حدث. صرف بصره عنها، ونظر إلى الغبار الذى غمر أثاث الصالة كلها وحوائطها. كانت الشقة فى حاجة للتنظيف الفورى. فكر فى هذا وهو يوازن بعقله. هل يقوم بالأمر بنفسه، أم يبحث عمن يفعلها لقاء أجرٍ ما.

استدار ليذهب للحمام فالتقت عيناه ثانية بالعلامات الدامية لأمه المطبوعة على الجدار. هذه المرة كانت تتوهج مشتعلة. ارتجف بدنه هلعًا وأغمض عينه على الفور وقد رأى انه قد عاد لأوهامه. وبعد دقيقة أو أكثر فتح عينيه ثانية. هنا لم تعد العلامات متوهجة كما كانت، لكن قلبه ظل ينتفض إثارة. ظلت عيناه معلقة بالأثر الدامى وراح يفكر. أمازال عقله يعبث به ويمارس معه ألاعيبه، أم أن هناك شيء ما يدور بالبيت لايدرى كُنهَه؟..

(4)

خرج من الحمام على دقات الباب وصوت مألوف يناديه من خلفه بإلحاح صاخب. تذكر صاحبه وهو يتجه نحو الباب ليفتحه. كان صديقه ممدوح. رفيق الطفولة والصبا والجامعة. فتح الباب فدفعه ممدوح على الفور للخلف، قبل أن يلقى بنفسه عليه وهو يضمه بشوق لا رياء فيه. لم يكن هناك من فرصة ليرى كيف صار بعد تلك الأعوام وإن لم يَفُته أنه مازال محتفظًا ببدانته. ظل ممدوح يحتضنه بعنف ولسانه لايكف عن الحديث:

-لا أصدق نفسى. لقد عدت حقًا يارجل. أخبرونى بهذا الآن فلم أستطع الإنتظار وهرعت إليك على الفور. يا إلهى ! لا أصدق أننى أراك ثانية بعد كل هذا الوقت.

استمر العناق لدقيقة أخرى، قبل أن يُطلق ممدوح سراحه ليتأمله بشوق. وواصل عماد تأمله هو الأخر. ازداد جسد ممدوح بدانة وتكونت كتل أخرى من الشحم فى كل مكان ببدنه، كما اختفى نحره الآن تمامًا بفعل لُغْدٍ ثخين تكوَّن فى تلك السنوات الاخيرة حتمًا، بينما انحسر الشعر عن مقدمة رأسه حتى المنتصف تقريبًا مُخَلِّفًا القليل من الشعيرات السوداء. ظل عماد ينظر إليه صامتًا، لكن ممدوح لم يفعل وعيناه تتفقده متسعة ومندهشة:

-يا إلهى، ما الذى أراه..ماذا بك يا رجل. تبدو نحيفًا كالبرص. أين ذهب اللحم والشحم؟، أنا لا أرى غير العظام والجلد. هل أنت بخير ؟. لا تخبرنى أنك مريض.

ابتسم عماد وغمغم بشىء من السخرية :

-قد أكون مريضًا لكن ماذا عنك؟. ألا تنظر لنفسك فى المرآة. لقد صرت كالخرتيت. أرى أنك لا تألو جهدًا لتكون هكذا. ما الذى تأكله لتصير هكذا؟..

لم يبتسم ممدوح لدعابته كما كان يفعل دائمًا من قبل. وهو يتعجب من الشيب الذى غزا رأسه. لقد تغير صديقه كثيرًا وتبدل. لكن أكثر ما تغير فيه كان موت تلك الحيوية التى مَيَّزَت عينيه من قبل. صارت عيناه متبلدتان جامدتان. بدا له عماد كرجل عجوز. هنا هز رأسه بعنف, و قد رأى فى عينى عماد أنه يقرأ ما يدور بذهنه فشعر بالخجل وقال بارتباك:

-ما رأيك لو هبطنا لنجلس على القهوة قليلًا,أم ترغب فى تناول العشاء عند (التتن) فى الحسين قبلها. أنت فى حاجة لكيلو أو اثنين من الكباب والكفته لترمم نحافتك هذه. بعدها نعود سويًا لمقلب الزبالة هذا لننظفه. أعتقد أننا سوف نقضى الليل كله فى تنظيف هذه الشقة.

لم يكد يتم عبارته حتى فوجئ بصوت من الخلف يقول له:

-اهتم أنت بعماد, ودع الشقة لى ولسوسن ابنتى. امنحونا ساعات ثلاث فقط وحين تعودون سترون شيئًا مختلفًا.

كانت أم محسن, ومن خلفها برزت فتاة تخطت المراهقة بالكاد. كانت حلوة التقاطيع ذات قوام بديع وقد ارتدت بيجامة ضيقة للغاية أبرزت قوامها المرسوم بدقة وصدرها الناهد. بدت فى عينيها نظرة فضول ساحقة وهى ترمق عماد متفحصة إياه, كأنما ترى مخلوقًا من كونٍ آخر, وقد فتر ثغرها عن ابتسامة عجيبة لم يفهما عماد..

تنهد ممدوح بارتياح لاقتراح أم محسن,وقال وهو يختلس النظر إلى قوام سوسن البديع:

-لا داعى للتعب يا أم محسن. يمكننى أن أساعد عماد فى تنظيفها.

لكنها كانت مُصِرَّة فدفعتهم بيديها للخارج وهى تقول بشىء من المداعبة :

-كُفَّا عن الثرثرة التى بلا طائل وغادرا المنزل الآن. أمامنا عمل شاق هنا. لكن لا تعودا قبل ثلاث ساعات.

تطلع إليها عماد بامتنان وانتقلت عيناه إلى سوسن فبادلته نظرة جريئة دون أن تخفض عينيها, ففعل هو بحرج,ثم خرج مع ممدوح الذى وضع كفه فوق كتفه وقال بتأثر:

-امرأة طيبة أم محسن هذه!.. كما أن ابنتها حلوة. ألم تلحظ هذا ؟!

كان قد لاحظ حلاوتها, كما لاحظ جرأتها الشديدة ونظراتها الحادة. لكنه لم يرغب فى مجاراة ممدوح فى الحديث عنها.

تحركا نحو القهوة, واتخذا طاولة بالخارج, وجلسا عليها, وعلى الفور جاءهما النادل. طلب عماد قهوة سادة وطلب ممدوح الشاى, والتفت عماد إلى ممدوح وقال بهدوء:

- لم تأت أبدًا لتزورنى فى المستشفى كل هذه الأعوام,اعتقدت أنك تشارك الجميع فى اتهامهم إياى بقتل أمى.

احتقن وجه ممدوح خجلًا, بدا وكان السؤال قد فاجأه. وبشىء من الارتباك أجاب:

-لم أرغب فى أن أراك هكذا. أنت تعلم أن هذا فوق طاقتى. كان هذا ليشعرنى بالعجز والضعف. كنت لأبكى لو رأيتك هكذا.

-رغم هذا كان عليك تأتى. ألم تدرك أننى قد أكون بحاجة لمثل تلك الزيارة؟

ثم صرف عماد عينيه نحو الأفق وصمت للحظة قبل أن يكمل قائلًا:

-كنت دومًا فى حاجة لمن يزورنى ويحدثنى. كنت بحاجة لمن يخبرنى أننى لست مجنونًا. هل تفهم معنى أن تعيش كل تلك الأعوام لا تُحَدِّث غير المرضى عقليًا. أن تقضى كل تلك الأعوام دون أن يزورك أو يسأل عنك أحد. كنت لأفقد عقلى بلا شك لو مكثت فى المستشفى لوقتٍ أطول.

لم يجد ممدوح ما يجيبه به, فأطرق بوجهه لأسفل ولاذ كل منهما بصمته, رمق عماد الشارع بخواء. بينما نهش الخجل روح ممدوح من معاتبة صديقه. لم يكن الأمر مفاجئًا فقد توقعه كثيرًا, جهز عشرات الإجابات والحجج لكنه وأمام عينى صديقه نسى كل ما رتب له من قبل. طال الصمت وشعر ممدوح أن عليه أن يقطعه وأن يقول شيئًا ما فقال بخفوت:

-أتمنى لو تسامحنى ياعماد. أقسم أننى لم أتخيل أن أراك فى مستشفى المجانين. أرجو أن تصدقنى فى هذا. الأمر لم يكن أبدًا أننى أتهمك كالآخرين بقتل أمك,ولم يكن كذلك كسلًا منى وعدم اكتراث بزيارتك. لكنى كنت دومًا أتذكر ماحدث وأشعر بالحنق من نفسى لأننى لم أكن ذا جدوى حقيقة فى معاناتك المشئومة. لا أُعِدُّ هذا عذرًا,لكننى مازلت آمل فى تفهمك.

لم يُعَقِّب عماد وظل ينظر إلى الافق المظلم بشرود,حتى أتى النادل بالقهوة له, فراح يرتشفها ببطء. تصاعد فى نفسه إحساسه بالغربة والوحشة, وعاوده شعور ممض بأنه لم يعد ينتمى لهذا العالم. حتى ممدوح صديقه الوحيد ها هو يجلس بجواره صامتًا وقد انتهى الكلام بينهما فى دقائق معدودة, كأنما لم يعد هناك ما يُقال. وقطع ممدوح حبال أفكاره وهو يقول:

-هل علمت بالثورة ؟

هز رأسه ببطء وأجاب دون أن يلتفت إليه:

-كنا نتابع اخبارها أحيانًا من الجرائد أو التليفزيون. لكن لا تتخيل أننى كنت أكترث بها.

- لقد مات هنا الكثيرون فى أيامها الأولى وفى الأحداث التى تلتها. البعض قُتلوا فى المظاهرات والبعض الأخر أمام الأقسام ومراكز الشرطة. فى شارعنا هذا كان أسامه عبدالعزيز أول من مات. هل تتذكره ؟

تذكره على الفور فهز رأسه ببطء وهو يرتشف قهوته ولم يُعَقِّب. لم تختلج فى نفسه أى شفقة أو ألم نحو أسامه. شعر أن مصيبته التى عاشها ومازال فيها قد أذهلته وصرفته عن مصائب العالم أكمله. ليحترق العالم كله أو ليبقى, فلم يكن الأمرُ ليُحَرِّكَ فى نفسه ساكنًا. هل تَقتل مأسينا مشاعرنا وتعاطفنا مع مصائب الأخرين,وهل تئد معاناتنا إنسانيتنا وتعاطفنا مع الام الأخرين ؟. إن هذا ما حدث معه. ولا يدرى هل هذا يحدث معه فقط أم أنها من طباع البشر ؟..

راح يتابع بشرود ما يحكيه ممدوح بحماس عن الثورة. حَدَّثه كثيرًا وكل ما فهمه أنه لا أحد يعى ماذا حدث بالضبط. هل كانت ثورة أم مؤامرة ؟. وكأن تلك الأحداث الجِسام والدماء التى أريقت قد زادت من عبثية الحياة فى البلد ولم تجلو أمرها.

هنا رأى على بُعد شيء ما يتحرك فى أحد الأركان المظلمة المواجهة له, كان شبح امرأة أدرك منذ اللحظة الأولى من تكون. لقد كان شبح أمه ثانية!!..

لاحظ ممدوح نظرته الجامدة نحو تلك البقعة فتطلع إليها فلم يرى بها شيئًا فقال بحيرة:

-لماذا تنظر إلى ذلك الركن هكذا؟

ظل شبح أمه فى مكانه فى الظل ساكنًا فغمغم:

-هل ترى أحدًا يقف فى ظلام ذلك البيت؟. هل ترى هناك امرأة ما؟.

ضَيَّقَ ممدوح من عينيه ليرى تلك المرأة المزعومة فلم يرى شيئًا. البقعة التى يرمقها عماد مظلمة لا أحد بها, فرمق عماد بارتياب وقال:

-أنا لا أرى امرأة ولا حتى رجلًا. هل ترى أنت أحدًا لا أراه؟.

إذًا هى الأوهام ثانية. فكر عماد وهو يُغمض عينيه وأجاب ممدوح بسرعة كى لايثير شكوكه وتوتره :

-كلا. إننى لا أرى شيئًا. إنها الظِلال حتمًا. لم يعد نظرى كالسابق.

وَجِمَ ممدوح وراح يراقب الإرتجافه الخفيفة التى اعترت جسد عماد وشعر بأنه ليس على مايرام. وراح يتسائل إن كان مكوث عماد الطويل فى مستشفى الأمراض العقليه قد أثَّرَ على قُوَاه العقلية. أيكون هذا تفسير غرابة أطواره التى يشهدها الآن. لم يشعر بالراحة فراح يرمق وجه عماد من حين لآخر.

بينما تجاهله عماد وأغمض عينيه, وعاد لممارسة تدريبه القديم. راح يعد حتى الرقم عشرة ببطء قبل أن يفتح عينيه ليختفى شبح أمه من أمامه ويعود المكان لفراغه وسكونه. هنا عاد ليتحدث مع ممدوح فى أشياء لا معنى لها ومواضيع متداخله لا رابط بينها, كى يصرف عقله عن التفكير فى ما يحدث له.

*****

(5)

عاد لمنزله وقد تجاوزت الساعة الثانية صباحًا. كان باب شقته مفتوحًا فدلفها بحذر, لينبهر بنظافتها. وكانت سوسن بانتظاره بالشقة بمفردها. عيناها البندقيتان تتحدثان بأشياء كثيرة, وقوامها الساحر الملفوف ببيجامة ضيقة قصيرة تلهب خيالات لاتنتهى. وبسمتها المستخفة تشى بمعركة دامية ستتأجج فى أعماقه لتنتهى بهزيمة مؤكدة. المشكلة أن مستقبلاته الحسية والنفسية لمثل تلك الأشياء كانت مفقودة. الفتاة جهزت جنودها وأعدت أسلحتها لمعركة مضمونة النصر لكنها تواجه عدوًا مهزومًا فى أعماقه من البداية. كان كل ما يشعر به هو العجب مما تفعله.

الوقت المتأخر وملابسها الجريئة وأمها الغائبة ورغبتها الصارخة كانت أمور أرهبته. لاحظ حركتها العصبية وهى تنظر إليه, فدهش وهو يتخيلها تلك الفتاة الصغيرة النحيفة التى لم تكن قد جاوزت العاشرة حين رآها آخر مرة. لقد ماتت الطفلة الخجول التى كان يمرح معها ويحملها فوق ذراعيه ويلاعبها, وولدت الأنثى التى تعبث الرغبة والمراهقة والهرمونات بجسدها بلا هوادة. وابتسم ابتسامة باهتة لا معنى لها, وقال لها محاولًا أن يبدو أمامها لا مباليًا بما تفعله:

-يبدو أننى قد أخطأت الشقة. لم تكن شقتى بمثل هذه النظافة والجمال حين غادرتها قبل ساعات. هل استعملتِ السحر فى تنظيفها ؟

تجاهلت الرد على كلماته, وقالت ببطء دون أن تبتسم لدعابته:

-أنتظرك منذ ساعتين على الأقل. لكنك تأخرت. وها هى قدماى تؤلمانى. أيروقك هذا؟

رمقها بحيرة. فما شأنها بعودته أو حتى غيابه؟. لم يشأ أن يَصُدَّها أو يبدو فظًا معها, فقال وهو يجلس على الكنبة المقابلة لمقعدها الذى تجلس عليه:

-لم أكن أعلم أنك بانتظارى. اعتقدت أنكما ستنظفان الشقة ثم تغادران.

-لقد انتهينا منها منذ ساعات, وأوت أمى للفراش بعدها منهكة. لا تتخيل كم كانت متسخة. كانت كالحظائر. بالمناسبة, لقد جمعت أمى ملابسك كلها لتنظفها وتغسلها. فلا تقلق لو لم تعثر عليها, سنعيدها اليك غدًا فور أن تجف.

صمتت بعدها دون أن تبعد عيناها عن عينيه قبل أن تقترب منه وتقول هامسة:

-أنتظرك لأرى إن كنت تريد شيئًا ما؟.

مرة أخرى تدهشه جرأتها. كانت ترمق عيونه بعينيها الواسعتان دون أن تخفضهما حياءً كما ينبغى أن تفعل, فأبعد عينيه عنها وقال بشىء من البرود:

-أعتقد أنه بإمكانى الاهتمام بشأنى. ولو احتجت شيئًا سأخبرك.

لم تهتم برده البارد وقالت:

-هل تعلم أنك قد تغيَّرت كثيرًا عن المرة الأخيرة التى رأيتك فيها.لقد فقدت الكثير من وزنك, لكنك رغم هذا مازلت وسيمًا.

-كلنا يتغير يا سوسن. الزمن لا ينسى أحدًا. كلنا يكبر طوال الوقت

نهضت من مقعدها وفتر ثغرها عن ابتسامة أظهرت أسنانها النضيدة البيضاء وهو تتوقف أمامه, وهتفت:

-وكيف ترانى الآن ؟

لم يكن يدرى ما يقوله لها. ولا يعرف الإجابة الصحيحة التى تنتظر أن تسمعها منه الآن, فقال مُجَامِلًا :

-لقد صرت آنسة حلوةً وجميلةً بالطبع.

-أهذا يعنى أننى أعجبتك ؟

كان هذا أكثر مما يتخيله ويحتمله. فكر فى وسيلة ما لإخراجها من بيته والتخلص من إلحاحها. كان الخجل وحده ما يمنعه من طردها خارج المنزل. فأبعد عينيه عن عينيها المحدقتين فيه بإصرار, وقال بضيق:

-ألا تعتقدين أنه ليس من اللائق أن نكون سويًا فى البيت فى هذا الوقت المتأخر. أرى أن نؤجل حديثنا هذا للغد.

لم يبد على خلجاتها أنها قد تأثرت بدعوته المهذبة لها بمغادرة بيته, وظلت جالسة بمكانها تحدق فيه, ثم قالت مبددة الصمت الذى أظلهما للحظات, وهى تعبث بشعرها وتضم شفتيها القرمزيتان بصورة تعمدت أن تبدو مثيرة :

-لكنك لم تجب سؤالى بعد. هل رُقْتُ لكَ؟.

بدأ صبره ينفد وبدأت يده فى الارتعاش توتُرًا من عبثها وقال ببعض الحدة:

-لقد أخبرتك أنكِ صرت حلوة.

بدا أن جوابه لم يروقها أو يرضها, فمطت شفتيها ثم قالت بضيق:

-إننى أعلم حبك ل "منى". لكنها رغم هذا لم تنتظر.

انتفض على الفور حين ذكرت "منى" أمامه. لكنها أكملت بلهجة غريبة:

-أعلم أنها جميلة. لكنها لم تعد لك. هل تعلم أنها قد تزوجت منذ خمسة أعوام وأن لديها طفلة الآن.

وَدَّ لو يصفعها ويطردها من المنزل وقد تمادت فى تطفلها وجرأتها.. لماذا ترغب فى اقتحام قدس أقداسه وتدنيسه بوقاحتها؟. شعر أن هذا هو وقت الحزم فقال بحدة وقد ارتفع صوته:

-أعتقد أنه لا شأن لك بهذا يا سوسن. كما أعتقد أن الوقت قد حان لأن تغادرى منزلى. لا أحب أن يرانا أحد معًا فى وقتٍ كهذا. من فضلك عودى لمنزلك الآن.

بادلت نظرته الغاضبة الحادة بنظرة متحدية لا مبالية, قبل أن تتنهد وتشير نحو لحيته الكثة وتقول:

-بالمناسبة احلقها من أجلى لتصير أكثر وسامة.

رمقها بسخط. ونهض مُتَّجِهًا نحو الباب, وهو يشير بيده نحو الخارج قائلًا:

-أعتقد أن خير ما تفعليه الآن أن تغادرى منزلى. مرة أخرى أشكرك على ما قُمتِ به, ولا تنسى أن تشكرى أمك من أجلى.

رمقته مبتسمة, قبل أن تنهض وتسير ببطء متمايلة وهى تتجه إليه. وما أن حاذته حتى توقفت فى الفراغ الصغير الذى يفصل جسده عن الباب, فشم رائحة ندية عطره تشبه رائحة الياسمين تنبعث من جسدها, وهمست وهى تميل عليه:

-أعلم أننى قد أعجبتك. لقد رأيت هذا فى عينيك رغم جفاءك وغلظتك. فضحتك عيناك أيها الوسيم.

لم يُجِبْهَا وابتلع ريقه بصعوبة توتُرًا, وحاول أن يبدو صوته متماسكًا, وهو يقول لها :

-تصبحين على خير يا سوسن.

لكن صوته خرج مرتجفًا ووشى باضطرابه, فابتسمت بظفر, وتنهدت مرسلة لأنفه أنفاسًا معبقة برائحة أنوثتها الملتهبة, قبل أن تتحرك بدلال مغادرة الشقة. لم ينتظر حتى تدخل شقتها, وأغلق الباب خلفها فى عنف ثم وقف خلفه يلهث. تملكه الضيق وقد أدرك أى أيامٍ صعبة هو مقبل عليها من تلك الفتاة.

توجه الى المرآة الموجودة بحجرته ونظر فيها إلى وجهه النحيف, رمق بأسى لحيته الكثة وتوقف لبرهة أمام نظراته المتبلدة.. إنه حطام بشرى بحق. ما الذى فيه كي يروق لفتاة حلوة وصغيرة مثل سوسن. من الطبيعى أن تنظر لشاب فى مثل عمرها أو أكبر قليلًا, لا أن تلاحق رجلًا عمره ضعف عمرها ولا يوجد فيه ما يجذب أى فتاة عاقلة. حتمًا هى حمقاء أو مختلة لتفعل.هنا انتبه لشىء مهم. فعلى سطح المرآة المصقولة رأى شبح أمه ينتصب بجواره تمامًا مبتسمًا. وتواثب قلبه على الفور هلعًا حين سمعها تقول:

-ألا ترى أنك تروقها أيها الأحمق؟. الحمقاء تحب مجنونًا قاتلًا.

أغمض عينيه على الفور وقلبه يخفق وراح يعد بعصبية من واحد حتى عشرة, وحين انتهى عاد ليفتح عينيه. لم تكن هناك كما يحدث كل مرة. لكنه ظل يرتجف بشدة لبعض الوقت. هل كان هذا شبح أمه حقًا أم أنها الأوهام؟!.

تحرك نحو فراشه الذى عاد نظيفًا, فألقى جسده عليه بإعياء دون أن يفكر فى تغيير ملابسه, وعاد يفكر فى حبيبته التى غادرها رغمًا عنه فغادرته

إلى غيره للأبد. تذكر منى ونبض قلبه بقوه وذكرياتهما المشتركة التى حُفرت فى أعماقه تعاوده ثانية لتلهب مشاعره..

لقد أخبرته سوسن عن الطفلة التى أنجبتها "منى". ترى كيف تبدو تلك الفتاة، وهل تبدو كأمها أم أنها تشبه أباها الذى لا يعرفه.. راح عقله يتساءل من تراه ذلك المحظوظ الذى حظى ب"منى". نعم، إنه محظوظ بلا ريب، فلولا ما حدث له ما كان هناك أحدًا يخطفها منه مهما حدث.

*****

(6)

وحمل اليوم التالى له مفاجأة لم يتخلها حين رآها.

رأى "منى" مرة أخرى.

كان قد خرج بعد الظهر ليحضر شيئا ما يأكله. تحرك بخطوات هادئة نحو محل البقالة فى أول الشارع. كان هناك فتىً نحيفًا فى مقتبل عمره ذا نظرات لزجة لم يحبها. سأله أن يجلب من أجله الجبنَ وبعض علب التونة والخبز، تحرك الفتى بتكاسل ليحضر له ما طلبه بينما التفت عماد نحو الشارع يتأمله بشرود.

ومن بعيد رأى امرأة تتحرك نحوه. كانت تمسك بيدها طفلة لا تتعد الثالثة من عمرها وهى تسير بجوارها مطرقة رأسها. تعرفها منذ الوهلة الأولى، فدق قلبه وارتجف. كانت منى. مازالت مشيتها المنتظمة المستقيمة كأنما تهرول كما هى، ومازالت تسير وعينيها لاتفارق مؤطأ قدميها، كأنما تهرب بعيونها من العالم كله..

لم يدر ما يفعله وهى تقترب حثيثًا منه. ستكون بجواره بعد دقيقة على الأكثر، ومازال الفتى بالداخل يزن الجبن. فكر فى أن يبتعد عن محل

البقالة حتى تمر ثم يعود ثانية. لكن ماذا عن فتى البقالة هذا؟..ما الذى سيدور بخلده عنه حينها؟. سينعته بالجنون حتمًا، وربما قص ما حدث للجميع. لم يشأ أن يُعَقِّدَ وضعه فى المكان أكثر مما هو مُعقَّد، فمكث فى مكانه، وأدار ظهره للشارع حين بلغته منى. وصله صوتها الرقيق الذى طالما أذاب قلبه وهى تُحَدِثُ الطفلة وتسألها عما تريده. وسمع الصغيرة تطالبها بصوتٍ رفيع حلو

"عصير مانجو، وشيبسى كبير، ومصاصة"..

وَدَّ لو يلتفت ليرى ابنتها. كانت لتكون ابنته هو لو لم يعانده القدر. لكن البائع الأحمق أفسد محاولته للتخفى، حين ناداه ليعطيه ما طلبه. فكر فى أن يتجاهل ندائه، عسى أن ينصرف عنه إلى "منى" وابنتها ليعطيهما ما طلباه، ثم يعود إليه لكن الفتى لم يفعل، بل ناداه ثانية بصوتٍ خشن يحمل الكثير من الفظاظة:

-يا أستاذ!. لماذا لا ترد؟!. ألا تسمعنى؟!. لقد أعددت ما طلبته. تفضل أشيائك.

لم يكن من مفر من أن يلتفت ويرد عليه. ووجد عينيه فى اللحظة التالية ترتعشان بين عينيها. هنا ارتسمت على مُحَيَّاها تعبيرات لا تنتمى للبشر. مزيج من الدهشة والحيرة والشوق والألم والعتاب والسرور. كل هذا بدا على وجهها فى وقتٍ واحد. وارتجف كفها بشدة حتى أن الطفلة البيضاء الحلوة رفعت رأسها نحوها لترى ما بها، وصاحت بحيرة :

-ماما !. ماما !.

وانحدرت من عينيها دمعتان ساخنتان ظلتا حبيستا أجفانها لأعوامٍ طِوال، بانتظار لقاءهما مرة أخرى لتتحررا. فتحت فمها لتقول شيئًا ما قبل أن تغلقه بسرعة،كأنما تاهت منها الكلمات. رأى فى عينيها نداءًا خفيًا

لأن يحتضنها، أو يختطفها لتدفن فى صدره مرارات سنين خَلَّفَهَا فى نفسها الزمن. رأى كل هذا وقلبه يرتجف وفى أحشائه بركان هادر من المشاعر والأشواق يزأر ويثور. تجمد الوقت وطالت اللحظة الصامتة، وتبادلت عيونهما حديثًا خفيًا بث فيه كل منهما للآخر لواعج نفسه طويلًا. وحين أفاق من ذهوله كان فتى البقالة يهتف فيه بصوت أقرب إلى الصراخ :

-ماذا بك يا أستاذ؟. ألم تسمع كل هذه النداءات؟. هل تتعاطى شيئًا ما يا هذا؟.

التفت إليه بلا مبالاة وتناول حاجياته المكَدَّسة فى كيس بلاستيكى وسأله ببرود:

-كم حسابك؟

-سبع وأربعون جنيًها.

عاد لينظر إلى "منى" التى أطرقت رأسها نحو الأرض وقال:

-انظر ماذا تريد الأستاذة وطفلتها وأضفه لحسابى.

هنا كلمته للمرة الأولى. وخرجت كلماتها من حنجرتها شاحبة مرتجفة كوجهها:

- كيف حالك ياعماد.

- أهذه ابنتك؟.

أومأت برأسها موافقة فانحنى نحو الطفلة التى رمقته بفضول. حاول أن يُقَبِّلَهَا فرفعت رأسها لأمها بِحِيْرَةٍ كأنما تسألها هل تسمح له بقُبْلَة؟. لكنه قَبَّلَهَا رغما. كان البائع قد عاد يراقبهما بنظراته اللزجة بعد أن أحضر ما

طلبته الطفلة. شعر بالإحراج فأعطاه حسابه، قبل أن يتحرك مبتعدًا عن المحل برفقة منى وابنتها. وقال بصوتٍ خافت:

-كيف حالك يا منى؟

تنهدت وهى تكتم أهة حارقة تتأجج فى أعماقها، وأجابت بصوتٍ خافت:

-الحمد لله.

-ابنتك جميلة.إنها تشبهك كثيرًا.

-أشكرك

-ما اسمها

صمتت للحظة وواصلت سيرها مُطرِقَة دون أن تهتم بعيونه التى لا ترتفعان عنها، قبل أن تقول بصوتٍ خافت مقتضب:

-"سما"

اعترته الدهشة فجأة فتوقف فى مكانه، بينما بدا عليها التوتر وقد رغبت فى إنهاء حديثهما فجأة، فجذبت الفتاة بقوة لتدفعها للسير أسرع، وهى تهرول مبتعدة دون أن تودعه. ظل بمكانه فى منتصف الشارع وعيناه معلقتان بها. ما الذى يسمعه. هل أسمت ابنتها سما؟ لقد كان هذا هو الاسم الذى اختاراه سويًا من قبل لطفلتهما الأولى.

ودَوَّى من خلفه نفير سيارة يعترض طريقها، فانتبه وتحرك مبتعدًا عن الطريق وما زال فى ذهوله. أمازالت تذكره وتحبه حتى تسمى طفلتها الأولى، بالإسم الذى اختاره لها من قبل. حدَّثَهُ قلبه أنها مازالت تهيم به وتذكره. لو لم تكن كذلك، فلماذا هربت فجأة منه بعد أن أخبرته اسم الطفلة.

وصل للبيت الذى يقطن فيه وصعد الدرج ليجد سوسن على باب شقتها بانتظاره فتنهد بضيق وغمغم فى سره "ليس ثانية !". ابتسمت له وهى تلوك علكة، وقد ارتدت هذه المرة بنطلونا أخضرًا ضيقًا، وبلوزة زهرية قصيرة ضيقة أبرزت صدرها. بلغ باب شقته فتحركت نحوه وقالت :

- أعددت الطعام من أجلك ورأيت أن أنتظرك. دقيقه واحدة وسأجلبه لك من الداخل.

-لا داعى لهذا. لقد جلبت الطعام من الخارج..أشكرك

لكنها لم تلتفت لاعتراضه واختفت فى شقتها قبل أن تعود حاملة صينية عليها أطباق مغطاة. فتح باب شقته باستسلام فسبقته للداخل ووضعت الطعام على طاولة بالصالة يستعملها كمائدة، بينما ظل هو واقفًا أمام الباب منتظرًا أن تغادر منزله فعادت إليه وقالت بدلال :

-ما رأيك لو نأكل سويًا..هذا سينعش شهيتك.

-أتمنى لو كنت أستطيع. لكننى لا أشعر بالجوع الآن. ربما نتناول الطعام سويًا فى المرة القادمة.

تنهدت بضيق قبل أن تتحرك نحو الباب وغمغمت بصوتٍ خافت :

-كما تحب. لقد كان مجرد اقتراح.

ثم غادرت المنزل فتنهد بارتياح وجلس على مقعد مجاور للطاولة التى عليها الطعام وعاد يفكر فى "منى" ثانية. مضى وقت طويل وهو يَجْتَرُّ ذكرياته معها قبل أن ينتبه إلى شىء ما يحدث من حوله بالشقة. كانت حجرة أمه مفتوحة الباب ومضاءة. لم يكن قد دخلها منذ عاد للشقة ولم يكن ليفعل. إذًا من فتح بابها وأضاء مصباحها. تحرك نحوها ليطْفِئَ نورها ويُغلق الباب وهو يُغَالِب توتره. دلفها بتردد متحاشيًا النظر إليها ومَدَّ ذراعه

نحو الحائط المجاور للباب باحثًا عن مفتاح الكهرباء، ثم ضغط عليه فساد الظلام. كان على وشك إغلاق الباب حين رأى الشىء المتوهج على الحائط خلف فراش أمه..

كانت هناك كتابات تتوهج بلهيب جهنمى..

"سوف أعود "

وأسفلها اشتعل ذلك الرمز الذى بدا به كل شىء..

الثعبان النارى الملتف حول نفسه والذى تتوسطه جمجمة تشتعل عيناها وعلى جانبى رأسها قرنان قصيران.

أظلمت الدنيا فى عينيه، واكتنف الدوار عقله لكنه تحامل على الباب ليغادر الغرفة. ثم أغلق الباب خلفه. وتناهت لأذنه تلك الضحكة المخيفة التى ترددت خلف الباب المغلق..

راح يلهث، وهو يندفع إلى حجرته باحثًا عن دواءه ثانية ليرد به تلك الأوهام.. وهو يردد بلا انقطاع وجنون

"أوهام لعينة. إنها كذلك. كل هذا ضلالات وهلوسة."

وابتلع الأقراص بارتباك دون ماء، ثم انهار بجوار الفراش مغْمِضًا عينيه فى انتظار الدوار الخفيف الذى تحدثه العقاقير.

غابت منى وماتت سوسن من عقله وعادت الأحداث المشئومة لتطفو على سطح عقله ثانية. ودون أن يشعر بنفسه راح ينتحب

*****



(7)

أفاق فى المساء و منى لاتفارق تفكيره. اعتصره الألم فتحرك نحو النافذة ونظر للأفق المظلم فى شرود وسأل نفسه. ما الذى اقترفه فى حياته كى يفقد كل شىء. أمه التى قتلت، وأخته التى هجرته، وحبيبته التى تزوجت غيره. والسنوات السبع التى قضاها حبيس الصحة النفسية، ومستقبله الذى ضاع. أى عدالة تلك فى ما يحدث له؟. وكيف يمكن للأيام أن تعوضه عن خسارته تلك. تعالى إحساسه بالضياع، وضاقت أنفاسه، فاتصل بممدوح وأخبره أن يقابله فى القهوة.

وفى القهوة رغب عماد فى معرفة المزيد عن "منى" فأخبر ممدوح بما جرى بينها فى منتصف اليوم. وبدا الانزعاج على وجه ممدوح حين سمع هذا، فصاح فيه :

-أى حمق هذا الذى فعلته يا رجل. يبدو أنك فقدت عقلك بالفعل فى تلك المصحة اللعينة. لقد صرت مجنونًا بلا شك.

لم يفهم عماد لماذا غضب هكذا وأى جُنونٍ فى ما فعله، فقال بتعجب:

-وماذا فعلت لأصير بالجنون ؟

-لقد تحدثت معها فى الشارع أمام الناس جميعًا. هذا يكفى وزيادة لتكون مجنونًا.

-وماذا فى هذا ؟.. طالما وقفنا سويًا من قبل ولم يُعَقِّب أحد.

-كان هذا قبل أن تتزوج. لكنها الآن قد تزوجت. وليت زوجها كان شخصًا عاديًا. إنه محمد عصام.

شعر عماد أنَّ الإسم مألوفًا له. وأنه يعرف صاحبه. اجتهد فى تذكره للحظات قبل أن تسعفه ذاكرته فتعَرَّفَهُ. هنا اتسعت عيناه باستنكار حقيقى ووجد نفسه يهتف دون أن يشعر بصوته المرتفع :

-محمد عصام هو زوج منى. مستحيل!. محمد عصام؟!. ذلك المخنث. إنه أتفه شاب عرفته فى حياتى !. هل هو من تزوجته "منى".. لا ريب أنك تمزح.

لدهشته رأى كيف اتسعت عينا ممدوح ذُعرًا، وراح يتلفت برأسه بسرعة وقلق ليرى إن كان أحد ما قد انتبه لما يقولانه أم لا..قبل أن يميل نحوه ويهمس بحنق:

-اخفض صوتك أيها الأحمق. سوف تجلب لنا المتاعب بصوتك هذا. لقد تغير محمد عصام ولم يعد ذلك المخنث التافه الذى كانه. لقد صار أحد أكبر تجار المخدرات فى المنطقة وله أتباع وأعوان وشركاء. إنه أخر من ترغب فى عداءه الآن.

تجددت الدهشة فى نفس عماد، وهو لا يتخيل أن يتحول محمد عصام الذى لم يعرفه إلا هشًّا ناعمًا كالفتيات، إلى تاجر مخدرات وزعيم عصابة إجرامية. مازال يذكر كيف كاد أن يفتك به يومًا حين شاهده وهو يعاكس منى ويضايقها. توالت حينها صفعاته على وجه محمد وراح يقذفه يمينًا ويسارًا ويتناقله بين أقدامه كالكرة دون أن يقدر حينها على الدفاع عن نفسه. يومها راح محمد عصام يصرخ مستغيثًا وهو يكرر قسمه أنه لن يفعلها ثانية. والآن يخبره ممدوح أنه احترف الإجرام، بل وتزوج "منى" التى كانت تمتعض من نعومته ولزوجته فيما مضى.. ورغم ذعر ممدوح الحقيقى الذى أنبأه أن ما يقصه حقيقة لا اختلاق فيها إلا أن عقله أبى التصديق، وسأل ممدوح بصوتٍ مخنوق :

- أخبرنى بكل شىء. كيف تحول محمد عصام للإجرام، ومتى تزوج "منى". وكيف وافقت هى بالزواج منه. أريدك أن تخبرنى كل ما تعرفه.

أعاد ممدوح الشيشة لفمه والتقط منها نفسًا عميقًا. أخرجه ببطء وقال:

-لقد تزوجها بعد شهور من القبض عليك وذهابك للمصحة. تقدم لخطبتها فرفضته، بل وطردته حينها من منزل أبيها. لكنه كان لَحُوحًا فكرر محاولته فُرفض، ثم عاد مرة ثالثة ورُفِضَ مرة أخرى. لكن أهلها لم يدعوها. ضغطوا عليها وبوسيلة ما أجبروها على الموافقة على "محمد" حين تقدم المرة الرابعة، وقد وعد أهلها بالمهر الكبير والمؤخر الضخم، وأغدق عليهم بأمواله التى ورثها عن أبيه. لا أحد يعلم كيف وافقت "منى" عليه هذه المرة، لكننا فوجئنا بزواجهما بعد خطبة قصيرة لم تتعد الشهر.

لم يصدق عماد ما يسمعه. أى شيطانٍ هذا الذى يدفعها للزواج من هذا اللعين. لكنه لم يُعَقِّب وهو يستمع إلى ممدوح الذى أكمل:

-لم يكن محمد سعيدًا فى زواجه من "منى" كما أعلم. هنا راح حاله يتغير. احترف شرب الخمر والحشيش والأقراص المُخَدِّرَة وتمادى فى غِيِّهِ فمارس القمار وراح يتعقب فتيات الليل، ليفقد فى شهور معدودة كل ما كان يملكه. ثم راح يُسِيءُ معاملتها رغم إنجابها منه طفلتها. سلبها حينها كل ذهبها وأموالها بل وباع بعض أثاث المنزل أيضًا من أجل القمار الذى ذهب كما يبدو بعقله قبل أن يذهب بأمواله.

راح يعاملها بقسوة ويضربها، بل وصل الأمر به إلى طردها يومًا من المنزل بعد منتصف الليل بملابس النوم. ربما كان مخمورًا أو مُغَيَّبًا تحت تأثير العقاقير المخدرة التى أدمنها، حين فعل هذا.

واشتعل فى نفس عماد الغضب وثار كيانه كالبركان، وهو يتخيل كل ما حدث لمنى. هاله أن يعتدى عليها ذلك الجبان بالضرب، بل ويطردها فى

منتصف الليل عارية بملابس نومها، لتنهشها العيون ويشمت فيها الشامتون..فهتف بغضب وهو يضرب المنضدة الخشبية بقبضته فى حنق:

-ذلك الوغد الحقير..لو حضرت هذا لقتلته بيدى..

أومأ ممدوح برأسه موافقًا وأكمل بعد نفس أخر من الدخان:

-أوافقك تمامًا انه وغد حقير. لن تجد من يعترض على وصفك له هكذا. لكن أن تقتله بيدك الآن فهذا أمر مشكوك فيه. المهم أن "منى" طلبت الطلاق بعدها لكنه لم يوافق ونجح بحيلة ما فى إعادتها لبيته. ثم قامت الثورة وسادت الفوضى. حينها تناهى لأسماعنا أنه راح يتاجر فى المخدرات على نطاق محدود، قبل أن يشتهر أمره وتتسع تجارته ويلتف حوله أعوان وأتباع من البلطجية. هنا صار رجلًا أخر. شخص لا قلب له فتك بالكثيرين. هل تذكر صلاح الجن؟.. ذلك الفتى الأشقر الذى كان يمتلك ورشة للسيارت فى أول الشارع. لقد هجر ذلك الأحمق عمله وانضم إلى محمد عصام وعصابته، ويبدو أنهم اختلفوا لأمر ما من أعمالهم المشبوهة، وفوجئنا ذات صباح بجثة صلاح عارية مذبوحة، وقد عُلِّقَت من أرجلها فوق أحد الجدران بالقرب من بيته.

-وكان محمد عصام من فعل هذا به؟

- الكل يعلم أن محمد هو من فعلها، لكن لا أحد كان يجسر على اتهامه. الكل يهابه ولا أحد يبغى عداوته.

لقد توحش الرجل بحق، فكر عماد بتعجب. لا يدرى كيف يمكن أن يحدث أمر كهذا وكيف تتغير شخصية المرء هكذا للنقيض تمامًا. شعر أن ممدوح يُحَدِّثُهُ عن رجلٍ لا يعرفه. لكنه وبينما ينظر للفراغ بشرود عاد ليفكر فى "منى" ثانية..

-وأين "منى" فى كل هذا؟.. لماذا لم تردعه أو تمنعه عما يفعله؟.

-لقد طلبت الطلاق مِرَارًا. بل وغادرت منزله لمنزل أبيها مراتٍ كثيرة. لكنها كانت تعود فى كل مرة. أعتقد أنه يهددها أو يهدد أهلها، ولهذا كانت ترضخ له.

خَيَّمَ الصمت بعدها عليهما، وقد فهم عماد لماذا اتهمه ممدوح بالجنون حين حَدَّثَ "منى" ظهر اليوم. ربما خشى أن يدفع محمد أحد أعوانه للتحرش به.. لم يكن فى الواقع يخشى أى شىء أو يهتم بعواقب أى حماقة.. إنه شخص فقد كل ما يحبه، فما الذى يخاف عليه غير حياته المليئة بالآلام والأوجاع..

قرر أن يلتقيها ثانية مهما كلَّفَه الأمر. يجب أن تخبره بالذى لا يعلمه. يجب أن يعرف كيف تطيق الحياة مع شخص مثل زوجها هذا. يجب أن يعلم منها لماذا قبلت بالزواج منه.

وفى اليوم التالى انتظرها أمام المدرسة التى تعمل بها. وبعد حين تهادت أمام عينيه مُقبِلَة من باب المدرسة. انتبهت له فوجِلَت للحظة وبان التردد عليها قبل أن تتحرك نحوه ببطء وقد احتقن وجهها. وصلت له ومدت نحوه يدًا طالما احتضنها وقَبَّلَهَا. سَلَّمَ عليها وهو يود احتضانها، فرأى كيف ترتعش أناملها بين كفيه. لم يكن هناك وقت للمقدمات. وقال لها مُعَاتِبًا :

-ما الذى فعلتِهِ بنفسك يا "منى" ؟. أى أتون هذا الذى ألقيتِ نفسك فى باطنه ؟. محمد عصام؟!. ألم يمكنك أن تختارى غيره؟!.

انحدرت الدمعات الساخنة المقهورة على صفحة وجهٍ رائق، وهى تتحرك بجواره مُطرِقَة برأسها بهوان، ومن فمها خرجت الكلمات اليائسة المذعورة:

-لقد قاومت كثيرًا. قاومت أكثر مما تظن. لكنهم لم يتركونى وشأنى، ظلوا يُلِحُّون على. هنا قررت أن أختار محمد عصام دون غيره. أتدرى لماذا؟.

التفت إليها وهزَّ رأسه ببطء منتظرًا إجابتها، فأكملت بابتسامة باهتة:

-لأنه الوحيد الذى لم أحبه أبدًا ولن أفعل أبدًا. اخترته لأنى كنت أمتعض منه وأكرهه. لقد قررت ألا يكون هناك من أحد آخر فى قلبى غيرك فاخترته.. خشيت أن أتزوج من قد ينافسك على قلبى أو اهتمامى.

وصمتت بعدها قبل أن يفاجئ بها وهى تطلق ضحكة غريبة لم يسمعها من قبل. ضحكة كانت مزيج من السخرية والمرارة واليأس. وأكملت بمرارة :

-لم أكن أدرى أنه سيصير هكذا. هل علمت كيف أصبح محمد الآن؟. إنه زعيم عصابة حقيقية. عصابة من تلك التى تراها فى الأفلام والمسلسلات. هل تصدق. محمد عصام الذى كنا نسخر منه أصبح مجرمًا.

كانت مرارتها تُذيب الأمل وتُعكر صفو صباحٍ مشرق. تمنى لو يضمها إليه، فجاهد نفسه كى لا يفعل. ثم وجد نفسه يسألها :

-علمت أنه يعتدى عليكِ بالضرب؟..

توقفت بغتة والتفتت إليه بجسدها كله، وبدت على شفتيها ابتسامة ساخرة و هتفت بتعجب :

-يضربنى ؟!. إنه يحسن معاملتى حين يكتفى بضربى. لقد صار الضرب رفاهية أمام ما يفعله معى الآن. أنت لا تعلم كيف يمكنك أن تعيش فى فزع فى كل لحظة من عمرك. أن تستيقظ فجأة وأنت لاتدرى أين ستسقط الضربة التالية على جسدك.. أن تنظر إلى كل سيجارة متوهجة وأنت لا تدرى هل سيكتفى بإطفائها فى المنفضة أم سيطفئها على جسدك.

استشاط غضبًا وتأجَّجَت كراهيته نحو رجل صار وحشًا ينهش فى حبيبته، تمنى لو يقدر على الانتقام. تمنى لو يفعل به ما يفعله ب "منى".

وعادت منى ثانية لحديثها وشكواها :

-أُحِسُّ أحيانًا أنه قد صار وحشًا بسببى. أشعر أنه أصبح هكذا لرفضى له وكراهيتى لضعفه الذى تزوجته من أجلها. أعتقد أنه يريد أن يخبرنى بما يفعله أنه قوى. أنه رجل آخر غير الذى أتخيله وأعرفه.

صمتا ثانية وعادا للتحرك. كانا معًا لكنه شعر بداخله كم تغيرت وكم صارت منى أخرى غير التى يعرفها. ذهبت البراءة التى طالما غلَّفَتْها وجاءت المرارة والحنق والإحباط. راحت الضحكة الساحرة لتأتى الضحكة المريرة الساخرة. ماتت منى الحالمة وولدت منى الحانقة. شعر بالضعف فسألها:

-وما الذى تنوين فعله الآن؟..

-هل تقترح على شىء ما ؟. إننى أنتظرك لتخبرنى ما الذى علىَّ أن أفعله. انتظرتك كل هذه الأعوام لتخرجنى من هذا الجحيم وتحررنى. انتظرتك لتنهى حيرتى وآلامى. فهل تفعل هذا يا عماد؟..

وشعر بالعجز أمامها لأول مرة فى حياته.. ها هى منى الضعيفة تأتيه طالبة حمايته وأحضانه. فهل عاد قادرًا أن يحقق آمالها؟. وقال بخفوت مقترحًا:

-يمكنك أن تطلبى الطلاق.

-انتظرت أن تخبرنى بحلٍ آخر يا عماد غير هذا. إننى لم أكُفُّ يومًا عن طلبه. لكنه دومًا يُرْفَض. إنه لن يطلقنى يا عماد. إننى نقطة ضعفه الوحيدة والكائن الوحيد الذى يُشْعِرَهُ بضعفه وقلة حيلته. لن يتركنى أبدًا إلا حين ينتهى مِنِّى تمامًا.

-لكنكِ لن تعيشى معه رغمًا عنك. لن يستطيع أن يجبرك أن تفعلى.

-يمكننى أن أهجره. أن أهرب بعيدًا عنه فى مكان لا يصل فيه إلى. لكن ماذا عن أهلى الذى يهددنى بهم. ماذا عن ابنتى التى يهددنى بحرمانى منها لو تمسكت بالطلاق. ماذا عن زوجى المفترض بعدها والذى أقسم لى أن يقتله لو فعلت. أنت لا تعلم ما صار إليه محمد الآن. لقد صار وحشًا ولا أحد صار قادرًا على ردعه.

تمَنَّى فى هذه اللحظة لو يراه لينتقم منه. ورمقها وشفتيه ترجُفَانِ تَوَتُّرًا وغضبًا وهتف بغضب:

-إذًا سأقتله. لو لم يكن هناك حل آخر فسوف أقتله..

كان صوته عاليًا صاخبًا جذب الأنظار إليه، فالتفت إليه بعض المارة بدهشة. لكنهما واصلا التحرك بصمت حتى وصلا إلى مفترق الطريق الرئيسى، هنا توقفت وظهرت على وجهها الضحكة المريرة ثانية، وقالت بإحباط:

-حاول أن تنسانى وعش حياتك يا عماد. دعنى لقدرى ولمصيرى، وأبدأ أنت حياةً جديدة. أنت لم تخرج من جريمة قتل لتقتل آخر. لن يسعدنى أبدًا أن أراك تسجن ثانية أوتُعْدَم من أجلى. أخرجنى منْ حياتك لو كنت مازلت بها وابحث عن أخرى.

-إننى أحبك، ولن أبتعد.

- وما جدوى الحب مع العجز.. وما جدوى الحب بغير أمل إلا العذاب والموت احتراقًا. حاول أن تنسانى لو كنت تحبنى حقًا. إن هذا أفضل لكلينا.



- صدقينى حتى لو وعدتك أن أبتعد فلن أفعل. لن أفقدك ثانية.متى يمكننى أن ألقاكِ ثانية يا منى. هناك ما أريد أن أحدثك به.

احتفظت بابتسامتها المريرة، وهزت رأسها بأسف، وقالت:

-لن يحدث هذا ثانية..لقد حدَّثتُكَ اليوم لأنى كنت بحاجة لهذا. علمت منذ الأمس أنك ستنتظرنى اليوم، وقد فعلت ما توقعته. لكن هذه هى المرة الأخيرة التى أفعل فيها شيئًا كهذا. لن نلتقى ثانية يا عماد. إن هذه رغبتى فعدنى أن تلبيها كما كنت تفعل دائمًا. عدنى أرجوك أن تفعل إن كنت تحبنى.

راحت ترمقه بثبات وحزم لم يعرفه فى عيونها. أراد أن يرفض ما طلبته منه فلم يقدر. أراد أن يطالبها بالهرب معه فعجز عن طلب هذا. أراد أن يختطفها ويهرب إلى مكانٍ ناءٍ فلم يعرف كيف يفعل. وجد نفسه يهز رأسه للأسفل ويتمتم بعجز:

-أعدك أن أفعل.

هنا عادت لوجهها الإبتسامة القديمة الحلوة التى طالما انتظرها وعشقها..وجدها تقول له بشوقٍ وحُبٍ:

-عماد.. اهتم بنفسك من أجلى

قالتها وابتعدت عنه على الفور دون أن تنتظر رده. وظل بمكانه يرمقها حتى اختفت من أمام بصره.

*****

(8)

لم تسامح ابتسام أبدًا عماد فى ما فعله مع أمهما، ولم تصدق ما ادعاه عن اللعنة التى أصابت أمه وانتهت بقتلها. كانت حينها مسافرة مع زوجها العجوز الذى يعمل طبيبًا لأمراض الكُلى فى الكويت. ظلَّا هناك حتى مرض زوجها وشعر أنه لم يعد قادرًا على احتمال تلك الغربة أكثر مما فعل فحزما أمتعتهما وودعا الكويت للأبد، ثم عادا للقاهرة ليستقرا فيها هذه المرة. افتتح زوجها مركز طبى صغير ليعمل به. وعادت لتعمل فى مدرستها القديمة ثانية.

قرر عماد أن يزورها وقد اشتاق إليها. ظن أنها لو رأته أو جلس معها وحكى لها ما جرى فقد تصدقه وتسامحه. كانت تسكن فى المهندسين فذهب إليها فى المساء. صعد إلى شقتها، وأمام باب شقتها توقف. فكر فى التراجع وهو لا يدرى كيف ستقابله وهل ستعطيه الفرصة كى يتحدث أم تطرده. غالب حيرته ودَقَّ جرس البيت. مضت دقيقة قبل أن يُفتح الباب. رأى أمامه طفلًا فى الخامسة من عمره.كان عماد الصغير الذى أسمته على اسمه. أراد أن يحتضنه لكن نظرات الطفل الحائرة صَدَّتْهُ فقال باسمًا:

-هل ماما بالداخل يا حبيبى؟.

أومأ عماد الصغير برأسه وقال بلهجة طفولية ثقيلة بعض الشىء:

-نعم. لكن من أنت؟. وماذا تريد؟

-أخبرها أن خالك عماد ينتظرها بالخارج.

رمقه الطفل بحيرة للحظة, قبل أن يغيب عن بصره داخل البيت.ومضت دقيقة مليئة بالترقب قبل أن تظهر أخته وهى تتحرك نحوه بخطوات حازمة أربكته. كانت ملامحها جامدة قاسية ولم يرى فى وجهها ما ينم عن

اللهفة أو الشوق له. أراد أن يقول لها أى شىء لكنها كانت مَنْ بادره بالكلام. وقالت له بجفاف وكأنها لا تعرفه :

-ما الذى أتى بك إلى هنا؟ وما الذى تريده منى؟..

كانت كلماتها قاسية لاذعة فأربكته. وقال بصوتٍ مُتوتر مُحَاولًا الحفاظ على ابتسامة تتأرجح على شفتيه وتغالبه فى الذبول:

-كيف حالك يا ابتسام ؟

-إننى بخير كما ترى.. لو كان هذا ما ترغب فى معرفته فلقد عرفته، هل من شىء آخر أقدمه من أجلك.

شعر أنها تطالبه بالذهاب. لكنه أصرَّ على مواصلة محاولته معها وقال متوددًا:

-ألن تدعونى للدخول بدلًا من الحديث على الباب هكذا. إننى مازلت أخوكِ وليس عيبا أن تدعينى للداخل.

-ولماذا تدخل؟!. أعتقد أنه لا شىء يجمعنا لنتحدث عنه. لو كان لديك ما ترغب فى قوله يمكنك أن تقوله من مكانك هذا. أخبرنى بما تريد قوله، ولكن بسرعة من فضلك، فهناك ما أقوم به الآن.

كانت كلماتها قاسية فلم يحتملها وهتف مُحْتَدًا:

-لا أدرى كيف تعاملیننی هكذا. لم أت إلى هنا لأطلب منكِ شيئًا. أتيت لأطمئن عليكِ وأراكِ وأرى ابنك. إننى خالُ الطفلِ وأخوك.

هنا بدأ صوتها يعلو وبدأ القناع الزائف الجامد التى اجتهدت لترسمه على وجهها فى الانهيار وهتفت به:

-كنت أخى. لكنك الآن قد انتهيت من حياتى. لا أدرى كيف تريد أن أعاملك، وقد قتلت أمَّنا. قتلتها وهى التى لم تُسِىءُ لأيِّنَا قَطّ. هل تنتظر منى أن أُقَبِّلَك وأن أحتضنك بعد ما فعلته، وهل تريد منى أن أهمس فى أذنك أننى سامحتك على ما فعلته. أنت واهم لو اعتقدت هذا. أتمنى أن تدرك أنه حين ماتت أمنا لم تمت بمفردها. لقد مات معها أخى الذى كنت أعرفه. هل تفهم معنى كلماتى. لم تعد أخى لأن أخى الذى أعرفه قد مات.

وتاهت الكلمات عن لسانه فصمت، وبدأت يده فى الإرتجاف ثانية ودموع حائرة تجاهد عينيه كى تندفع للخارج. بينما أشاحت ابتسام بعينها بعيدًا عنه للحظات قبل أن تحزم أمرها فتدفع ابنها للداخل، وتغلق الباب فى وجه أخيها دون كلام..

وأمام الباب المغلق كالصنم تجمد عماد مذهولًا مما فعلته أخته ومما قالته له. واهتز ضوء الدرج للحظة قبل أن يرى شبح أمه معترضًا طريقه وهى تقول:

-لن تتقبل أبدًا قاتل أمها. أنت أحمق لتظن غير ذلك.

ووجد نفسه يصرخ فى جنون:

_ اتركينى وشأنى.. ما الذى تبغيه منى. عليكِ اللعنة. عودى للجحيم.

وانهارت ابتسام خلف الباب الذى أغلقته وراحت تنتحب.. لم تصدق ما قالته لأخيها وما فعلته. وهالها ما وصل إليه أخوها من هُزَالٍ وضعفٍ وبؤس. تمنت لو استطاعت أن تحضنه وتطمئنه. لكن أمها المقتولة كانت دومًا بينهما. وصلها صراخه خلف الباب فكادت أن تثب للخارج لتحضنه وتطمئنه وتعتذر له. لكنها لم تفعل وكم تمنت بعدها لو فعلت.

ذهبت لحجرتها وظلت تبكى وتنتحب لساعات حتى أتى زوجها عبد المنعم. كان فى السادسة والستين من عمره. أخبرته بكل شىء. وبين أحضانه عادت لتبكى ثانية.

*****

(9)

مضت الأيام كئيبة، مملة. لم يرى "منى" ثانية، لكنه لم يكف لحظة عن التفكير بها. رأى زوجها يومًا يمر بسيارته الجيب الفخمة بجوار الكافيه الذى اعتاد أن يجلس عليه مع ممدوح كل ليلة. تبادلا سويًا حينها نظراتٍ حادة تعبق بالكراهية والتحدى. واعترف عماد فى قرارة نفسه أن شيئًا ما قد تبدل فى محمد عصام، وأن تلك النظرة الواهنة المائعة التى اعتاد أن يراها فى عينيه قد اختفت وحل محلها نظرة شرسة شريرة. شعر أن محمد عصام يهدده بنظراته، وأنه يرسل له تحذيرًا خفيًا أن يبتعد عن منى وإلا..

كذلك ازدادت المحاولات التى تبذلها سوسن حثيثًا لإغوائه. لم يفهم أى شيطان هذا الذى يحركها. إن كانت ترغب فى أن يحبها ويتزوجها بمحاولاتها الخرقاء هذه، فهى حمقاء بلا شك. وإن كانت ترغب فى علاقة عابرة تستمع خلالها به، فليس هو من يفعل هذا، وحتى لو شاء أن يفعل فلن تكون هى من يتورط معها فى أمرٍ كهذا..

عاد لبيته يومًا بعد منتصف الليل ليجدها بانتظاره. خرجت إليه فور أن صعد الدرج، ونادته من خلفه هامسة فانتفض فزِعًا. أراد أن يَسُبَّها و يزجرها، لكنه صُدِمَ بما رآه. كانت ترتدى (شورتًا) ضيِّقًا قصيرًا و(توب) ضيق قصير انحسر عن بطنها بإغراءٍ لاحد له. وأطلقت شعرها خلف رأسها ثائرًا بلا قيد فبدت كالحوريات..

كانت فاتنة بلا شك، ولم ينكر هذا يومًا ما..

راقبت بأنفاسٍ ملتهبة كيف ينظر إليها بعيون جائعة نهمة. لكنه عاد وتمالك نفسه بعد حين، وأولاها ظهره، ثم اتجه نحو شقته ليدخلها، مُتنَهِدًا بصمت وإثارة. لكنها لم تدعه وأسرعت فدخلت خلفه، وهمست من خلف أذنه بصوتٍ يعبق بالإثارة:

-والآن ما رأيك؟. وكيف ترانى اليوم؟.. أمازلت الطفلة الصغيرة التى كنت تلاعبها وتجلب لها الحلوى حين مضى..

اشتعلت فى جسده نيران لا تُطفأ. وانهارت سدود مقاومته مع همساتها الملتهبة، ولمسات أناملها الرقيقة على كتفه.. وأدرك ما سيحدث فى اللحظات التالية ففعل أخر ما يتوقعه هو أو هى. دفعها مرة واحدة خارج الشقة، ثم أغلق الباب خلفها فى حدة وعنف، ثم أسند ظهره للباب وراح يلهث مُحَاوِلًا جمع شتات نفسه ثانية..

ظنَّ أن هذا كافيًا لتنصرف عنه، لكنها لم تفعل. ومر يومًان قبل أن يجد من يطرق باب بيته بعد الظهيرة. فتح الباب ليجدها أمامه. كانت تحمل طعامًا فى صينيه زرقاء وهى تبتسم ببراءة كأن شيئًا لم يحدث. أراد أن يشكرها بجفاء، وأن يخبرها أنه لا حاجة به لهذا الطعام، لكنها دفعته فى صدره بكوعها ودلفت الشقة لتضع الطعام على الطاولة الخشبية، ثم دارت بوجهها نحوه.. حاول أن يبعد عينيه عنها، وعن ملابسها الضيقة التى توشك أن تتمزق لتكشف عن مفاتن لا تقاوم. حاول ألا ينظر إلى عينيها النجلاوين اللتين أحاطتهما بالكحل ببراعة فلم يقدر. تَصنَّعَت الخِصَام وقالت له مُقْطِبَةً:

-ما الذى فعلته أول أمس ؟..



شعر بالحيرة من غضبها المزعوم. لولا ما قام به لانتهك عذريتها بلا شك فى تلك الليلة. لو أدركَت قيمة ما فعله لشكرته. وقال بهدوء وهو يغالب بصره كى لا يرنو نحوها لينهل من حلاوتها:

-أنتِ مجنونة بالفعل. ألا تدركين هذا؟.

برقت عيناها وقد فهمت ما يقصده، وقالت بجذل :

-هل خِفتَ منى يومها؟.. لكننى لا أعُضّ.

ابتلع ريقه بصعوبة ورد عليها متوترًا:

-بل خِفتُ عليكِ. أنت لا تدركين ما الذى تدفعيننى لفعله وما الذى تنزلقين إليه.

-ولكنى لا أخاف منك. هل تعلم لماذا؟. لأننى أحبك.

كانت جرأتها تثيره وتهز أعماقه، وفى الوقت نفسه تحنقه وتغيظه باندفاعها. وهتف فيها وهو يقبض على ذراعها بقوة، غاضبًا مستنكرًا:

-تحبيننى أنا ؟. أنتِ لستِ حمقاء فحسب. بل غبية كذلك. إن عمرى فى ضعف عمرك تقريبًا.. إننى بلا عمل ولا مستقبل. فأى شىء تحبيه من أجله؟

سحبت ذراعها من يده، وقالت بهمس يفوح منه هرمونات أنوثتها العابثة الماجنة، وصوت رغبتها الصارخ:

-كل هذا لا يعنينى..كل ما أريده هو أنت.. أنت فقط.

قالتها وفاجأته بما فعلته بعدها.. مالت نحو شفتيه مرة واحدة، وطبعت قبلة سريعة عليها.. أبعد رأسه عنها بسرعة مذهولًا. لكنها احتفظت بابتسامتها العابثة الظافرة، وتحركت لتغادر شقته، وهى تقول :

-لن أيأس أبدًا منك. أعلم أننى سأصل إليك فى النهاية.

شعر أنه إن لم يفعل شيئًا ما ليوقف ما تفعله فسوف ينحدر معها فى ما ترغبه. فكر فى أن يخبر أمها. لكنه خشى أن يجرحها بكلماته، أو أن تسيء فهم مقصده. قرر أن يكون أكثر حذرًا معها.

لم تكن سوسن شكواه الوحيدة. كان هناك أيضًا الفراغ والملل.. واقترح عليه ممدوح أن يبحث عن عملٍ ما. إنه مهندس اتصالات، وقد عمل لعامين فى شركة اتصالات كبرى قبل الحادث المشئوم. لكن أى مكان يقبله وهو موصوم بقتل أمه والجنون كذلك. كرر المحاولة مرتين كان نصيبه الرفض فيهما فقرر أن يكف عن المحاولة. لن يعمل فى أى مكان بغير معجزة فى زمن فارقته المعجزات.

لكن الشىء الذى أفزعه وأَقَضَّ مِضْجَعَهُ هو ما صار يحدث له فى البيت. صار يرى أمه طوال الوقت. بل وعاد يرى أشباحًا وظِلَالًا مُخيفة فى كل حين، ولم تعد العقاقير تُجْدِى كثيرًا فى إنهائها أو حتى تخفيف حدتها كالسابق، ولم يعد إغلاق عينيه والعد من واحد لعشر، بكافٍ كى تختفى.

اعتاد كذلك على الصرخات المفزعة التى تنبعث كل ليلة من حجرة أمه المغلقة، وصار مألوفًا أن يرى ذلك الضوء الأحمر منبعثًا من أسفل بابها فى الظلام..

شعر أن ثباته النفسى يهتز بشدة.. وشعر أن كل تلك العقاقير التى أمدته المستشفى بها صارت بلا جدوى.. ومرة أخرى راح يحاول جاهدًا أن يصل

بعقله إلى إجابة لتساؤله الدائم.. هل ما يجرى له الآن أوهام يختلقها عقله.. أم هى أحداث غامضة تدور حوله، ولا شأن لعقله بها..

شعر أنه مُوشك على الجنون لو لم يتوقف كل هذا، وفكر فى أن يسأل أحد ما عن المساعدة..

وقفز لعقله شخص ما من أعماق ذكرياته القديمة. تذكر الدكتور محمد شاهين. ذلك العجوز المتأنق اللعين الذى يعيش فى فيلته المبهرة بالمقطم. تذكَّر ما فعله معه من قبل فطفا غضبه على سطح عقله وعاودته رغبته فى الإنتقام منه. كانت شهادته بالمحكمة هى ما أودعه مستشفى الأمراض العقلية والنفسية بالعباسية. لو أخبر المحكمة بالحقيقة، لربما تغير الوضع، وربما لم يكن الحبس مصيره. لكنه لم يفعل.

*****

(10)

فى تلك اللحظة كان الحنق فى نفس الدكتور عبدالمنعم والقهر لا حد لهما.

وتمنى لو يموت الآن ليستريح من النيران التى تكوى روحه نفسها. فلا وصف مما تحويه الكتب والمعاجم والبلاغة بقادر على وصف ما يشعر به الآن.

بدا الطريق الدائرى المظلم أمامه ممتدًا بلانهاية، مُنذِرًا بكارثة مُقبِلَة بلا ريب، فلم يهتم. كان يبكى وراحت دموعه الثخينة تنهمر على وجنتيه بلا توقف..

راح سؤاله يتردد فى عقله وعلى لسانه بلا أمل فى إجابة تنجيه من حيرته.. أننجب أبنائنا ليقهرونا، وهل نثق فهم ليخونونا؟..

وكان هذا ما فعله به أدهم ابنه. ابنه البكر من زوجته الأولى التى تُوُفِّيَت منذ أكثر من عقدين من الزمن تاركة ابنًا وحيدًا. شعر الدكتور عبد المنعم أنه مازال بحاجة للمرأة، فتزوج ابتسام زوجته الحالية لينجب منها ابنه الآخر عماد..

كان يعلم أن أدهم لا يحب زوجته. لكنه تجاهل الأمر. ظن أن أدهم يكرهها لأنه يعتقد أنها قد جاءت لتحل محل أمه الراحلة. ورأى الدكتور عبد المنعم أن مشاعره تلك غير ناضجة ويومًا ما سوف يدرك لماذا احتاج أبيه للمرأة، ولماذا كان عليه أن يتزوج ثانية.

لكن الولد تخرج من الكلية دون أن تتبدل مشاعره ودون أن يفارق جفاءه نحو زوجة أبيه. هنا فكر الدكتور عبد المنعم فى استرضاءه بشىء ما، ففعل أكبر حماقة فى حياته كلها. فكتب من أجله توكيلًا عامًا يُمَكِّنَهُ من إدارة كافة ممتلكاته عسى أن يدرك أدهم أن أباه لن يظلمه، وأنه لن يعطى للزوجة الشابة من أمواله أكثر من حقها..

توقع بعدها أن يطمئن قلبه فيثوب إلى عقله.، لكن ابنه لم يفعل. بل خانه. واستولى ابنه على كل ممتلكاته بواسطة هذا التوكيل. سلبه سيارته والشقة التى يسكنها والعقارات الأخرى والحسابات البنكية، بل وحتى المركز الطبى الذى يعمل به. كانت صدمة لم يتفهما الدكتور عبد المنعم ولا عرف دوافعها. هل يحجر عليه ابنه فى أمواله وممتلكاته؟. أم تراه يرغب فى الإستيلاء عليها بمفرده؟. كان يريد الإجابات وكان عليه أن يحصل عليها من ابنه فذهب إليه. وقابله الأخير ببرود كاد يقتله. وفوجيء به يقول له بتحدٍ:

-وماذا فى أن أنقل كل ما تملك لنفسى. إننى ابنك وأموالك فى النهاية ستئول لى. كل ما حدث أننى عَجَّلْتُ بالأمر قليلًا. وليس فى هذا شىء.

لم يتحمل قسوة كلماته فصرخ فى وجهه ثائرًا:

-هذا حين أموت وليس وأنا على قيد الحياة. وحتى لو مِتُّ فأموالى ليست من حقك وحدك. هناك أخوك وزوجة أبيك.

-فى الواقع هذا هو ما دفعنى لنقل ممتلكاتك باسمى. هناك طفل تعتقد أنه ابنك, وأنا لا أعترف به ولا أصدق أنه أخى. هل نظرت إليه يا أبى. هل رأيت فى وجهه شبه ما يجمعك به أو حتى بى. إنه لايشبه غير أمه فما أدرانى أنك أباه؟.

كان هذا أكبر من أن يتحمله وارتفعت يده لتهوى على خد الإبن العاق فى صفعة مدوية وهو يصرخ فى جنون:

-إنه ابنى شئت أم أبيت, وله فى وفى أموالى مثل ما لك تمامًا. وإيَّاك أن تكررها ثانية. إنه ابنى أيها الغبى. ابنى مثلما أنك ابنى.

لكن أدهم لم يرتدع. وتحسس مكان الصفعة بأنامله للحظة ومازالت نظرة التحدى فى عينيه, قبل أن يقول ببرود:

-ما دمت تؤمن أنه ابنك ولا تشك, فهذا شأنك. لكن أموالك لا. إن أموالك ستكون لى وحدى. وحدى فقط ولن يشاركنى فيها أحد أخر.

شعر بالقبضة الخفية التى تأتى من بعيد لتعتصر صدره وتخنقه. كانت هناك أزمة قلبية مُقبِلَة, ويعود ليتحدث بصوتٍ مخنوق ولسان ثقيل:

-بل له نصيب فى كل شىء أملكه. إن اموالى ملكى وحدى وسأفعل بها ما أشاء. أما أنت فسوف تعيدها لى ثانية لأسامحك على ما فعلته. سوف تفعل هذا يا أدهم. أليس كذلك؟

-لن أعيد إليك أى شىء.. لن أعيدها لتحرمنى منها وتمنحهما إياها. وأما بشأن معيشتك ومتطلباتك فلا تقلق, سوف أعطيك كل شهر ما يكفيك

حتى وفاتك. وأعدك أن تحيا حياة كريمة كما تعيش الآن, لكننى لن أعيد الأموال ثانية لك.

اجتاحه دُوَارٌ عنيف فأظلمت الدنيا فى عينيه, وبالكاد نجح فى تجاوز سيارة تسير أمامه كاد أن يصطدم بها. اعتصر عجلة القيادة بيديه وهو لا يسمع السِّبابَ البذيء الذى أطلقه قائد السيارة له. وازدادت دموعه انهمارًا فَهَزَّ رأسه بقوة كأنما ينفض الأفكار عن عقله, مُحَاوِلًا ألا يتذكر ما حدث بعدها. لا يرغب أن يتذكر كيف توسل لابنه كين يعود لعقله, وكيف كاد أن يُقَبِّلُ يديه دون أن يلين أدهم. لا يريد أن يتذكر كيف نهشته الذبحة الصدرية حينها وضاقت أنفاسه وصدره يتسول الهواء فلا يصله, فاتهمه ابنه حينها بالتمثيل وادعاء المرض..

هنا لم يكن أبدًا ممكنًا أن يحتمل أكثر من ذلك, فخرج من عنده لا يلوى على شىء.. كان يسير بسيارته على الطريق الدائرى فى جنون, وتمنى سائرًا لو يظل هكذا للأبد.

اتجه إلى طريق السويس الصحراوى. اختفت أعمدة الإضاءة, وخلا الطريق من السيارات تقريبًا, فبدا ساكنًا هادئًا.. لكنه قلبه لم يهدأ..

هنا رواده خاطر مُبْهَم ومُخِيف. شعر أنه ليس وحده بالسيارة وأن هناك من يجلس خلفه. وحين نظر إلى المرآة التى تتوسط زجاج السيارة أمامه رآها تجلس فى منتصف المقعد الخلف للسيارة وهى ترمقه بنظرة وحشية أرعبته.

كانت حماته. بل كان شبحها بالطبع. وهنا فعل أكثر الأشياء حماقة. دار برأسه للخلف ليتأكد مما يراه فى المرآة وفى الوقت نفسه ضغطت قدمه على مكابح السيارة..



كان المقعد الخلفى فارغًا. لكن السيارة لم تعد سيارة فى تلك اللحظة. فقد ارتفعت فجأة فى الفضاء كطائرة سوداء عملاقه. هنا رأى زوجته ابتسام ممسكة بيد عماد الذى راح يُلَوِّحُ له وعلى شفتيه ابتسامته الطفولية الحلوة. رأى أدهم يرمقه بِتَشَفٍ ومازال مُحتفظًا بنظراته القاسية الباردة. ورأى نوال، زوجته الأولى تأتى من خلف الحجب والضباب تشير إليه أن يتبعها فابتسم لها..

هبطت السيارت وانقلبت على الطريق بضع مرات.. ارتفع الغبار إلى عنان السماء فحجب عن القمر حقه فى متابعة ما يجرى..وفور أن همدت السيارة وكَفَّت عن حركتها العنيفة اشتعلت فيها النيران. ومضت لحظات قبل أن يأتى الإنفجار العنيف الذى مَزَّقَ سكون الليل. وانتشت زهرة النار المقدسة وأينعت وتفتحت..

ومضى وقت طويل قبل أن تأتى النجدة إليها،

لكن بعد فوات الأوان بالطبع.

*****

(11)

انكمشت ابتسام حول ابنها الراقد بجوارها على الفراش فى وضع جنينى مذعور تلتمس منه الحماية والسكينة والدعم فى عالم قاسٍ لا يرحم. شعرت أنها طفلة حائرة مذعورة. طفلة ألقوها فى الغابة المظلمة وأخبروها أن عليها أن تواجه الشيطان والساحرات والوحوش بمفردها. كانت بحاجة لمن يسندها فتذكرت عماد. أخوها الوحيد. ازداد نحيبها وهى لا تدرى لماذا يرفض قلبها أن يلجأ له. هل صارت أمها الراحلة هى السد العالى الذى يحول بينهما. لكن إن لم تلجأ إليه فلمن تلجأ، ولم يعد هناك من يمكنها أن تطمئن إليه فى هذا العالم غيره.

مَرَّ أسبوع منذ وفاة زوجها مُحْتَرِقًا بسيارته. ظلت طوال الوقت تتساءل بحيرة، إلى أين كان يتجه بالسيارة مُتَّخِذًا طريق السويس؟. ولماذا انقلبت به السيارة وقد أثبت تقرير المعمل الجنائى أن السيارة لم تصطدم بشىء.

لاحظت الجفاء والخشونة التى عاملها بها أدهم فلم تتعجب. لقد تعودت على هذا منه. لكن العجيب أنها لم ترى فى عينيه دمعة واحدة على أبيه الراحل. هنا شعرت بقسوته وجحوده. من أين استقى ذلك الشاب كل تلك القسوة على أب عَهِدَتْهُ كريمًا وعطوفًا معه.

لكن المفاجأة الحقيقية حين علمت كيف استولى على الشقة واستأجر بعض البلطجية الذين طردوها وطفلها فى الشارع.

هذه المرة لم يعد أمامها إلا أن تستقر فى بيت أبيها مع شقيقها الذى رحب بها بِوِدٍ حقيقى، وإن ظل الجدار الضخم الذى يفصل بينهما قائمًا. حاول عماد أن يقص عليها ما حدث مع أمه، لكنها لم ترغب أبدًا فى سماع شىء مما حدث، كى لا تجتر آلامها ثانية ورجته ألا يفعل.

عادت لحجرتها القديمة التى عاشت بها قبل الزواج وامتنعت عن الدخول إلى حجرة أمها. شعرت بأن الذكريات التى تسكن الحجرة قادرة على هزيمتها وتحطيم ما بقى من سلامها النفسى إن وطئتها. لتتركها على حالها مغلقة على ذكرياتها وأحزانها، ولتنتبه إلى ابنها الذى هو بحاجة لها حقًا..

مضت الأيام رتيبة باردة بينها وبين أخيها. تحاشته خلالها وإن لم تستطع أن تمنع ابنها عماد عنه، وهى ترى كيف تعلق به للغاية. وراحت تتساءل بحيرة ما الذى يعجزها هى الأخرى عن حب أخيها وطالما فعلت من قبل..

مضت الحياة لحين على رتابتها حتى استيقظت ذات ليلة على صراخ ابنها وقد صحا من نومه فَزِعًا وراح يصرخ:

-المرأة العجوز يا أمى. إنها تختفى فى الظلام وتشير إليك. إنها تُخِيفُنى.

ظنَّت أنه كابوس. لكن أخيها الذى هرع إلى الحجرة فور سماعه صرخات الطفل امتقع وجهه بشدة وهو ينظر إلى الحجرة المظلمة نظرات غريبة قبل أن يسد أذنيه بكفيه ويغمض عينيه كأنما يسمع أصواتًا خفية لا تسمعها، وراح يصرخ هو الآخر.

وبعد بضع أيام أخرى فوجئت بابنها يقف أمام حجرة أمها المغلقة. العجيب أنه كان يضع أذنه على باب الحجرة المغلقة مُستَرِقًا السمع لما يحدث داخلها. شعرت بالحيرة مما يفعله وسألته وهى تنحنى نحوه لتعلم ما الذى دفعه لفعل هذا، فأبعد رأسه عن الباب ونظر إليها بعيونٍ لامعة وقال بحماس وهو يشير للحجرة المغلقة:

-هناك من يتحدث بالداخل..لقد سمعتهم من قبل، والآن أسمعهم ثانية.

رمقت ابنها بتوتر وخوف لتفاجأ بأخيها يندفع من حجرته نحو ابنها وينحنى نحوه قائلًا بعيونٍ زائغة أرعبتها :

-هل قلت أنك تسمع أصواتًا بداخل الحجرة يا عماد..أخبر خالك ولا تُخفى عنه شيئًا.. ما الذى سمعته؟

أجاب الطفل خاله على الفور بحماسِهِ الذى لم يُطفَأ:

-إنهم يتحدثون ويصرخون أحيانًا، لكنى لا أفهم حديثهم. لقد اكتشفت أمرهم منذ أيام. من هؤلاء يا خالى؟. ولماذا لا يخرجون من الحجرة؟!.

راحت عينا ابتسام تتنقل بين أخيها المذعور وابنها المُتَحَمِّس، بتوتر لاحدود له وهى لا تفهم ماذا يحدث. ورأت كيف زاغت عينا أخيها وكيف ارتجف وهو يُلصِق أذنيه بالباب هو الآخر كأنما يرغب فى سماع ما سمعه الطفل..

لم تفهم ما يحدث لكنها شعرت بخوف غريب يعتريها على ابنها حين أبعد عماد أذنه عن باب الحجرة برعب ثم أمسك برأس الصغير برفق وقال له:

-انظر يا عماد إلى..أنت تحبنى وتحب أن تُطِيعَنِى، أليس كذلك؟..

هزَّ الطفل رأسه موافِقًا، فأكمل:

-إذًا عدنى ألا تقترب من هذه الحجرة ثانية..عد خالك ألا تفعلها مرة أخرى.

رمقه الطفل بِحِيْرَةٍ. وكان هذا أكبر من أن تحتمله، فاندفعت نحو ابنها وجذبته من بين أصابع خاله وهى تصرخ فى وجهه محذرة:

-ما الذى يحدث ها هنا وما شأنه بابنى. أخبرنى يا عماد؟. ما الذى يدور فى هذه الحجرة

جاوبها صمته.ونظراته التائهة، قبل أن يُوَلِّيها ظهره ويسير نحو حجرته دون أن يجيبها. وشعرت بالذعر، فصرخت فيه وهى تحتضن الطفل بقوة:

-ابتعد يا عماد عن ابنى ولا شأن لك به..لو أصابه مكروه ما فسوف أقتلك بيدى هذه المرة. لن أسامحك أبدًا لو فقدته كما فقدت أمى. سوف أقتلك حينها. أقسم أننى سوف أفعل.

ولم يطمئن قلبها بعدها أبدًا. وقد اجتاحها القلق على طفلها، فراحت تراقبه بحذر طوال الوقت. لكن الطفل بدا وكأنما فقد اهتمامه بالحجرة تمامًا بعدها فلم يقترب منها ثانية كما طلب منه خاله.

وبعد شهرٍ كامل حَلَّت الكارثة. كان الوقت ظُهرًا، وقد انهمكت ابتسام فى إعداد الطعام بالمطبخ. حين لاحظت أن صوت ابنها قد اختفى فجأة. نادته

فلم يجبها، فخرجت للصالة ونادته ثانية، وحين نظرت إلى حجرة أمها شعرت بالرعب.

كانت الحجرة مفتوحة باتساعها، وقد انبعث منها ضوءٌ أحمر مخيف. نبض قلبها بعنف. وظلت بمكانها مُتَجَمِّدَة للحظات قبل أن تتذكر طفلها فجأة. هنا طردت مخاوفها من عقلها، واندفعت بلا تردد نحو الحجرة..

وحين رأت ابنها لم تتمالك نفسها، كان ما تراه حينها هو الهول نفسه.

ووجدت نفسها تصرخ بفزع كما لم تفعل من قبل.

الفصل الثاني

المصحة

(قبل سبعة أعوام)

(1)

ألَمّ عينيه وميض عشرات الكاميرات المصوبة نحوه، فأغلق عينيه فى ضيق. وارتفع الصخب والضوضاء فى قاعة المحكمة فازداد توتره. وقف داخل القفص الحديدى مُترنحا ذاهلا عما يدور حوله، وانهمرت على أذنيه الكثير من الأسئلة التى يلقيها عشرات الصحفيين الملتفين حول قفصه. كانت أسئلتهم متكررة ومتشابهة يجمعها الإصرار والإلحاح والسماجة، فلاذ بصمته ولم يرد. كلهم يبحث عن خبر مثير أو كلمة منه تزين صفحات جرائدهم الأولى.

تمنى لو يتركوه لحاله ويكفوا عن إزعاجه. ليتهم يتركونه لآلامه وحيرته وذهوله.

أغمض عينيه ثانية بشرود كى لا يرى أى شىء مما يدور حوله. وعاد ليتذكر أمه التى رآها تموت أمام ناظريه.

وتذكر ما كان حين نجح الجيران فى كسر الباب المغلق ودخلوا ليشاهدوا الجريمة البشعة. الأم راقدة على وجهها بين ذراعيه وهو يقبض على السكين المغروز فى عنقها من الخلف ليخرجه، وجسدها المذبوح ينتفض ويخور، وقد تفجرت نافورة من الدماء الساخن من عنقها. لم يكن هناك من أحد غيره معهما. وكان السكين فى يده. هذا ما رآه الجميع، فأى دليل آخر ضده أقوى من هذا ليعتقدوا أنه من قتلها.

لكنه لم يقتلها..لم يكن ليفعل هذا أبدًا هذا حتى لو أراد.. المشكلة أنه لا أحد يريد تصديقه، ما رآه جيرانه أقوى من حجته مهما قال..

انتبه إلى صوت الحاجب البدين ذو الكرش الضخم، والذى صرخ فى الجميع فجأة "محكمة.."، ثم دخل القضاة، قبل أن يأذن القاضى لوكيل النيابة أن يتلو مرافعته وعريضة الإتهام.

نهض وكيل النيابة الشاب وسَوَّى هندامه قبل أن يبدأ فى مرافعته المتوقعة والتى سينهيها كما جرت العادة بطلب أقصى عقوبة على المتهم، وهى الإعدام حتمًا. وجال فى خاطر عماد سؤال عجيب. لماذا لم يرى أو يسمع يومًا وكيل نيابة يطلب البراءة لِمُتَّهم ما؟.

لم يهتم بما يقوله وعيناه تسبح على وجوه الحضور. انتبه إلى" منى". كانت تجلس بالصف الأخير وعيناها مُعَلَّقَةٌ به. ذبل جمالها، ونَحُلَ عودها، وتراكمت حول عينيها الهالات السوداء الكثيفة. لابد أنها تبكى كثيرًا ولا تنام. وهل ينتظر منها ألا تفعل؟..

كانت تنتحب، وهى ذاهلة عما حولها. قبل أن تنظر نحوه. تلاقت العينان فى تلك اللحظة ودار بينهما الحوار الأبدى الصامت. تمنت لو تَثِبُ نحوه وتختطفه وتبتعد به عن العالم كله، وتمنى لو يحدثها للمرة الأخيرة ويطالبها أن تهتم بمستقبلها وأن تنساه. شعر بأنه لا يحتمل بكاءها، فأشاح بوجهه بعيدًا عنها. عاد لينتبه إلى ما يصرخ به وكيل النيابة الشاب، والذى لم يكف عن الإشارة إليه بإصبعه من حين لآخر:

-وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان..وهل جزاء المعاناة التى تكبدتها الأم أعوامًا طِوالًا من أجل تربية ابنها وتهذيبه، العقوق والقسوة.. إن المتهم الماثل أمامكم قد تجرد من كل معانى الرحمة والمحبة والإنسانية حين قام بما فعله.. لقد هدم المعبد بأكمله حين قتل أمه.. خالف الشرائع كلها وخالف الفطرة السوية حين فعل جريمته.. ما الذى ننتظره منه بعدما قام به نحو أمه التى اعترف بلسانه أنها لم تسىء إليه.. أننتظر منه مواطنًا

صالحًا سويًا، أم ننتظر منه أبًا فاضلًا.. أم تراه يكون بعد ذلك عابدًا ناسكًا.. إنه قاتل وليس قاتلًا عاديًا من الممكن تَفَهُّم دوافعه..كلا إنه قاتل لا يمكن التسامح معه فى ما فعله وقد قتل أقرب إنسان إليه بدمٍ باردٍ..قتل أمه!

ألا ننتظر أن يفعلها ثانية مع آخرين لو أطلقنا سراحه؟.. حتمًا قد يفعل وقد برهن بما قام به أنه لا قلب له.

وأسوأ ما فى الأمر هى تلك التمثيلية السخيفة التى يرددها على مسامعنا، بأن أمه كانت ممسوسة وأنها هى من هاجمته، وأنه لم يقتلها وأن كائنًا شيطانيًا هو من فعل.. هُرَاء وخُزعبلات يَصُبُّهَا على آذاننا بلا انقطاع، منتظرًا منا أن نصدقه أو نتهمه بالجنون كى يفلت بجريمته من العقاب..

شعر عماد مع كلمات وكيل النيابة وخطبته الحماسية الملتهبة أن القاضى سيكتفى بتلك المرافعة وسيحكم عليه بالإعدام، دون أن يعطى فرصة لذلك المحامى الذى جلبه له ممدوح أن يدافع عنه. لماذا لا يصدقه أحد منهم..ولماذا لا يلتفتون لشهادة ممدوح والأستاذ محروس والحاج رضا الذين أيدوا ما قاله عن أمه. لماذا يظنونه وحشًا قتل أمه بلا سبب ويرغب فى الهروب من العقاب..

دارت عيناه بين الحاضرين ثانية فرأى الدكتور محمد شاهين يجلس فى الصف الثالث. مازال كما هو، الطبيب النفسى العجوز بوسامته الأرستقراطية وأناقته الفائقة. تلاقت العينان وقد التفت نحوه الدكتور محمد وكأنما شعر بنظراته، فظل الأخير واجمًا، وهو يهز رأسه هزاتٍ خفيفة، كأنما يطمئنه. شعر عماد ببعض الراحة لمجيئه. كان قد طلب شهادة الرجل، وها هو قد جاء. لقد كان شاهدًا على ما جرى بينه وبين أمه. ولابد أن شهادته ذات قيمة وقد تُدَعِّمُ أقواله وموقفه كثيرًا.

انتهى وكيل النيابة من مرافعته فساد الصمت للحظات وتبادلت العيون النظرات، قبل أن ينهض محاميه ليترافع عنه. بدا المحامى الضخم مرتبكًا، وبدت مرافعته غير متماسكة أو مترابطة، فشعر عماد بالحنق. من هذا الأحمق الذى جلبه ممدوح ليترافع عنه؟. إنه لم يقنعه هو نفسه ببراءته بما يقدمه من دلائل وبراهين، فكيف يمكنه أن يقنع القضاة. فكر فى أن يصرخ فى الجميع أن يبعدوا هذا الأحمق، وأن يأتوا له بمحامٍ غيره. لكنه اكتفى بكتم غيظه فى قلبه وهو يتمنى أن يصمت وينتهى من مرافعته سريعًا. بالفعل انتهى المحامى فساد الوجوم على وجوه الجميع، واهتزت رأس ممدوح بحسرة، وازدادت دموع منى هطولًا. وقد شعرت بالكارثة التى سببها المحامى ضعيف الحُجَّة، ورأى فى عينى الدكتور محمد عِتَابًا صامتًا، وهو يَهُزُّ رأسه بأسف، كأنما يلومه على اختياره لهذا المحامى المعتوه..

أتى وقت سماع الشهود ونادى الحاجب على الدكتور محمد شاهين، فنهض بهدوء.. وألقى القَسَم بعد أن عَرَّف نفسه للمحكمة.. فسأله القاضى:

-هل كنت تعرف المتهم من قبل؟

-نعم لقد تعرفته فى الشهور الأخيرة التى سبقت مقتل والدته..

-لقد ذكر المتهم أنه قد طلب مساعدتك فى علاج أمه من مَسٍ شيطانى أصابها، وأنك كنت شاهدًا على أفعالٍ عجيبة تحدث لها.. هل هذا صحيح؟.

لم يُجِبُ الدكتور محمد على الفور وهو يغالب انفعالًا خفيًا فى أعماقه. والتفت إلى عماد الذى حبس أنفاسه بترقب وهو يرقبه بأمل، قبل أن يجيب القاضى بهدوء:



-أعتقد أن الصواب هو عكس ما ذكره. لقد كنت أعالج عماد نفسه وليس أمه، بل وكانت أمه هى من جلبته لعيادتى. وكان تشخيصى أنه يعانى من انفصام الشخصية ثنائى القطبية، والتى من أعراضه تلك الأوهام التى يتحدث بها.

خيَّمَ الصمت على المحكمة والجميع فى ذهول من تلك المفاجأة التى ألقاها الدكتور على رؤوس الجميع، وكان عماد هو أكثرهم دهشة. أى هُراءٍ هذا الذى يسمعه؟! عقد الذهول لسانه فحبس أنفاسه وقد شعر بدوار عنيف يغشاه

وأكمل الدكتور محمد شهادته:

-إن نفيه الآن أنه مريض وأننى طبيبه عَرَض من الأعراض التى يعانيها..إنه لا يصدق أنه مريض، ولا يعى أن عقله يتوهم ويختلق كل ما رواه لكم. إنه يؤمن أنه قد مر بكل تلك الأحداث المخيفة التى يدعيها. للأسف كانت حالته فى تدهور مستمر، وكان بحاجة حقيقية لدخول مصحة نفسية، لكن والدته –رحمها الله- هى من رفضت وأصرت على علاجه بالمنزل.

عاد الصخب ثانية والحيرة ترتسم على الوجوه وخاصة منى وممدوح اللذين كانا فى دهشة عارمة لما يسمعانه الآن..كلاهما يعلم أن عماد لم يكن يعانى من مرضٍ ما، فلماذا يَدَّعِى الدكتور محمد هذا؟..

وعاد القاضى ليسأل الدكتور محمد:

-وماذا عن أمه؟.. ألم تكن ممسوسة كما ادعى المتهم؟..

-لا أستطيع فى الواقع أن أُجزِمَ بشىء ما. أعترف أننى قد شهدت بعينى فى منزل عماد أشياء غامضة عجيبة، لكن هذا لا ينفى أن عماد كان مريضًا نفسيًا ولا يُعتَدُّ كثيرًا بما يَدَّعِيه.

-ومتى بدأت تقريبًا فى علاجه؟

-منذ أربعة أشهر تقريبًا..

-ولم يستجب للعلاج أو تتحسن حالته حينها.

-ليس بصورة مُرضِيَة..لقد كان تقدمه بطيئًا

قالها وهو يهز برأسه آسفًا قبل أن يَمُدَّ يده اليمنى القابضة على بعض الأوراق نحو القاضى مُكمِلًا:

-هذه نسخة أحتفظ بها من الوصفات الطبية التى وصفتها له، وتقرير شامل بحالته وخطوات العلاج الذى اتخذتها معه.. وكما ترون فزيارته الأولى لى كانت منذ أربعة أشهر ثم تكررت زيارته لى بعدها بضع مرات.

تطلع القاضى بسرعة للأوراق التى أمامه، قبل أن يقول:

-وهل ترى أنه حين قتل أمه كان واعيًا منتبهًا لما يقوم به، أم تراه غير مسئول عن أفعاله.

-أعتقد ليس مسئولًا أبدًا عن أفعاله.. ففى مثل تلك الحالات تأتى لحظة ما من الجنون المؤقت يكون المريض فيها خارج وعيه وإدراكه تمامًا، ولابد أنه قد تعرض حينها لضغطٍ نفسى هائل، أو لنقل مؤثرات نفسية هائلة لم يحتملها. ربما تخيلها ممسوسة من قوى خارقة شيطانية، وربما ظن أنها تهاجمه وتحاول إيذاءه أو قتله.. هنا قد يصل به الأمر إلى مرحلة الجنون المؤقت، وربما أقدم على قتلها دون أن يشعر. المشكلة هنا هو أنه فى الغالب يفقد ذاكرته بصورة جزئية، وينسى ما فعله فى ذلك الوقت تمامًا.

رمقه القاضى بتعجب، وعَدَّلَ من نظارته قبل أن يسأله:



-إذًا فأنت تَزعُم يا دكتور أن المتهم لم يكن مسئولًا عن تصرفاته حين قتل والدته..أليس كذلك؟

-هذا هو رأيى الطبى وما أعتقده..

صمت القاضى فعادت الهمهمة ثانية, وصاح عماد من قفصه بثورة وهو يضرب بكفيه جدران القفص:

-أنت كاذب..إننى لست مجنونًا ولم أقتلها..إننى لم أفعل..إننى لم أقتلها..إنهم من قتلوها وليس أنا.

وجم الدكتور محمد وهَزَّ رأسه بآسف وهو يتحاشى النظر إليه وسمح له القاضى بالعودة إلى مقعده ثانية وقد انتهى من شهادته. توالى الشهود بعدها من الجيران واتفقوا جميعًا على ما حدث. لقد اقتحموا باب البيت حين سمعوا صرخات كثيرة تتردد داخله..كانت أم عماد حينها مُلقاةً على وجهها على الأرض تنتفض وتُصدر من فمها صوتًا كالخُوار, وعماد بجوارها يصرخ وفى يده سكين مغروسة فى عنق الأم من الخلف. وقالت أم محسن أن عماد كان يصرخ حينها أنهم قتلوها. لكنها ذكرت أنها شاهدت بعينيها أشياء غريبة تحدث لأم عماد. وأنها تعتقد أنها ربما كانت ممسوسة. لكن ابتسامة القاضى الساخرة وشت بعدم تصديقه لما تزعمه. كما ذكر أحد الشهود وهو شاب صغير يعمل فى محل دواجن أسفل البيت أنه فَتَّشَ البيت حينها بحثًا عن أى أحد ربما كان مختبئًا لكن البيت كان خاليًا وكل نوافذه كانت مُغلقة..

فى النهاية حكم القاضى وقد وجد أن شهادة الدكتور محمد هى الأكثر منطقية وقبولًا, بإيداعِ عماد مستشفى الأمراض العقلية تحت الملاحظة لشهرين لتقييم حالته النفسية قبل إصدار حكم نهائى عليه.

*****

(2)

توقفت سيارة الترحيلات وبداخلها عماد داخل مستشفى الأمراض العقليه بالعباسية. وبعد دقائق فتح الباب الحديدى الخلفى وصعد إليه رجل شرطة, يسأله أن يمد إليه يده ليحيطها بالقيود ففعل. رأى الضابط الشاب المرافق له والمستتر خلف نظارته السوداء وهو يرمقه بلامبالاة فتجاهله. وخرج من السياره ليسير فى طرقات المصحة. وراح يطالع الكثير من الوجوه الكالحة السقيمة لمرضى نخر أبدانهم ونفوسهم المرض كالسوس. خفض رأسه كى لايرى أحدًا وتمنى لو كان قادرًا على التخفى كى لايراه أحد. عبر بابًا زجاجيًا ثم توقف الجميع وقد بلغوا حجرة واسعة. هناك رأى طبيبة فى منتصف عمرها ترتدى معطفًا أبيضًا قصيرًا, أسفله قميص لبنى وبنطلون قماشى, كانت ترمقه بهدوء, وابتسامة خفيفة تلوح على وجهها حين تلاقت عيناهما فخفض عينيه. رفع عينيه ثانية فرأى الممرض الضخم الواقف خلفها والذى كان يرمقه بنظرات لزجة باردة.

لحظات وانصرف الضابط الشاب ومرافيقه ولم يبقى معه غير جندى هزيل, والممرض الضخم والطبيبه الهادئة المبتسمه. انتبه لصوتها للمرة الأولى, وهى تُشِيرُ اليه أن يجلس على مقعد جلدى أمام مكتبها. جلس ولاحظ الممرض الذى تحرك ليجلس أمامه, والجندى الصغير الذى ظل واقفًا يراقب الجميع بتحفز.

وقالت له الطبيبه وابتسامتها العذبه لا تُفارق شفتيها الرفيعتين:

-اسمى هو الدكتورة سحر. أنا هنا أحد الأطباء المسئولين عنك خلال تواجدك بالمصحة. لكن فى البدايه أخبرنى, ما اسمك؟

أربكته ابتسامتها ونظرتها المحايدة التى خلت من الشفقة أو الاتهام. لكنه أجاب ببطء دون أن يرفع رأسه:

-عماد سالم

-أهلًا بك يا عماد. وماذا كنت تعمل قبل أن تأتى إلى هنا؟

-كنت مهندسًا فى شركة اتصالات.

اتسعت إبتسامتها المشجعة ولمعت عيناها، وهى تردد:

-أنت مهندس إذًا؟. هذا يعنى تعليمٌ راقٍ وعقلية علمية.

لم يُعَقِّب فواصلت حديثها:

-هل تعلم لماذا أنت هنا؟.

توتر ثانية ونظر إليها بحيرة وهو يتساءل لماذا تسأله سؤالًا تدرك حتمًا إجابته. هل تسأله لتُربكه، أم تسأله لتتأكد، أم تسأله لغرضٍ آخر خَفِى لايعلمه. قرر الصمت فعادت لتقول بإصرار:

-لم تُجبْ سؤالى. هل كان سؤالى مُزعِجًا؟..

-أنتِ تعلمين لماذا أنا هنا. لابد أنهم قد أخبروك..

-لا يهمنى ما قالوه ولا ما تقوله الأوراق. أريد أن أسمعك أنت..

تنهد بخفوت قبل أن يجيب بصوتٍ خافت ورأسه مُطرقٌ لأسفل :

-إننى متهم بقتل أمى؟..

قالها وثَبَّتَ عينيه على وجهها ليرى رد فعلها. ظلت ابتسامتها الندية على وجهها دون أن تتعكر. وقالت حينها بهدوء:

-وهل فعلت هذا حقًا؟..

-وهل ستصدقينى لو أخبرتك بالحقيقة؟..

-يمكنك أن تجربنى. لن تتخيل أبدًا مدى اتساع أفقى ومدى قابليتى لتصديق أى شىء ؟..

-أنا لم أفعل. أقسم على هذا، لكن لا أحد يريد تصديقى..

-وهل تعلم من فعلها إذًا؟..

ابتلع ريقه بصعوبة وازداد اضطرابه وأجاب:

-ليتنى أعرف. كان السِكِّينُ فى يدها، وفى اللحظة التالية كان مُعلَّقًا فى الهواء ثم طُعِنَت به. الأمر كله صعب التصديق. لقد كان هناك من يستحوذ على جسدها من الجان أو الشياطين، وكانوا هم من قتلوها وليس أنا.

-هل يعنى هذا أن الشياطين التى استحوذت على جسدها هى من قتلتها.

شعر بالإرتباك ثانية..فخفض رأسه وغمغم بخفوت:

-أعلم أنكِ لم تصدقينى.

-ومن قال أننى لم أفعل. إننى أُحَدِّثُك لأعلم الحقيقة، وأنت لست هنا كى نُكَذِّبُك أو نتهمك بشىء. أنت هنا لنستمع إليك ونساعدك.

صمت عماد بتردد، ولم تفلح ابتسامتها الهادئة فى إزاحة توتره ثانية كما فعلت بالبداية، قرأت الدكتورة سحر هذا على وجهه فنهضت من مكانها، وقالت بهدوء:



-حسنًا. هذا يكفى اليوم, كما تعلم فسوف تمكث هنا لبعض الوقت, وسوف يكون بينا الكثير من الحديث. لكن حكيم سيصطحبك الآن إلى حجرتك لتستريح قليلًا.

قالتها وهى تشير الى الممرض, فنهض على الفور, وأشار له وللجندى قائلًا :

-هيا بنا.

تقدمهما بثبات ولم يلتفت إليهما وهما يتبعانه ويسيران بين الممرات لمداخله. كان هناك الكثير من العيون التى ترمق الموكب الصغير بفضول وترقب. ومن حين لآخر كانت هناك بعض الأصوات تبعث من خلف الجدران.خرجوا إلى الحديقة, واتجهوا نحو مبنى واسع محاط بسور طويل. وصلوا بوابته الحديديه, وكان هناك أحد العساكر حاملًا سلاحه بتراخٍ. حَيَّاهُ الممرض حكيم وتبادلا حديثًا هامسًا, وهو يشير بإصبعه نحو عماد قبل أن يفك العسكرى الأقفال الضخمة, ويفتح الباب..

دخلوا المبنى الذى اتخذ شكل مستطيل ذو ضلع ناقص, ورأى عماد يافطة كتب عليها (أ رجال) فاتجهوا إلى ممراتها, بدا المكان أكثر ظلامًا بالأضواء الشاحبة التى تبثها لمبات النيون المثبتته الى السقف المرتفع, وبدا الهواء راكدًا باردًا. ومن الناحيتين كان هناك عنابر وحجرات بأبواب معدنية غليظة وقضبان حديدة كئيبة تبث اليأس فى النفوس التى يراودها الأمل. ثم توقفوا أمام حجرة كتب عليها (5)

فتح الممرض بابها وتقدمهم للداخل, ثم توقف فى منتصفها وعلى شفتيه ابتسامته الباردة.كانت الغرفة عجيبة بحوائطها المُبَطَّنَه بالجلد وسقفها المرتفع والذى تتحرك فيه مروحة عتيقة فى حركات خفيفة لاتحرك من الهواء ساكنًا, كما رأى كاميرا رقمية مثبتة فى السقف يستخدمونها حتمًا لمراقبة المرضى. كانت الحجرة خالية من الأثاث إلا من فراش مبطن كله

هو الآخر بالجلد وفى أحد الأركان كان هناك باب خشبى منخفض يؤدى إلى ما يشبه الحمام. واقترب منه الممرض وهمس فى أذنه ساخرًا:

-هل أعجبتك حجرتك؟!. إنها خمس نجوم كما ترى!..

لم يفهم عماد لماذا يُحَدِّثُهُ هذا الممرض الضخم بمثل هذه السخرية, فلاذ بالصمت, وهو يتحاشى النظر اليه. لكن الممرض لم يتركه وشأنه, وأكمل هامسًا:

-هل تريد رأيى؟. أنت لست مجنونًا, ولن تُفلِح فى ادعاء الجنون لتفلت من فعلتك الشنيعة. لو كنت ذكيًا لفكرت فى حيلة أخرى لتُفلِت بها من حبل المشنقة غير ادعاء الجنون. أنت سليم يا رجل وهذا ما سيثبته التقرير النهائى عنك

مرة أخرى شعر عماد بالإرتباك من تلك اللهجة العدائية التى يحدثه بها ذلك الممرض المأفون. إنه لم يات بجديد حين أخبره أنه ليس مجنونًا. إنه بالفعل سليم وعاقل ربما أكثر من هذا الممرض نفسه, ولولا شهادة الدكتور محمد شاهين ضده لما كان هنا الآن.وجد نفسه يشعر بالحنق ثانية على الدكتور محمد شاهين وعَضَّ على شفتيه بغيظ وتمنى لو ينتقم منه يومًا. وعاد الممرض ليتحدث إليه ببروده:

-إننى الممرض المسئول عنك بصورة أساسية. سأكون دومًا بجوارك لأراقبك وسأكتب تقريرى وملاحظاتى عنك ليعلمها الأطباء, صدقنى لن يكون تقريرى فى صالحك أبدًا. من سوء حظك أنهم هنا يثقون بى وسيؤيدون حتمًا ما أكتبه عنك. إننى أخبرك بهذا لأنى أكرهك. أنا أفهم أىَّ شىء غير أن يقتل المرء أمه, ولهذا لا أتعاطف معك ولا أحبك.

امتلئت نفس عماد بالغيظ من هذا الممرض الكريه وغالب نفسه كى لا يلكمه فى أنفه ليتوقف عن هراءه. وقال مُحَاوِلًا أن يبدو غير مكترث بما يسمعه :

-يمكنك أن تذهب الى الجحيم !..

بدت الدهشة للحظة على وجه الممرض وكأنه لايتوقع تلك الإجابة. لكنه تمالك نفسه بسرعة, وعاد ليرسم ابتسامته الباردة وهو يقول ببطء يحمل الكثير من الوعيد:

-لست أنا من سيذهب إلى الجحيم حتمًا. إن الجحيم الوحيد الحقيقى هو هذا المكان لو كنت تعلم. وأعدك أن تصطلى بناره كثيرًا, فلا تتعجل!.

ثم أشار بإصبعه نحو الكاميرا المثبتة بالسقف وقال:

- هذه الكاميرا هنا كى نراقبك دومًا, كى لاتؤذى نفسك, أو تفكر فى الإنتحار. لكنك لو وجدت وسيلة ما للإنتحار, وكنت أنا من يجلس خلف الكاميرا حينها,فلن أهُبَّ لنجدتك ولن أتدخل. افعلها يارجل واقتص من نفسك وأعدك أن أحترمك ثانية.

قالها حكيم واندفع نحو الباب مُغادرًا يتبعه الجندى, جلس عماد على طرف الفراش الجلدى, وراح يفكر فى الأيام العصيبة المقبلة. شعر بالتوتر من اللهجة العدائية التى حدثه بها حكيم الآن, لم يفهم لماذا يعامله هكذا. هل يكرهه لأنه يعتقد هو الآخر أنه قد قتل أمه..لكن ما شأنه بهذا..وما أدراه أن هذا ما حدث, يبدو أن الأيام القليلة القادمة ستحمل الكثير له..

رمق الكاميرا بلا مبالاة وراح يَعُدُ لفات المروحة البطيئة المرتفعة محاولًا التشاغل عما يدور فى عقله ويكاد أن يصيبه بالجنون..أىَّ ذنبٍ يا ترى اقترفه ليقع فى هذا الشَرَكْ؟..

وتواصلت حيرته بلا نهاية

*****

(3)

شعر بالجوع وبدا الأمر أنه لا أحد قد انتبه الى وجوده منذ الصباح. كان النهار قد أدبر, وأقبل الليل دون أن يأتيه أحد من الأطباء أو الممرضين..راح يتحرك بعصبية وقد أرَّقَهُ الجوع وبدأت أمعائه فى التلوى والتقلص احتجاجًا.. رفع رأسه نحو الكاميرا وفكَّرَ فى أن يُحَدِّث من يراقبه, لكنه أمسك لسانه فى اللحظة الأخيرة. ربما كان حكيم هو من يراقبه الآن, وربما كان مستمتعًا وهو يراه جائعًا متوترًا, وحتمًا سيسُرُهُ أن يرجوه عماد ليجلب الطعام له..قبع فى ركن بالغرفة القُرفُصاء, وأخفى وجهه بين قدميه, وراح يتشاغل عن الجوع التفكير فى مصيبته. جاءه الألم والشجن على الفور كأنما كان بالإنتظار. أقبلت أمه من ثنايا ذاكرته بنظراتها اللائمة..تلك النظرات التى اعتادت أن ترمقه بها حين يُخطِئ, ولاترضى عنه. عاد ليبكى. إنه لم يقتلها, لكنه عجز عن مساعدتها حين حدث لها ما حدث.. عجز عن منعها من إيذاء نفسها..ولم تفلح محاولاته فى تخليصها مما ألَمَّ بها..

طفا على سطح ذاكرته وجه آخر فانهمرت دموعه أكثر حتى كاد ينتحب..راح يفكر فى "منى". هل تراها صَدَّقَت ما يُقالُ عنه؟. لم يتحدث إليها بعد الحادث, والمرة الوحيدة التى رآها فيها كانت فى المحكمة تبكى وقد ذبلت ونحلت. هذه المرة لن تفلح محاولاتهما واصرارهما فى أن يظلا سويًا. لقد أتت النهاية, وليس هناك بصيص أمل فى آخر النفق المظلم الذى صار حبيسه.

كل شىء ضده ولا أحد يصدقه. لو قرر الأطباء أنه سليم -وحتمًا هذا ماسوف يحدث -فسيخرج من هنا, ليحكم القاضى عليه حكمًا قاسيًا بلا شك.. يعلم أنه لن يُعْدَم فى قتل أمه, لكن هذا لا يمنع أن يُحكم عليه بالمؤبد..ولو قرر الأطباء أنه مريض كما ادَّعَى الدكتور محمد شاهين, فهذا

قد يعنى أن يمكث فى المستشفى إلى حين غير معلوم، لكنه حين يغادر الصحة بعدها، فسيظل موصومًا بالجنون. شعر بالتيه والتخبط وبدأ دوار عنيف يحيط برأسه ويزعجه. أيكون هذا من أثر جوعه الطويل، أم هو من التفكير فى حاله والذى لايكل عقله عن تذكره..

تناهى إلى مسمعه الأصوات التى تتردد فى الردهة بالخارج مقتربة من حجرته. توقفت الأقدام أمام باب حجرته وسمع المِزلاج وهو يتحرك قبل أن يفتح الباب، و يُطِلُّ منه وجهٌ جديد غليظ أسمر، يراه لأول مرة. كان مُمَرِضًا هو الآخر، مَيَّزَهُ من ملابسه البيضاء ومن البطاقة الملونة الملتصقة أعلى صدره، وعليها صورته ومطبوع عليها اسمه. جمال محمود. كان يحمل فى يديه صينية عليها طعام.

وضع الممرض صفحة الطعام فوق الفراش وقال له بخشونة:

-تناول طعامك بسرعة لنغادر الغرفة.. الدكتور أسامه يرغب فى أن يراك الآن.

قالها وتوقف بجوار الباب وهو يراقبه ببرود. تقدم عماد نحو الصينيه ورفع غطائها. كانت تحوى حساءًا باردًا وقطعةٍ صغيرة من اللحم وبعض الأرز، كان مذاق الطعام سيئًا، لكنه ظل أفضلَ من طعام السجن. راح يأكل على مَهَل، لكن جمال تململ وهتف به بنفاذ صبر:

-أخبرتك أن تُسرعْ يا هذا. ليس أمامنا اليوم كله، وهناك ما أقوم به غير الإهتمام بك.

هنا اكتفى عماد بما تناوله، وأزاح الصينية جانبًا وغمغم :

-لقد انتهيت.

-إذًا هيا بنا..

قالها جمال وأمسكه من ذراعه وقاده للخارج. بدت السماء مظلمة صافية وقد خلت من القمر وامتلأت بالنجوم وتحركت نسمات باردة منعشة فتنفسها عماد بشوق وعمق. كانت الطرقات التى تتخلل حديقة المستشفى خالية من المرضى، وساكنة لا يقطعها غير همسات بعض حشرات الليل وصفيرها. انتهوا الى مبنى آخر غير الذى دخله عماد فى الصباح وساروا فى طرقات أضوائها ساطعة وعلى جانبها تراصت بعض عنابر المرضى المغلقة بالأبواب الحديدية والتى أظلها الصمت الآن وقد خلد المرضى جميعًا للنوم. انتهى الممر الطويل الى طرقة جانبية ساروا بها ومنها إلى حجرة فى النهاية دلفوها..

كانت الحجرة واسعة رحبة، رقد فى منتصفها مكتب ضخم مُغَلَّف بالجلد، جلس خلفه رجلٌ نحيلٌ أزاح الصلع الشعر من مقدمة رأسه، وقد اشتعل جانبى رأسه شيبًا. كانت لديه لحية خفيفة حول وجهه النحيف وكان يرتدى نظارة مربعة ضخمة أخفت نصف وجهه تقريبًا. وبين أنامله استكانت بقايا سيجارة تحتضر وقد عبقت الغرفة بكمية هائلة من رائحة ودخان السجائر. بدا عصبيًا وبدت ملامحه وخلجاته مشدودة كوتَرِ قوس.

قدَّمَهُ جمال للطبيب العصبى، فهز رأسه ببطء ورفع سيجارته المُحْتَضِرَة نحو شفتيه، وسحب منها نفسًا أخيرًا حبسه فى صدره للحظات قبل أن يطلقه ببطء، وعيناه تتفحصان عماد بنظراتٍ نافذة، قبل أن يشير إليه قائلًا ببطءٍ ورتابة:

- يمكنك أن تجلس..اسمك عماد,أليس كذلك؟.

تحرك عماد ببطء نحو كرسى جلدى أمام المكتب وجلس عليه وهو يجيب:

-بلى، هذا هو اسمى.

-لقد طالعت ملفك الذى أرسلوه من المحكمة. لو كان ما به دقيق فأنت ها هنا لأنك مُتَّهمٌ بقتل أمك. وقد زعم الدكتور محمد شاهين أنك كنت مريضًا تعالج لديه، وأرسلتك المحكمة الى هنا لكى نؤكد هذا أو ننفيه .. أليس هذا صحيحًا؟..

بدت لهجة الدكتور أسامه جافة تفتقد للود الذى كلَّمته به الدكتورة سحر فى الصباح. كان عصبيًا وبدت يداه المعروقتان ترتعشان كلما اندفع فى حديثه. لم يجبه عماد وهو لا يدرى ماذا يقول له. فأطرق رأسه نحو قدميه، وصمت..بعد لحظات تكلم الدكتور أسامة ثانية بعد أن أنهى سيجارته :

-أخبرنى يا عماد. هل قتلت أمك حقًا؟..

سؤال ممل يتكرر بلا توقف من الجميع، ولا مفر أمامه من إجابته كل مرة..

-إننى لم أقتلها.

-هذا يعنى أن أحدًا آخرًا قد فعلها. فهل تعلم من يكون؟

-لا أعلم. لكننى لم أقتلها.

هز الدكتور أسامه رأسه بلا معنى، وهو يهمهم همهماتٍ مُبْهَمَة، وعيناه تتأملان وجه عماد وقال ببطء بلهجة محايدة من العسير أن تتبين إن كانت تحمل الجدية أم السخرية:

-إذ ربما يكون شبحًا أو شيطانًا هو من قتل والدتك. هذا ما تخبر به الجميع. أليس كذلك؟.

-لست أدرى. إننى لم أرى من فعلها..

أشعل الدكتور أسامه سيجارة جديدة بواسطة قداحة ذهبية على المكتب أمامه وأطلق من فمه وأنفه أنفاسها الأولى نحو عماد، وقال :

-هل يُضَايِقُكَ أن أدخن ياعماد ؟..

لم يُجِب عماد واكتفى بهز رأسه ببطء نافيًا..فأكمل الدكتور أسامه :

-حسنًا دعنى أخبرك بسرٍ صغير. إننى لا أحب الدكتور محمد شاهين هذا، ولا أثق به، بل وأرى أنه قد فقد عقله بذلك الهراء الذى يهتم به من الخوارق وغيرها. تستطيع أن تقول أننى أراه دجالًا أفَّاقًا، ولا يصلح أبدًا أن يكون عالِمًا أو طبيبًا نفسيًا محترمًا، ولهذا فأنا لا أهتم بما ذكره فى المحكمة عنك ولا أعتد بتشخيصه

خفق قلب عماد توترًا، ورفع عينيه متأملًا الطبيب الكهل الذى أكمل بعد أن سحب نفسًا آخر من سيجارته ثم زفره:

-هل تفهم ما يعنيه هذا؟!، سوف أخبرك. أنا لا أراك مريضًا نفسيًا كما زعم، ولا أصدق ما تخبر به الجميع من أن شخصًا خفيًا هو من طعن أمك. هناك سبب بالطبع لاعتقادى هذا، وهو ببساطة أننى لا أؤمن بالأشباح أو العفاريت أو غيرها. فحتى لو كانوا موجودين فعلًا فلم يصلوا حتمًا للتفاهة ليهتموا بقتلنا وإزعاجنا.

تصاعد التوتر فى نفس عماد ووجدَ نفسه يقول بصوتٍ مخنوق :

-إننى لا أكذب. كما أننى لست مريضًا ولا أدَّعِى المرض. إن ما أقوله هو ما حدث بالفعل رغم عجزى عن إثباته.

إبتسم الدكتور أسامه إبتسامة باردة وهزَّ كفه الممسكة بالسيجارة لينفض عنها بعض الرماد فى مطفأة السجائر التى أمامه وقال:

-اسمع ياعماد..لو شئت الحق, فتقريرى عنك جاهز فى عقلى قبل أن أراك. أنت سليم يارجل ولا تُعانى من مرضٍ ما. كان عليك أن تختلق شيئًا أكثر إقناعًا من حكايتك تلك لو شئت أن تنجو. إن الفترة التى سوف تقضيها هنا لا قيمة لها إلا إزعاجنا فى الواقع بالإهتمام بك. ولو كان الأمر بيدى لأعدتك للسجن الآن ثانية.

احتشد العرق على جبهة عماد من اللهجة الهجومية التى يحدثه بها الدكتور أسامه, ووجد نفسه يهتف فيه بصوتٍ حاول أن يجعله حادًا متماسكًا:

-إننى لا أختلق أىَّ شىء ولا أكذب يادكتور. لايهمنى تصديقك من عدمه. إننى لست مريضًا ولم أرغب أن آتى الى هنا بإرادتى. أعدنى إلى سجنى حالًا وساكون شاكرًا لك لو فعلت, لكن أرجو أن تكف عن هجومك هذا, فأنا أشعر بالغثيان منه ومنك.

اتسعت ابتسامة الدكتور إسامه وأشار لجمال الذى كان يراقب ما يحدث باستمتاع :

-إذًا أعده لعنبره يا جمال. يبدو أن ضيفنا قد مَلَّ مِنَّا سريعًا, وها هو يهاجمنا.

تصاعد الحنق والغيظ فى نفس عماد وتمنى لو يسبه, وقد عقد الغضب لسانه. جذبه جمال للخارج وسار به بين الممرات بخطواتٍ أقربَ للهرولة. كان الغضب يتصاعد فى أعماقه هادرًا كزلزال عنيف وكان يشعر بالمرارة لانه ذلك الكهل القمئ قد كَذَّبَهُ وعامله باحتقار. تمنى لو قهر عجزه وردَّ عليه أو سَبَّهُ أو حتى بَصَقَ عليه. ربما لشعر بالراحة لو فعل.

كانوا يسيرون بجوار العنابر الصامته المظلمة حين اصطدم جسدٌ ما بالباب الحديدى المغلق لأحد العنابر, فتردد صوت الإرتطام مكتومًا.

ارتجف عماد للحظة وكذلك الجندىُ الشابّ بينما تحرك جمال نحو الباب الذى صدر الصوت منه ليرى ما يحدث. فى اللحظة التالية أطلَّ وجهٌ نحيل أشعَث الشعر واللحية من نافذة الباب ذات القضبان الحديدة, وبدا على وجهه الهلع والجنون, وعيناه تتحركان فى كل اتجاه كأنما يبحث بها عن عَدُوٍ أو خطرٍ خفيٍّ يطارده, ثم توقفت عيناه على عماد وصاح فيه برعب:

-أنت. إنه أنت أيها البائس. إنهم يتبعونك! ألا تشعر بهم؟!.

شعر عماد بالدهشة لأنه يناديه, وبادله نظرة متوترة وكاد أن يرد عليه, لولا أن سبقه جمال الذى هتف فى الرجل العجوز زاجرًا:

-ابتعد عن الباب يا بدوى وعد لفراشك. إنه وقت نومك. هيا أيها الأحمق عد لفراشك وأصمت.

لكن بدوى لم يُعِرهُ اهتمامًا وعاد لهتف بلهجة أقرب للهذيان والجنون:

- إنه خلفك يبحث عنك ليصل إليك. إن لم تتخلص منهم فسوف يتخلصون منك. سوف يصطحبونك معهم للجحيم. إذا أردت أن تتخلص منه فابحث عنه. إنه ينتظر. إنه دومًا ينتظر, لكنه فى النهاية هو من ينتصر.

أصاب عماد الذهول مما يسمعه ولم يفهم ما الذى يعنيه بالضبط.. كان طبيعيًا أن يعتقد فى تلك الكلمات الجنون وألا يُعِرهَا اهتمامًا..لكنَّ إحساسًا مُبَهَمًا فى نفسه دفعه للإهتمام بما يقوله العجوز المجنون هذا, فاقترب من النافذة المُغطاة بالقضبان الحديدة, فى نفس اللحظة الذى صاح فيها جمال فى بدوى بعصبية وهو يخبط على الباب بيديه:

-أخبرتك أن تأوى لفراشك أيها الأحمق..عد لفراشك والا عاقبتك.



تقهقر الرجل حينها نحو الظلام بالداخل فى نفس اللحظة التى تحدث فيها عماد إليه:

-ما تقصد يا هذا. من الذى يلاحقنى. لست أفهم ما تقوله.

جاوبته ضحكة مجنونة من الداخل وبدأت همهمات بالداخل تتعالى بالداخل من أفواه المرضى النيام الذين أزعجهم هذا الصراخ بلا شك, فى نفس اللحظة التى جذب فيها جمال عماد من ذراعه وهو يبتعد به عن المكان..وقال عماد لجمال والحيرة والدهشة تنهشه:

-من هذا ولماذا يُحَدّثُنِى هكذا ؟..

لكن جمال لم يهتم بإجابته واكتفى بالردّ عليه ببرود ومازال يجذبه من ذراعه:

-إنه عجوز مجنون يهذى مثلما يفعل الجميع هنا فى كل لحظة. لقد كان يعبث بك وكلماته لا تعنى شيئًا.

كان الرَدُّ منطقيًا لكن عماد لم يشعر بأن الجواب هو ما سمعه..بل شعر أن هناك سرًا ما فى قول ذلك الرجل له..وصل إلى عنبره وتركه جمال وما زال يفكر بلا انقطاع فى ما قاله الرجل

-ابحث عنه لتتخلص منه

ما الذى يعنيه بهذا ؟..

*****

(4)

كان نومه مُضْطَرِبًا تخلله الكثير من الأحلام والكوابيس. رأى أمه غارقة فى دمائها وتشير اليه بالسكين الذى ماتت به وتحدثه بلهجة غامضة أثارت رعبه دون أن يدرك ما الذى تريده منه. ورآها فى كابوس أخر وقد نما لها ذيلٌ طويلٌ وانبثق من جانبَيّ رأسها قرنان صغيران وهى تُرَدّد بجنون.

-ابحث عنه وحرره. ابحث عنه وحرره.

ثم جاء ذلك الرجل المجنون المدعو بدوى وهو يرتدى هذه المرة بالطو الأطباء الأبيض, وقد وضع سماعة طبية حول رقبته وأشار لأمه بإصبعه بوقار وقال:

-إنها مجنونة ولن يشفها إلا الصدمات الكهربائيه وإلّا أكلتنا جميعًا.

قالها وراح هو الآخر يُطْلِق ضحكات مجنونة وهو يعدو مبتعدًا.

أفاق من هذا الحلم, ولاحظ ضوء النهار المبكر المتسرب من النافذة المرتفعة الملاصقة للجوار. جلس على الفراش لاهثًا ومسح بيده العرق الغزير المحتشد على جبهته رغم الهواء الخفيف الذى ترسله المروحة المرتفعة. قرر أن يظل يَقِظًا وألّا ينام ثانية, وعاد لأفكاره وهواجسه..

وبعد ساعات دخل عليه حكيم..كان يحمل إفطاره وابتسامة لزجه متشفية, على وجهه, وبادره فور أن رآه:

-علمت ما حدث بينك وبين الدكتور أسامه بالأمس. لقد كشف الرجل حيلتك من أول وهلة. أستطيع الأن أن أؤكد لك أنك عائد لسجنك لا محالة.

لم يلتفت إليه عماد وحاول تجاهله. يكفيه ما يعانيه. لكن حكيم لم يتركه وشأنه كعادته، واستمر فى استفزازه:

-إن الدكتورة سحر ترغب فى أن تراك فور أن تنتهى من إفطارك. بالمناسبة، لا تُعَوِّل على معاملتها الرقيقة كثيرًا، إنها لن تُنقِذَكَ من مصيرك. إن الكبار ها هنا هم من سيحكمون عليك فى النهاية. وعليك أن تستعد لارتداء البدلة الحمراء من الآن.

لم يتمالك عماد نفسه فى هذه اللحظة فترك طعامه، بل وأخرج من فمه لُقَيْمَةً كان يلوكها وألقاها فى الصينية بحنق والتفت إلى حكيم صائحًا فى وجهه مُحْتَدًّا :

-ماذا بك يا هذا، وما شأنك بى؟. اتركنى لشأنى ولا تتدخل فيما لا يعنيك.

-ومن قال أننى افعل. إننى فقط أخبرك بما سوف يحدث.

شعر عماد بشهيته تفارقه، فأزاح الطعام من أمامه حانقًا، وهتف بغيظ:

-لن آكل ما دمت أمامى.

-هذا شأنك..لكن ما دمت لن تأكل فدعنا نذهب للدكتورة سحر.

تحركا سويًا للخارج ولحقهما أحد جنود الحراسه..كانت الحياة قد عادت ثانية للطرقات والعنابر وارتفع الصخب وانتشر المرضى والممرضين. رمقتهم بعض العيون بفضول، وبينما انحرفوا نحو المبنى الذى استقبلته فيه الدكتورة سحر فى المرة الأولى، أبصر عماد الرجل العجوز الأشعث المدعو بدوى. كان جالسا فى ظل شجرة بلوط ضخمة وقد أسند ظهره على جذعها الضخم. أبطأ حينها فى سَيْرِهِ قليلا وحبس أنفاسه بترَقُّب مُنْتَظِرًا أن يُكَلِّمَهُ الرجل. لكن الرجل اكتفى بأن نظر اليه للحظة، ثم صرف عينيه عنه نحو الفضاء بلا أىَّ تعبيرٍ ما على وجهه كأنه لا يعرفه. تجاوزه وعماد

يفكر فى ما فعله الرجل بالأمس ولا مبالاته الآن. ربما كان جمال الممرض مُحِقًّا فى زعمه أن ما قاله له بالأمس لا يعدو هذيان مجنون ولا قيمة له. كانوا قد بلغوا المبنى حينها ووجد عماد فى نفسه رغبة مُلِحَّة لأن ينظر للخلف نحو بدوى. التفت برأسه فوجد عيون الرجل تنظر نحوه بثبات. دخل المبنى وهو متأكد أن الرجل كان يراقبه. تُرَى ما سِرُّ هذا الرجل هو الآخر ؟!..

وصلوا لمكتب الدكتورة سحر. وخلف المكتب المُبَطَّن بالجلد جلس رجل متوسط القامه خفيف الشعر، يرتدى نظاره كبيرة هو الآخر. بدا أن عمره تجاوز الخمسين ببضع أعوام، وكان يرقبه بعيون ضيقة ووجه أبيض حليق به بعض التجاعيد المتكاثفة حول فمه وعينيه. بينما جلست الدكتورة سحر على مقعد أمام المكتب. نهضت حين رأته فشاهد على وجهها تلك الإبتسامة الحلوة التى رآها بالأمس. ووجد نفسه مرة واحدة يدرك لماذا علقت فى ذهنه هذه الإبتسامة. كانت تشبه ابتسامة منى التى كانت تمنحه إياها حين تُكَلِّمَهُ أو تراه. كم كان يعشق تلك البسمة وينتظرها. تحدثت الدكتورة سحر مُخْرِجَةً إياه من أفكاره:

-مرحبًا بك يا عماد..أخبرنى كيف حالك اليوم، وهل نمت جيدًا بالأمس؟

غمغم ومازال واقفًا بجوار حكيم :

-الحمد الله..إننى بخير.

-إذًا لماذا تقف هكذًا بعيدًا. تعالَ وأجلس هنا أمامى.

تحرك نحو الكرسى الجلدىّ المقابل لها وجلس عليه، فأكملت وهى تشير إلى الطبيب القابع خلف المكتب:



-هذا هو الدكتور أحمد دياب. إنه أحد أساتذتنا ها هنا وهو أحد الأطباء المسئولين عنك. هل تحب أن تتحدث إليه أم أن هذا يزعجك؟.

نظر للدكتور أحمد الذى يتطلع إليه بهدوء راسمًا ابتسامة مريحة على وجهه تختلف تمامًا عن تلك التى منحها الدكتور أسامه إياها بالأمس، فقال:

-لا بأس يا دكتورة. أنا تحت أمره

هنا تكلم الرجل للمرة الأولى. كان صوته رفيعًا بعض الشئ. وقال له بهدوء:

-حسنًا يا عماد. عملت كمهندس اتصالات فى شركة اتصالات. أليس كذلك؟

-بلى..لقد كنت كذلك

-أخبرنى عن عملك. هل كنت تحبه؟ وهل كنت تحب زملائك فيه؟..

-نعم. كنت أحب عملى وأحب زملائى.

هزَّ الرجل رأسه حينها بتفهم وغمغم مُعَقِبًا:

-هذا جيد..فى الواقع من الرائع أن يعمل المرء فى عملٍ يحبه، وأن يحب من يعمل معه. إننى مثلك تمامًا أحب العمل ها هنا كما أحب زملائى. هذا يريح النفس حقًا. لكن دعنى أسالك سؤالاً شخصيًا. هل كنت كنت على علاقة بفتاةٍ ما؟

شعر عماد بالحرج ولم يدر ما علاقة هذه الأسئلة بوجوده هنا، ولاحظ بطرف عينيه الإبتسامة الباردة اللزجة على وجه حكيم ونظرة الترقب البادية على عينيه الزرقاوين الباردتين كالثلج. فعاد يلتفت الى الدكتورة سحر التى ما زالت تبتسم إليه وهَزَّت رأسه له مُشَجِعَة فأجاب:

-كنت مرتبطًا بزميلة لى وكُنَّا على وشك الخطوبة.

-وكانت والدتك على دراية بالأمر بالطبع

-نعم. كانت تعلم بالأمر

-وماذا كان رأيها فى تلك الفتاة؟.

جال بعقل عماد أن الرجل يمارس لعبة ما بأسئلته تلك. هل يعتقد أنه كان على خلاف مع أمه لأنها لم تتقبل ارتباطه بحبيبته ولهذا قتلها. هنا قال بِجِدَّة:

-لو كنت تعتقد أن أمى كانت ترفض ارتباطى بفتاتى فهذا لم يحدث. لقد كانت أمى تحبها وتبارك زواجى بها.

اتسعت إبتسامة الدكتور أحمد وخلع نظارته بإحدى يديه ووضعها أمامه على المكتب وهو يُجِيب:

-أنا لم أقصد بأسئلتى أن أصل لأىَّ شىء. أننا نتحدث سويًا فحسب

هنا تدخلت الدكتورة سحر فى الحديث وقالت:

-انظر ياعماد. نحن هنا لسنا جهة تحقيق معك. ولا يهمنا أن نصل لاعتراف منك أو حتى نفى التهمة عنك. نحن هنا على الحياد تمامًا. كل ما نبغيه فعلًا، هو أن نتحقق من حالتك النفسية وندرسها، والدكتور أحمد يفعل هذا بأسئلته تلك.

إنتقلت عينا عماد بينهما بتوتر قبل أن يُخفِض رأسه ويقول بصوتٍ أقرب للهمس:

-حسنًا. يمكنكما أن تكملا.



ران الصمت للحظات قبل أن يتحدث الدكتور أحمد ثانية:

-هل عانيت من قبل من مرضٍ نفسيّ ما أو حتى نوبة اكتئاب صغيرة مثلًا.

-لم يحدث هذا أبدًا.

-ولا تشنجات أو إصابات بالرأس؟

-كلا..

-وماذا عن علاقتك بأمك. هل يمكنك أن تشرح لى كيف كانت. أعنى هل كنتما على وفاق أم كنتما تختلفان أحيانًا كما يحدث معنا جميعًا؟.

-أعتقد أن ما يربطنى بأمى كان قويًا. لقد مات أبى وأنا صغير ورَفضَت أن تتزوج بعدها من أجلى ومن أجل أختى.

-لقد قلت أن أمَّكَ كانت ممسوسة بالجان. كيف عرفت هذا؟.

-هذا ما حدث. لقد تغيَّرَت فجأة, وبدأت فى فعل أمور مخيفة. ولقد رآها بعض الشيوخ الذين يفهمون فى تلك الأمور, فأكدوا لى أن هذا مسّ شيطانىّ؟.

-وذلك الجِنِيّ الذى استحوذ عليها هو من قتلها برأيك؟.

-لست أدرى..

رفع الدكتور أحمد حاجبه الأيمن حينها ومال نحوه عبر المكتب وقال:

-إذًا من فعلها. لقد كانت شاهدًا على ما حدث, وأنت الوحيد إذًا الذى يعرف قاتلها.

-لست أدرى..أقسم أننى لست أدرى

شعر الدكتور أحمد أن هذا يكفى هذه المرة, فرسم ابتسامته الهادئة ثانية على وجهه, وقال وهو يعيد ارتداء نظارته ثانية:

-حسنًا يا عماد. إن هذا يكفى اليوم, إننى أشكرك كثيرًا لتعاونك هذا.

لم يُعقِّب أحمد فأشارت الدكتورة سحر لحكيم أن يعيد عماد لحجرته ثانية فانصرف به. هنا قال الدكتور أحمد لها:

-مارأيك يا دكتورة سحر؟..

-أعتقد أن علينا ألا نتعجل فى إصدار أحكامنا عليه. لكننى لا أظن أنه يشكو من شىء ما فى هذه اللحظة. ربما عانى وقتها من ذهان لحظى حاد Brief psychotic disorder, or brief reactive psychosis إن الأعراض هنا بالفعل, هناك الضلالات التى يؤمن بحدوثها, وهناك المؤثر القوى الذى ربما أدخله فى هذه الحالة والذى ربما يكون موت أمه.

هَزَّ الدكتور أحمد برأسه موافقًا على ما قالته, وغمغم:

-أعتقد أنكِ مُحِقَّة. ربما هذا ما حدث بالفعل. فى النهاية ما زال هناك شهران لنلاحظه لنتيقن من حالته. علينا بالفعل ألا نتعجل الحكم عليه كى لا نخطئ.

ولاحظت سحر الإضطراب فى عينيه

*****

(5)

مضت عشرة أيام على وجود عماد بالمصحة النفسية..كان عليه كل يوم أن يقابل الدكتورة سحر أو أحد الأطباء المسئولين عنه ليتحدثوا إليه ولينشوا ذاكرته ومكنون نفسه. كما اعتاد فى كل يوم أن يرى "بدوى"

واقفًا أو جالسًا بمكانه الدائم تحت شجرة البلوط الضخمة وهو يراقبه من بعيد دون أن يحدثه. لكن الرجل غريب الأطوار فعل هذا اليوم شيئًا مختلفًا.

كان قد ذهب بعد الظهر إلى مكتب الدكتور أشرف، أحد الأطباء الذين يراقبون حالته. وحين انتهى الطبيب منه سار برفقة حكيم عائدًا لعنبره، هنا رأى بدوى يهرول فجأة نحوهم، وقد ارتسم على وجهه الكثير من الذعر والجنون، وما أن وصل إليهم حتى صرخ فى وجهه وهو يدور حوله بجنون:

-احترس منه. لقد وصل إلى هنا. ولقد رأيته. ألا تشعر به. إنه حولك فى كل مكان.

تجمد عماد فى مكانه كالصنم، وإذا بحكيم يلطم الرجل العجوز على وجهه بقسوة غير مُبَرَّرَه فيتكوم الرجل الهزيل على الأرض ليركله حكيم ويصرخ فيه:

-إبتعد عن طريقنا أيها الاحمق، إياك أن تفعلها ثانية.

شعر بالشفقة على الرجل الذى انكمش فى نفسه وراح يزحف على مقعدته مبتعدًا وهو يتاوه بألم، فصرخ فى حكيم بغضب:

-لماذا ضربته هكذا؟. إنه لم يفعل شيئًا ليستحق هذا العقاب.

لكن حكيم صاح فيه بغلظة وهو يدفعه ليتحرك:

-لا شأن لك يا هذا بما أفعله. أنت لست هنا لتعلمنى كيف أتعامل مع هؤلاء المختلين. اهتم بشأنك فقط ولا تتدخل فى عملى.

لاذ بالصمت حانقًا. كان أكثر ما ضايقه فى أيامه السابقة بالمصحة معاملة حكيم السيئة له. يحدثه ببرود ويذكره دومًا بالسجن العائد إليه لا محالة. يؤخر طعامه أحيانًا، ويتعمد أن يستفزه ويغضبه.

وعاد لحجرته وراح يفكر فى ذلك الرجل المجنون، لماذا اندفع نحوه هكذا وما الذى يحذره منه؟!. لقد قال له أنه قد عثر عليه. تُرَى ماذا يقصد بقوله هذا.

هل يعلم هذا الرجل المجنون شيئًا ما يجهله الأخرون، أم أن مايقوله هذيان لا معنى له. أرهق التفكير عقله فنام، لكن نومه كان لفترةٍ وجيزة، ووجد نفسه يستيقظ فجأة، وهو يسمع تلك الهمسات المخيفة تُدَوِّى فى أذنيه. بدت كثيرة متداخلة،كأنما هناك العشرات ممن يهمسون فى أذنه فى وقتٍ واحد بلغة لايعلمها. كانت الهمسات مخيفة وأحس وكأنها تنفذ إلى عقله وتؤجج نيرانها فيه. كانت أفعالًا شيطانية. واتسعت عيناه ذُعْرًا وزاغتا فى محجريهما، وهو يدور بجسده فى الحجرة بجنون بحثًا عن مصدر تلك الهمسات المرعبة. حاول أن يسد أذنيه بكفيه، فلم يفلح هذا فى كتمانها. أخفى رأسه فى الوسادة فلم تختفى، فى النهاية وجد نفسه يصرخ بجنون. راح يضرب رأسه فى الحوائط المبطنة بالجلد كأنما يرغب فى تحطيمها لتفارقه تلك الهمسات. وهو يصرخ بجنون:

-كفى. عليكم اللعنة. اصمتوا وابتعدوا عنى. لم أعد أحتمل.

لم تهدا الهمسات، فَظَلَّ يخبطُ رأسه فى الحائط بجنون. ومضت لحظات قبل أن يدخل عليه جمال وبرفقته ممرض ضخم هو الأخر. أحاطا به وتعاونا على السيطرة عليه ثم أرقداه على الفراش رغمًا عنه وقاما بتقييده إليه. كان يقاومهما بجنون وهو يصرخ فيها متوسلًا، أن يُسكِتَا

الهمسات اللعينة. ودلفت الدكتورة سحر الغرفة لاهثة مهرولة، وما أن رأته حتى هتفت بجمال:

-أمبول نيوربل بسرعة..

خرج جمال من الحجرة على الفور ليجلبه، بينما راحت هى تربت على كتف عماد وهى تحاول تهدئته:

-اهدأ ياعماد.. اهدأ.. تمالك نفسك وستكون بخير

-أسكتهم يادكتورة..إنهم يمزقون عقلى. افعلى أى شىء أرجوكِ..أوقفى تلك الهمسات بالله عليكِ.

وعاد جمال فى تلك اللحظة الحجرة وبيده محقنًا ممتلئًا بسائلٍ مائل للإصفرار. انحنى نحو ذراعه المُقَيَّد بالفراش وأفرغ ما فيه بأوردته. مضت بعدها لحظات بطيئة ظل فيها عماد يطلق صرخاته المجنونة المستغيثة، حتى سرى الخدر فى جسده وغَلَّفَ عقله، فخفتت الهمسات حتى تلاشت تمامًا وراح هو فى ثبات عميق.. راقبته الدكتورة سحر حتى انتظم تنفسه، ثم التفتت إلى جمال ليخبرها بما حدث. طالبته أن يأتيها بعماد فور أن يستيقظ ثم انصرفت. لكن عماد ظل طوال الليل نائمًا، وحين استيقظ فى الصباح شعر بالإعياء وصداع رهيب ينهكه. جاءه حكيم حاملًا إفطاره وابتسامته اللزجة تسبقه، فبادره عماد بإعياء وهو يضغط على صدغيه بأنامله ويغمض عينيه بألم:

-أريد شيئًا ما لهذا الصداع العنيف.

وضع حكيم صينية الطعام على جانب الفراش وقال ببرود:

- إنه من تأثير ما فعلته بالأمس. لقد رأيت تسجيل ما حدث كاملًا. صَدِّقنى لقد كنت بارعًا فى تمثيل نوبة الجنون تلك، لكنى لا أعتقد أن هذا كافيًا

لتقنعهم ها هنا أنك مجنون بالفعل. لقد رأينا هنا الكثير من تلك الإدعاءات ولم تعد تخدعنا.

عاوده الغضب، وأراد أن يحتد، لكن الصداع اشتد فجأة ما أن تحرك ليتحدث، فوجد نفسه يمسك رأسه بكلتا يديه ويصرخ:

-لماذا لاتدعنى وشأنى فحسب؟. لماذا تعاملنى هكذا؟.

-لأننى أستمتع بالأمر، وكما ذكرت من قبل لك، أنا لا أُصَدِّقُكَ، أو أحبك.

-إذًا أعطنى أىَّ شىء من أجل هذا الصداع اللعين..أعطنى أىَّ شىء يُسَكِّته.

-لايمكننى أن أعطيك أىَّ شىء دون توصية الأطباء. انته من طعامك وسوف أذهب بك للدكتورة سحر. إنها ترغب فى أن تراك قبل أن تعود لبيتها بعد انتهاء نوبتجية الأمس، يمكنك أن تسألها مُسَكِّنًا ما.

-إذًا دعنا نذهب إليها.. إننى لست جائعًا.

*****

(6)

رقد على الفراش الجلدى فى الظلام، وهو يفكر بحيرة فى تلك الأصوات المخيفة التى هاجمته اليوم. إنها المرة الأولى التى يحدث له فيها شىء كهذا. كانت الهمسات وحشية، غامضة، ومخيفة. بدا وكأنها تخترق روحه، وتنهش خلايا جسده وعقله. أتكون تلك الهمسات عَرَضًا من أعراض مرضه، أم تراها رسالة خفية تحاول أمه أن ترسلها له من عالمها الأخر، أم هى عبث شيطانى، يبغى تهييج جنونه؟..

لم يشعر من قبل بالجنون مثلما حدث حين ترددت تلك الهمسات فى أذنيه. مازال لا يصدق أنه راح يضرب رأسه بالحائط بكل هذه القسوة لتزول عنه, ولولا تلك البطانة الجلدية التى تبطن الحوائط لكانت إصابته بالغة بلاشك.

دار فى رأسه تساؤل مفزع. هل يعنى ما حدث له أنه مريض بالفعل؟. هل كان كل ما مر به أوهام راودته. هل كانت أمه سليمة ولم تكن مسكونة بالشياطين؟. هل كان مريضًا يُعالج عند الدكتور محمد شاهين كما ادّعى فى المحكمة؟. ولو كان هذا صحيحًا, هل كان هو من قتل أمه فى نوبة جنون حدثت له؟. شعر بالإعياء فرقد على الفراش بحثًا عن نومٍ يُغَيّبَهُ عن واقع غامضٍ مريب يُسْقِمَه.

مضى نومه هادئا لا يعكره شيء, حتى استيقظ على صرخات تترد خارج حجرته. بدت الصرخات عنيفة وكأنما يُعانى صاحبها ألمًا لا يُطَاق.. نهض مُسرِعًا وأطَلَّ برأسه من القضبان الحديدية لباب حجرته ليرى ما يدور بالخارج. رأى الشرطِيّ الذى يحرس الباب مُلْتَصِقًا بالحائط وبجواره وقف حكيم وممرض آخر, وبين أقدامهم كان هناك رجل ينتفض بعنف. كان جسده يتلوى بأكمله وعضلاته تنقبض وتنبسط بسرعة رهيبة, وقد مالت رأسه للخلف بزاوية مخيفة,شعر عماد أنها ستحطم عنقه حتمًا. تقلصت أسنان الرجل فى فمه, وخرج من بينها الكثير من اللعاب كرغاوى كثيفة. راح الرجل حينها يزمجر كحيوانٍ ضارى, وراقبه الباقون دون أن يُقدِم أحدهم على فعل شيءٍ ما..

حبس عماد أنفاسه رهبة وتساءل بأعماقه لماذا لايتدخل أحد ما ويسعفه..ومضت اللحظات ثقيلة وبطيئة قبل أن يهمد جسد الرجل تمامًا, ويستكين على الأرض بلا حِراك, كأنما غادرت روحه جسده..هنا دبت الحياة فى أجساد الرجال الثلاثة ثانية, وتعاونوا على حمله وإدخاله إحدى

الحجرات واختفوا داخلها, وإن ظلت أصواتهم تصل لعماد. ظهر بعدها طبيبٌ شاب فى تلك اللحظة متجهًا نحو حجرة الرجل. وبعد دقائق قليلة خرج منها مصطحبًا الممرض الذى كان مع حكيم,يتبعه الشرطى ثم خرج حكيم فى النهاية فأوصد باب الحجرة على الرجل المريض, ثم تحرك ناحيته قبل أن يتوقف أمام باب حجرته المغلق. هنا رسم الإبتسامة اللزجة الباردة على وجهه كالعادة, وقال وهو يقترب بوجهه من القضبان الحديدة التى تفصله عن عماد:

-إذًا فقد استمتعت برؤية ما جرى. ظننتك نائمًا

تجاهل عماد بروده وسأله وعيناه مُعَلَّقةٌ بحجرة الرجل:

-ما قصة هذا الرجل؟..

-القصة المعتادة!.. لقد قتل زوجته ثم ادعى الجنون, فأحالوه إلينا كى نلاحظه ونفحصه. تمامًا كما حدث معك. إنه سليم هو الآخر, ولايعانى من أىّ شىء.

رمقه عماد بشك, وعقله يستعيد ما جرى للرجل منذ قليل, فاتسعت ابتسامة حكيم وكأنما أدرك ما يفكر فيه وقال:

-لا تصدق ما رأيته. فهو كما رأيت ممثلٌ بارع. إنه يحاول أن يقنعنا أنه يعانى من الصرع. لكنه فشل فى هذا. لقد أدركت هذا منذ الوهلة الأولى, ولهذا تركته كما رأيت يتمادى فى ادعاءه حتى انتهى, فحملته لحجرته..

تذكر عماد الزاوية العنيفة التى مالت بها عنق الرجل وقال مُعْتَرِضًا:

-وماذا لو كان مريضًا بالفعل؟.



-ما أخبرتك به ليس رأيى فقط. إنه رأى الدكتور ضياء أيضًا. لقد فحصه, وأكَّدَ ظنى, حتى أنه لم يوص له بأىّ عقار.

قالها ومال بوجهه نحو القضبان حتى التصق به تمامًا, وهمس بسخرية:

-أعترف أنك كنت أكثر براعة منه فى ادعاء المرض بالأمس. لكن كل هذا بلا طائل وستعودان لسجنكما ثانية قريبًا لتتدلى أعناقكما من حبل المشنقة.

تصاعد الغثيان فى نفس عماد وأبعد رأسه عن الباب وصرخ فى وجهه :

-أنت رجل مريض..أنت مريض بلا شك.

تعالت ضحكة حكيم الساخرة, وهو يبتعد, فشعر بكراهية لا حد لها نحو حكيم فى تلك اللحظة. إنه إنسان مريض سادى يستمتع بإيذاء المرضى الذين يشرف عليهم.

تحرك نحو فراشه وجلس غاضبًا على طرفه.. حاول أن يُخرج حكيم من عقله فتشاغل بالتفكير فى أمور أخرى. راح يتأمل المروحة التى تدور برتابة. بعد حين بدأ وريد جبهته الأيمن فى النبض بقوة. تحسسه بأنامله فآلمه. وفوجئ بالهمسة الأولى تتردد فى أذنه..

"No bis in circuitu"

انتفض بذعر, وتَلَفَّتَ بعنف حوله بحثًا عن مصدر الهمسة. خيَّمَ الصمت للحظة, وقلبه يدق بترقب, قبل أن تكتسح الهمسات أذنيه وعقله مرة واحدة. أتت هذه المرة كاسحة لا تُقَاوَم. لكنها لم تأتِ بمفردها بل خرجت الأشباح السوداء من كل مكان حوله وراحت تنقَض عليه. راح يصرخ بجنون وهو يحاول أن يُصِمَّ أذنيه وعينيه بكفيه بلا جدوى. لقد غادرت الشياطين الجحيم من أجله هذه المرة. راح يدور حول نفسه بلا توقف وهو يصرخ ويتألم. ضرب رأسه بالحائط مِرارًا فلم يتغير شىء.. ارتمى على

الأرض وتكوَّمَ حول نفسه فلم تفارقه. رفع رأسه للأعلى وعوى فازدادت جنونًا. وفى تلك اللحظة رأى أُمَهُ مُعَلَّقَةً فى سقف الحجرة ترمقه بابتسامة شيطانية, وهى تردد الهمسات المخيفة كأنما هى عضو فرقة كورال يرددون تراتيل وحشية غامضة. وصرخ فى نفس اللحظة التى فُتح الباب فيها, وسمع صوت أمه وهى تصرخ فيه:

-شياطين الجحيم بانتظارك أيها الأحمق. ألا ترى؟!

هنا راح جسده ينتفض على الأرض بلا توقف..التوى ظهره حتى كاد أن يحطم فقرات ظهره, وأطبقت أسنانه على لسانه فأدمته, ولم تقو عضلات مثانته على كتمان مائها فأراقته وبلل ملابسه. رأى هذا حكيم بتوتر حقيقى, وقد أدرك أن الأمر لا ادعاء فيه. لحقه ممرض آخر وذلك الشرطى المكلف بحراسة المكان وتبادلوا النظرات العاجزة حتى همد جسد عماد بعد حين. هنا قال الشرطى للممرضين وهو يلحظ خيط الماء الذى انساب من بنطال عماد:

-ألن تفعلوا شيئًا ما ؟..

انحنى حكيم نحو الجسد الهامد وقال للممرض الآخر:

-أحضر الدكتور ضياء بسرعة..أخبره أن الأمر خطير وعاجل.

*****

(7)

شعر بإعياء لا حدود له, وقد صار كل جُزْءٍ من جسده يزن أطنانا. وعقدت الدكتورة سحر ذراعيها أمام صدرها وقالت له حين حاول أن ينهض من فراشه من أجلها:

- لا تتحرك. أعلم مقدار ما تشعر به من ضعف وألم، وأعلم أن إجهادك لا حدود له. لكنها مسألة وقت لا غير. كل ما تحتاجه هو بعض الراحة وسيتجدد نشاطك ثانية.

-إنه أكثر مما تتخيلين. أشعر وكأن قاطرة قد دهستنى مِرَارًا.

-هذا أمر طبيعى بعد نوبة التشنجات التى حدثت لك. لقد استهلك جسدك طاقته كلها تقريبًا فى تلك اللحظات القصيرة التى حدثت التشنجات خلالها.

صمت عماد للحظة ليبتلع ريقه وشعر بلسانه الدامى يؤلمه، ثم غمغم وهو يُغْلِقُ عينيه بوهن:

-وهل سيتكرر الأمر ثانية؟.

-من يدرى؟. لكن أخبرنى. هل أتتك تلك الهمسات ثانية

أومأ بعينيه وهزَّ رأسه موافقًا..

-ولم تعِ ما تردده تلك الهمسات كالمرة السابقة؟..

-نعم. لكن الأمر هذه المرة مختلفًا. كان هناك أشباحًا هاجمتنى وكان شبح أمّى بينهم.

شعرت سحر بالإثارة فنظرت له بترقب وقالت بدهشة :

-وماذا حدث غير ذلك

رمقها بضعف للحظة وخاف ألا تُصَدِّقَهُ فقرر ألا يخبرها بكل شىء. لهذا غمغم بإعياء:

-كان هذا كل شىء. بعد ذلك لا أذكر أىَّ شىء.

راحت سحر تخط ملاحظتها فى دفتر صغير كان بجيبها. ثم عادت لتحدثه ثانية:

-لكنك تعلم أن أمك قد ماتت وأنه ليس منطقيًا أن تراها ثانية.

كان عقله مُشَتَّتًا بشدة، وأدرك أنها ربما تختبر إدراكه ومنطقية تفكيره. تنهد للحظة، وقال بصوتٍ نجح فى أن يجعله قويًا :

-أعلم أن أمى قد ماتت، ومن المستحيل أن تكون ها هنا، ولو كانت حَيَّةً فلن تطير فى الهواء. أعلم كل هذا وأعى أن كل ما يحدث لى ربما هى أوهام وضلالات. كل هذا أدركه. لكننى أخشى أن يقودنى هذا للجنون وربما صرت مجنونًا بالفعل ولا أدرى.

ابتسمت له بإشفاق، وقالت، هى تتخير كلماتها، بلطف:

-هون عليك يا عماد. لايوجد شىء فى علم النفس اسمه الجنون. الأمر لا يعدو اضطربات عقليه ومشاكل عضوية. لكن الجنون لا وجود له فى الطب النفسى، لنقل أن الجنون هو مصطلح عام يصف أىَّ شىء خارج عن المألوف أو التعود، أن العبقرى قد يُقال عنه أنه مجنون. والفنان قد يقال عنه أنه مجنون. والشاعر كذلك. ألم يطلقوا على قيس مجنون ليلى- هل تعتقد أن هذا! يعنى أنه لو كان موجودًا فى عصرنا لدخل هذه المستشفى لنعالجه من عشقه؟..

قالتها بشىء من المداعبة، لكنه لم يضحك. لم يكن يعنيه هذا الجدال عن المصطلحات ولا قيمة عندة إن كان الجنون مُدرَجًا كمرضٍ نفسى أم لا..كل ما يخشاه أن يكون ما يحدث له، مقدمة مرض نفسى حقيقى له، أو يكون ما حدث له قد سبب خللًا ما فى عقله..وانتبه حينها لما تقوله:

-المرض النفسى ليس أبدًا عيبًا يا عماد, كما أنه ما زال لغزًا, لماذا يصاب البعض بنوع معين من المرض ولماذا لا يحدث للآخرين؟.. لماذا يصيب المرض أناسًا يعانون أشد المعاناة من فقر وإحباط ومرض, ولماذا يصيب المرض نفسه آخرين لايشكون شيئًا ويحيون فى رغد وسعادة؟.. صدقنى المرض النفسى لا خجل منه على الإطلاق, لانه قد يصيب الجميع بما فيهم الأطباء النفسيين أنفسهم.. إن بعض المرضى هنا فى المستشفى كانوا أطباء هنا بالمكان. أتصدق هذا؟!..

وقبل أن يُعَقِّب أصدر هاتفها رنينًا يحمل نغمات أغنية دينية..أخرجته ونظرت إلى شاشته. كانت رسالة من الدكتور أحمد:

"أريدك حالًا فى مكتبى.. دعى ما تقومين به وتعالى."

أعادت محمولها إلى جيبها بهدوء, والتفتت إلى عماد ورسمت بسمتها اللطيفة على شفتيها ثانية, وقالت:

-أنا مضطرة للذهاب الآن, المدير يطلبنى فى مكتبه, لكنى سوف أعود ثانية, وحتى ذلك الحين سيكون هناك أقراص تتناولها بانتظام كى تمنع عنك تلك الهمسات والرؤئ التى لاترغب بها. تناولها بانتظام ولن تعاودك تلك الهلاوس السمعية ثانية بإذن الله.

والتفتت بعدها إلى جمال, وقالت وهى تُدَوِّنُ فى تذكرة عماد العلاجية:

-أعطه سافينيز أقراص ثلاث مرات يوميًا, وقرص فاليام قبل النوم فقط. سوف أُدَوِّنُ تلك العقاقير فى تذكرته..

ذهبت بعدها إلى مكتب الدكتور أحمد. وتناهى لمسمعها الأصوات الصاخبة والمناقشة الحامية الوطيس التى تدور بالداخل. ومَيَّزت قبل أن

تدخل صوت الدكتور أسامه بعصبيته وحِدَّتِه. فهمست لنفسها وهى تُبَطِئُ من مشيتها:

-مشاجرة أخرى بين التنانين. ليرحمنا الله!.

طرقت الباب ودخلت دون أن تنتظر الرد..كان هناك الدكتور أحمد خلف مكتبه وأمامه الدكتور خالد يجلس على المقعد الموجود على يمين المكتب, وفى الجهة المقابله كانت هناك أريكة جلدية جلس عليها الدكتور أسامه الذى بدا التوتر على وجهه وهو يدخن كعادته..

هتف الدكتور خالد حين دخلت مبتسمًا ومُرَحِّبًا:

-وها هى الدكتورة سحر قد جاءت لتحسم الجدل. إنها طبيبته المُعالجة وهى أدرى الجميع بحالته. أخبرينا يا دكتورة برأيك عن حالة عماد. لقد رأيتِ الفيديو الذى سجلته كاميرا المراقبة لما حدث له حتمًا.

أجابته بسرعة:

-رأيته وفحصته بعدها.

-وما رأيك فى حالته؟

هنا سبقها الدكتور أسامه وهتف بقوة وهو يلوح بيده فى الفراغ:

-بالطبع "malingering"..حتمًا هذا ما ستخبرنا به يا سحر.

هنا صاح فيه الدكتور أحمد باستهجان:

-يا رجل كفى تَعَجُّلًا وافتراءًا..كلنا يدرك أنه من المستحيل أن يتقن أحد ما القيام بتلك التشجنات. مهما كان بارعًا فى التمثيل فلابد أن يُخطِئ.



-ولماذا لايفعل؟. كلهم صار يفعل هذا اليوم. أخبرنى كم حالة تقابلها يوميًا هنا لمرضى متمارضين. أكثر من نصف الحالات التى نراها كل يوم أليس كذلك؟. إنها الموضة الآن، الكل يقرأ فى علم النفس هذه الأيام، وهناك آلاف الفيديوهات التى تصور مرضى حقيقين على اليوتيوب، يمكنه بسهولة رؤيتها. وليس من العسير أن يتعلم تنفذيها وتمثيلها كما رآها.

قال له الدكتور خالد معترضًا:

-ولماذا يفعل؟..ولماذا لم يقم بتنفيذ تلك الأعراض منذ البداية، بدلًا من الإنتظار أيامًا.

-إنه مهندس، ولابد انه ذكى ويرغب فى أن يُحْكِمَ حبكته. لابد أنه أعَدَّ العُدَّة منذ وقت طويل لهذا الأمر.

هنا صرخ فيه الدكتور أحمد وهو يضرب سطح مكتبه بكفه استنكارًا:

-أعَدَّ العُدَّة كى يقتل أمه ثم يَدَّعِى الجنون فى المستشفى؟.. هل تصدق حقًا ما تقوله يا دكتور؟. أنت تتجنى عليه كثيرًا يارجل. لقد كاد الفتى أن يُهَشِّمَ رأسه فى الجِدار فى المرتين. منذ متى يفعل المتمارضون هذا. إنهم لايؤذون أنفسهم أبدًا. هل لاحظت نوبة الصرع التى أصابته. أهذه يدعيها أيضًا؟..

هنا تدخلت الدكتورة سحر فى الحديث، وقالت مؤيدة الدكتور أحمد فى رأيه:

-لو شئتم رأيى فهو مريض بالفعل. إنه يتحدث عن همسات مُلِحَّة سبقت نوبة التشنجات فى المرتين بالإضافة لأشباح فى المرة الثانية. ألا يبدو هذا مألوفًا؟.

"Hallucinations and Delusions"-

صرخ الدكتور احمد وأكمل وهو يميل بجسده نحو الدكتور أسامه ويشير بسباته نحو وجهه بظفر:

- الأمرَ جَلِىٌّ للغاية، وليس بحاجة للكثير من التفكير كما ترون..الفتى يعانى من اضطربات ذهانية تصحبها هلوسات سمعية وبصريه..إنه الفصام يارجل..الفتى مصاب بالفصام حتمًا.. الا توافقينى فى هذا يا دكتورة سحر؟.

-أوافقك تمامًا. فهذا ما أشعر به.

لكن الدكتور أسامه لم يَرُق له الأمر، فوضع ساقًا فوق ساق وقال باستنكار:

-تشعرين؟!.. طبيبه نفسية وتقولين فى رأى علمى تشعرين!. أنتِ تمزحين يادكتورة حتمًا. حين تحدثينى عن مرض أو احتمال ما حدثينى بلهجة علمية من فضلك. إننا هنا أطباء، ولا دخل للمشاعر أبدًا فى عملنا.

احمر وجهها خجلًا وتوترت، وحمل صوتها بعض العصبية وهى تقول:

-ليس هذا ماقصدته يادكتور..لقد قصدت أنه ربما يعانى من اضطربات ذهانية مصحوبة بضلالات بصرية وسمعية..

لكن الدكتور أسامه استمر فى مهاجمتها بلا مبرر، كأنما يستمد من هذا عونٌ له فى رأيه الذى يعارضه فيه الدكتور أحمد، والدكتور خالد..وقال بابتسامة لم ترتح لها الدكتورة سحر وأزعجتها:

-أرى أن الدكتورة سحر تُولِى ذلك المريض اهتمامًا أكثر مما يقتضيه الأمر. كما أنها صارت تتعاطف معه ومع ما يَدَّعيه.



هنا قفزت الدكتورة سحر من مقعدها بعصبية. وقد أزعجها ما توارى بين طيات حديثه من تلميحات لا تحبها. وهتفت فيه بغضب حقيقى:

-ما الذى تعنيه يا دكتور أسامه. ما معنى قولك هذا؟..

أجابها ببرود وهو ينفث دخان سيجارته نحو السقف دون أن ينظر إليها:

-أنا لا أعنى شيئًا..إننى أخبركم بما لا حظته.

تقافزت شياطين الغضب على مُحَياها، واحتقن وجهها الأبيض الجميل، فبدا فى حمرته كحبة الطماطم، ووجدت نفسها تقول بحدة:

-لقد أخبرتكم برأيى. والرأى النهائى فيه متروك لكم. أنتم من يكتبون التقرير النهائى لا أنا. سوف أذهب الآن ولو احتجتم لشىء فأخبرونى..

قالتها ورمقت الدكتور أسامه نظرة أخرى حَمَّلتْها الكثير من المعانى الحانقة، قبل أن تغادر. وصاح الدكتور خالد فى الدكتور أسامه بغضب واستهجان:

-ما هذا الذى قلته لها يا رجل. ألم تتعلم أن تنتقى كلماتك قبل أن تتفوه بها. هل ترى كيف أغضبتها وأحرجتها؟..

-إننى لم أقل شيئًا لتغضب. إنها بالفعل توليه اهتمامًا زائدًا.

هنا صاح فيه الدكتور أحمد بحنق:

-لو كنت لا تدرك ما لَمَحت إليه فى كلماتك فأنت فى مشكلة حقًا. لولا أنها مهذبة لردت على اتهامك بصورة أخرى لن تسرك حتمًا

لم يرد الدكتور أسامه عليه. وهو يدخن بعصبية، وأظلَّهم الصمت لوهلة، قبل أن يقطعه الدكتور خالد قائلًا بهدوء:

-أرى أنك متحيز ضد المريض يا دكتور أسامة. "counter-tranferance" وهذا ليس من العدل لهذا المريض.

تكهرب الجو بغتة. كان الدكتور خالد يعنى أن الدكتور أسامه صار لا يتعامل مع مريضه هنا بحيادية وأنه صار يتحيز ضده بلا مبرر. وكان هذا يعنى أنه يطالبه بمراجعة نفسه فى حكمه عن المريض. أو يتنحى ليستبدلوه بطبيبٍ غيره. وبدا التوتر جليًا على خلجات الدكتور أسامه، وبالرغم من عناده إلا أنه لم يرغب فى أن يصل الخلاف إلى هذا الحد، فنهض من مكانه وسحق عقب السيجارة المتبقى فى منفضة السجائر الزجاجية المجاورة له بعصبية، وقال بهدوءٍ مصطنع:

-حسنا. افعلوا أيها السادة ما بدا لكم واكتبوا فى تقريركم ما تشاءون، ثم أرسلوه إلى لأوقعه. لن أختلف معكم فى ما تقررونه، لكن تذكروا أننى لا أوافقكم الرأى فى أىّ شىء حول هذا المتهم. هذا المتهم عاقل لا يعانى شيئًا.

وغادر المكان دون تحيتهما غاضبًا. واستدار الدكتور خالد نحو الدكتور أحمد وتنهد بارتياح قائلًا:

-هذا أفضل. خشيت أن يستمر فى عناده ويرهقنا بإصراره.

هَزَّ الدكتور أحمد كتفيه بحركة مُبْهَمَة قبل أن يخرج التليفون المحمول من جيبه ويطلب رقمًا ما. جاءه الرد بعد الرنة الثالثه فقال على الفور دون مقدمات أو تمهيد:

-حسنًا يا دكتور محمد. لقد مضى الأمر كما طلبت. سوف نُعدُّ التقرير النهائى وسنثبت به أنه غير مسئول عن جريمته تلك.

كان الطرف الآخر هو الدكتور محمد شاهين. الذى يتنهد ببطء قبل أن يجيبه:

-لا أدرى كيف أشكرك يا دكتور أحمد. يكفى أن تعلم أنك بهذا قد أنقذت بريئًا من عقابٍ لا ذنب له فيه. لقد قمت بالأمر الصائب يادكتور أحمد. ثق فى هذا.

لكن الشكوك ظلت ترتع فى أعماقه بلا توقف. وظل ضميره يؤلمه بشدة متشككا إن كان قد فعل الصواب حقًا أم أنه قد أخطأ، وساعد مجرما على الفرار بجريمته دون قصاص. ما كان يطمئنه قليلا أنَّهُ قد رأى بعض الأعراض الحقيقية على عماد، أنهى الاتصال بعدها وتبادل نظرة ذات معنى مع الدكتور ـ ولم يعقب أى منهما على الأمر..

*****

(8)

مرة أخرى أتى صخب المحاكمة وإزعاجها. عشرات العيون التى تنظر إليه بفضول وإلحاح، وفلاشات الكاميرات التى لا ترحم. كل هذا كان موجودًا دون "منى" هذه المرة. لماذا لم تأت؟. لا إجابة لديه. ظل ممدوح يشير إليه من بعيد وهو يبكى وجسده الضخم يهتز بلا توقف. تذكر أنه لم يبك فى المرة السابقة، أتراه ظن أنها النهاية وأن القاضى قد يحكم عليه بالإعدام هذه المرة فراح يبكى صديقه هكذا؟!.. وصرخ الحاجب فكف الصخب، ودخل القضاة من بعده وجلسوا واجمين قبل أن يتلوا الحكم الموجز..

"إيداع المتهم مستشفى الأمراض العقلية.."

ساد الصخب ما بين معترضٍ كان يتمنى حكمًا أخر، ومندهشٍ لايصدق أن ينتهى الأمر هكذا..وبدا عماد فى ذهول وسقط فى بئر من الحيرة والتيه، لايدرى إن كان عليه أن يسعد لهذا الحكم، أم يبتئس لحاله وقد وصموه بالجنون.. هنا جاءت الهمسات من بعيد،كأنما كانت هى الأخرى تترقب

الحكم، وفى لحظات اكتسحت رأسه بلا رحمة. فراح يصرخ وهو يحيط أذنيه بكفيه، ويحاول جاهدًا أن يضرب رأسه بالقفص كى تغادره أو يموت رحمة به..وراحت تردد بإصرار:

"redire magister dryadalum vel peribis..

redire magister dryadalum vel peribis"

لم يكن هناك دواء هذه المرة ولا ممرضين..بل جنود وأمناء شرطة وضباط راحوا يقيدونه بصعوبة بالغه دون أن يتوقف الهياج حتى أتت الغيبوبة من بعيد لترحمه من معاناته.

أفاق ليجد نفسه فى المستشفى ثانية. وجد نفسه أمام طبيبٍ شاب يبدو عليه الإرتباك ولايدرى ما الذى عليه أن يفعله، كما كان هناك حكيم هو الأخر الذى رمقه بابتسامته البارده المتهكمة. فى النهاية أوصى الطبيب بإيداعه حجرة الملاحظة حتى الصباح، فصحبه حكيم إلى هناك وهمس فى أذنه قبل أن يتركه بالحجرة بمفرده:

-إذًا فقد عدت ثانية. إن هذا مفاجأة لى. ولأننى مازلت لا أحبك ولم يتغير رأيى فيك، ولأن الأمور قد تغيرت وصرت تتبعنا هذه المرة، فأنا أعدك بالكثير من المرح بيننا. سنمضى وقتًا رائعًا سيروقك حتمًا يا رجل.

وانصرف بعد أن حقنه بالفاليم كما طلب منه الطبيب الشاب، وفى الصباح وبعد أن رآه الدكتور أحمد والدكتورة سحر، أمروا بإيداعه فى أحد العنابر مع بعض المرضى الأخرين بعد أن أوصوا باستمراره فى تناول علاجه السابق..

تقوقع فى نفسه، وراح يرقب كل ما يدور حوله باضطراب حقيقى. تمنى لو كانوا قد تركوه فى حجرة منفردة، كان لايدرى كيف سيعيش بين هؤلاء

المرضى النفسيين وهل يؤذِهِ أحدهم يومًا ما. كان دومًا يتحاشى المجاذيب والبُلَهاء بل ويخشاهم, ربما يعود هذا لتلك الحادثة التى تعود إلى صباه حين كان فى العاشرة من عمره, كان يومها عائدًا من المدرسه برفقة أصدقائه حين رأوا أحد المجاذيب يُدعى أيمن العبيط..راحوا يضايقونه ويصرخون فى وجهه:

-أيمن العبيط..أيمن العبيط..

راح المجذوب يهرول أمامهم بتوتر وخوف, لكن أحد زملائه كان وغدًا حقيقيًا, فالتقط حجرًا من الأرض وقذفه به على وجهه فأدماه. هنا راح أيمن يعوى متألمًا, وهاج وثار. لم يشاركهم عماد يومها فى مضايقته, لكن سوء حظه جعله بينهم حينها, وحين ثار ذلك المجذوب ظن عماد أنه لن يؤذيه لأنه لم يضايقه, فلم يهرول مبتعدًا عنه مثلما فعل الآخرون. كان خطئًا أدركه على الفور حين فوجئ بأيمن ممسكا به وقد غمر الدم وجهه وغربت عيناه جنونًا وهو يصرخ فى وجهه ويضربه ويخدشه بأظفاره. ووجد عماد نفسه يومها مستسلمًا بين يديه بلا حِرَاكٍ أو مقاومة. كان كالمشلول بين يديه. وظل المجذوب يضربه وهو ينتظر أن يموت بعد قليل. وحين بلغ رعبه مبلغه, وراح قلبه يدوى فى صدره كطبول بربرية, فقد وعيه..

أفاق ليجد نفسه بين أحضان أمه تبكى برعب وهو تمسح بفوطة مبللة بالماء وجهه لتنظف جروحه,كان بعض الجيران قد أنقذوه من بين براثن أيمن العبيط فى الوقت المناسب, ورغم أن الحادثة قد مرت بسلام, إلا أنه ظل طوال عمره يصاب التوتر والهلع إن وجد نفسه فى طريقٍ ما مع أحد المجاذيب أو عبر أحدهم بجواره أو صلى بجانبه فى المسجد..

الأن لم يعد هناك أيمن العبيط واحد فقط. بل هناك العشرات منه فى المستشفى يعيشون فى كل مكان حوله. هجره النوم فى ليلته الأولى وهو

يترقب الكارثة. لكن الليلة الأولى مضت بلا مشاكل ووجد نفسه فى نهايتها وقد نام دون أن يشعر, وحين استيقظ كان الصباح قد أتى, ولم يكن هناك من أحد غيره بالعنبر. جاءه حكيم بالدواء الذى يتناوله فتناوله من بين أصابعه بهدوء وانتظر أن ينصرف الأخير من أمامه, كما كان يحدث من قبل,لكنه لم يفعل. وجلس حكيم على طرف فراش يقابل فراشه, وظل يرمقه ببروده دون أن يخفض بصره. فشعر بالسأم وقال له بتوتر:

-والآن ماذا؟. هل هناك شىء ما آخر غير الدواء؟.

-هناك تنظيف هذا العنبر. سوف تُرتِّب الأسِرَّة وتُغيِّرُ الملاءت, وتكنسه, ثم تغسل البلاط. هذا كل ما فى الأمر.

شعر بالدهشة وهو لا يرى فى وجهه ذلك الممرض البارد أى دُعَابَةٍ ما فى الأمر.

-أنا لا أفهم ما تعنيه.

دارت ذراع حكيم فى أرجاء المكان وهو يشير إليه وهو يجيب:

-أعتقد أن كلماتى محددة وواضحة..أريدك أن تنظف المكان كله, أم تراك تريدنا نحن أن نفعله من أجلك أنت وأولئك المجانين الأخرين. النظام هنا أن يقوم أحدكم كل يوم بتنظيف المكان واليوم هو دورك.

-وماذا إن لم أفعل؟..

قالها عماد بشىءٍ من التحدى, فأجابه حكيم ببساطة دون أن تتعكر إبتسامته الباردة:

-سأُجْبِرُكَ على فعلها. إنه النظام هنا ولايمكنك أن تكسره أو تخرج عنه.

-وهل يعلم الأطباء بهذا؟!.

-إنهم من وضع هذا النظام. يمكنك أن تشكونى لهم لو شئت. لكنك ستنظف المكان قبلها.

تبادلا النظرات المتحدية، وتمنى عماد لو يستمر فى عناده، لكن روح التحدى بأعماقه وعناده الذى عجز فى الماضى عن ترويضه كانا قد فارقاه منذ زمن. لقد تكسرت إرادته واعتراه عجز سخيف منذ مقتل أمه. وجد نفسه يطرق برأسه لأسفل ويقول باستسلام:

-وكيف يمكننى أن أنظف المكان.

برقت عينا حكيم بظفر وقال على الفور:

-هناك مقشه ودلو بالخارج ويمكنك جلب الماء من الحمام.

نهض عماد بتثاقل وخرج من العنبر قبل أن يعود بالمقشة والدلو ومنشفة صغيرة، راح حكيم يراقبه مستمتعًا وهو يقوم بتنظيف المكان كأنما يبغى إذلاله، بل وتعمد ألا يُغيِّرَ مكانه حين وصل إليه عماد بالمقشة كى يكنس المكان أسفل قدميه، وهو يشير له بسبابته ليدور من حوله بطريقة تحمل الكثير من الإهانة والتعالى. تمنى عماد لو أن إرادته طاوعته، فيحطم رأسه بيد المقشة الخشبية التى يقبض عليها، لكنه لم يفعل. حمل الجردل البلاستيكى بعدها نحو الحمام وحين عاد به ممتلئًا بالماء فوجد حكيم يصرخ فى وجه أحد المرضى مطالبًا إياه بالإبتعاد عن المكان.

رقد على ركبتية على الأرض ووضع المنشفة بالجردل وأخرجها مبللة بالماء وبدأ فى مسح البلاط. شعر بالخجل من نفسه، وبالغضب مما يحدث فراحت يده تنظف الأرض بعصبية وأنفاسه تتسارع وصدره يضيق بها. وحين رفع رأسه ليغير مكانه كانت أمه هناك فوق الفراش ترمقه بابتسامتها المخيفة وبعيون محترقة سوداء.

ارتجف فجاة ولم تقو قدميه التى يرتكز عليها على حمله فانزلق بظهره للخلف وسقط. وبينما راح الرعب يغزو وجهه، كانت ملابسه التى تلتصق بظهره تتشبع بالماء الذى يغمر البلاط. رمقه حكيم بقلق وهو يراه ينظر إلى فراشٍ خالٍ بعينين جاحظتين هلعتين، فسأله وهو يتراجع بتوتر:

-ماذا هناك؟.. ولماذا تحدق فى الفراش هكذا؟.

لكن عماد لم يسمعه وقد راحت أمه تهمس إليه بتلك اللغة الغريبة الغامضة.. وبينما تعالى صوتها المخيف، ظهرت حولها الشياطين الخفية بعيونها الحمراء المخيفة، فتداخلت الهمسات فى رأسه ثانية وبدأت حفلة الجنون مرة أخرى..

راح يصرخ فى أمه التى تتحرك نحوه وهو يمد ذراعية نحوها ليبعدها عنه، وهو يزحف بمؤخرته على البلاط:

-ما الذى تريدينه منى؟..ابتعدى عنى واصمتى؟..ابتعدى عنى !..

فتحت فمها على اتساعه فلم يرى إلا فجوة مظلمة كبئرٍ عميق، وارتفعت الهمسات والطرقات فى رأسه فصارت كآلاف الطبول.. أخذ عماد ينتفض على الأرض وقد أصابته نوبة صرع جديدة. هرع إليه حكيم مُراقِبًا وعيناه تدوران فى المكان بتوجس وقلق وقد شعر بالهواء الساخن الذى غمر العنبر فجأة، هنا هرول مغادرًا المكان واستدعى الدكتورة سحر التى هرعت نحو المكان. رأت البلل الذى يغمر ملابس عماد والشحوب الشديد الذى غزا وجهه ولاحظت أنفاسه الضعيفة الغير منتظمة، وانتبهت لبعض قطرات الدماء واللعاب التى التصقت بجانبى فمه. وضعت سماعتها على صدره واستمعت لأنفاسه ودقات قلبه الواهنة للحظات قبل أن ترفع رأسها نحو حكيم وتقول له:

-أمبول " كلوبيكسول اكوافيس " بسرعة. احقنه به الآن.

غادر حكيم المكان بسرعة لإحضار ما طلبت وعاد بعد دقيقتين به. ثم حقنه بسرعة, وقالت له الدكتورة سحر وهى ترمق عماد مُشفِقَة:

-حكيم. لا داعى لأن تجعله ينظف المكان كالأخرين, لا تفعل هذا ثانية, بَدِل ملابسه تلك بأخرى نظيفة وراقبه طوال الوقت. لو حدث شيئًا ما أخبرنى على الفور.

هزَّ رأسه موافقًا وقد عادت ابتسامته الأبدية إلى وجهه. كانت هى الأخرى تكره تلك الإبتسامة, لكنها لم تُعَقِب عليها, وأكملت :

-حين يفيق أخبرنى لنقوم بعمل رسم مخ له, ربما كان هناك خلل ما بكهرباء مُخه وربما كانت هناك بؤرة نشطة فى مخه, لا أريد أن نهمل أىَّ احتمال.

-كما تأمرين يا دكتورة.

وبعد ساعات خمس خضع عماد لرسم مخ. وضعوا أقطابًا كثيرة تنتهى بممصات على رأسه, وامتدت من تلك الأقطاب عشرات الأسلاك التى تداخلت وتشابكت ثم انتهت إلى جهاز عتيق خرجت منه أوراق مخططة عريضة عليها الكثير من المنحنيات والخطوط. التقطت الدكتورة سحر الأوراق بعد أن نزعتها من الجهاز وراحت تتأملها باهتمامٍ شديد, وتركيز تَحَوَلَ بعد دقائق قليلة إلى حيره هائلة فتنهدت بعمق.

كان رسم المخ طبيعيًا ولا أثر فيه لِمَرَضٍ ما, إذًا فمن أين تنشأ تلك الهلاوس والتشنجات العنيفة.

راحت تُفكِر وتبحث عن إجابةٍ ما بعقلها ولما عجزت قررت أن تستشير أساتذتها فى هذا, ربما علموا ما خفى عنها.

*****

(9)

بعد وقتٍ وجيز أدرك عماد أن المرضى من حوله ليسوا وحوشًا كما اعتقد وليسوا بلا عقل تمامًا كما ظن. إنهم بشر مثله, لكنهم يختلفون قليلًا أو كثيرًا عما اعتاده.

تعرَّفَ على الكثير منهم ورأى من حكايتهم أشياء لم يصدق يومًا أنها قد تحدث. كان يبتسم أحيانًا مما يفعلونه أو ما يقولونه, و حينًا آخر كان يبكى حزنًا لحالهم.

عالم أخر لم يعرفه من قبل, وأمراض وأعراض غريبة لم يُصَدِّق بوجودها قَط. كان الفصام سيد الأمراض وأكثرها انتشارًا فى المكان. عشرات المرضى حوله يتبدل حالهم وتفكيرهم وتصرفاتهم فى كل لحظة ولا يمكثون على حال واحد أبدًا. يرى بعضهم يتمتم بلا توقف بكلام غير مفهوم. ويرى البعض الأخر شاردًا دون أن يبدو عليه ما قد يشير إلى شعوره بأىَّ شىء حوله. بدوا وكأن عقولهم على بُعد أميال من المكان كله. كذلك كان هناك ذوو الأعراض الخطيرة الذين تنتابهم من حين لآخر نوبات مُدَمِرَة من الهياج والثورة. هؤلاء كان مصيرهم العنابر المعزولة والمهدئات إلى الأبد.

كان هناك الدكتور سعيد عبدالعليم بعزلته واكتئابه الأبدىّ. عجوز تخطى الستين من عمره, أشعث الشعر متغضن الملابس دومًا. فيما مضى كان أستاذا للغة العبرية بكلية آداب عين شمس. كان الرجل ناجحًا فى عمله وفى حياته كذلك. تزوج المرأة التى أحبها وأنجب ولدين شبًا وكَبُرا أمام عينيه يومًا بعد يوم يلاعبهم ويعلمهم الأبجديه ويغنى لهم ويزجرهم ويعاقبهم لو أخطأوا. كانت الحياة حلوة بالفعل, حتى حدثت الفاجعة منذ عشرين عامًا أو يزيد.

كان عائدًا بأسرته فى سيارته إلى القاهرة عبر الطريق الزراعى قادمًا من الإسكندرية حيث قضوا إجازة آخر العام فى شقتهم المُطِلَّة على شاطئ العجمى. وقبل أن يصل إلى بوابات القاهرة بعشرين كيلو مترًا

"لا توجد بوابة للقاهرة من الطريق الزراعى" ظهرت من العدم فجأة المقطورة الضخمة التى فقد قائدها التحكم بها حين أصابه النعاس. حاول بجنون أن ينحرف بسيارته بعيدًا عنها أو يتفاداها. لكنها لاحقته بإصرار قَدَرِى غريب حتى اصطدمت بمؤخرة سيارته لتنقلب سيارته مرارًا على الطريق قبل أن تكف عن جنونها. ماتت زوجته على الفور وكذلك ابنه الأكبر وقد تهشمت جمجمته، وأصيب الأصغر بغيبوبة استمرت لخمسة أيام قبل أن يلحق هو الآخر بأمه وأخيه، أما الدكتور سعيد فقد أصيب بكسور مضاعفة بالساقين، وشرخ بالعمود الفقرى،ونزيف بسيط بالمخ. برئ بعد حين من تلك الإصابات جميعًا، لكن إصابة عقله لم تبرأ. كان قد فقد عقله تمامًا مع من ذهبوا من أسرته، فصار يهذى طوال الوقت ويُحَدِّث أشباحًا خفية، يضحك حينًا ويصرخ أحيانًا أخرى بلا سبب، قبل أن يلازمه الإكتئاب لأوقات طويلة حتى يعتزل العالم أكمله فلا يكلم أحدًا ولا يأكل أو يشرب. صار من العسير على أسرته العناية به، فلم يكن هناك بُدّ من إيداعه مستشفى الأمراض العقلية. وهكذا صار نزيلًا دائمًا للمكان.

تَعَرَّف عماد كذلك على عم مدبولى. ذلك العجوز الذى يقترب حسيسًا من السبعين من عمره. كان لطيف الحديث غير مؤذٍ أو غريب فى أفعاله. فى الواقع لم يعد مريضًا منذ سنوات طويلة وقد تحولت إقامته فى المستشفى إلى مأوى له بعد أن فارق العالم أجمع، ولم يعد يذكر أحدًا ممن بالخارج. كان قد أتى إلى المكان منذ أعوامًا بعيدة لم يعد يذكرها. قال أنه ربما أتى بعد النكسة، ظل يردد أنه من طول مكوثه بالمكان صار يعتقد

أحيانًا أنه قد وُلِدَ ها هنا، وأنه لا يتذكر أىَّ شىء آخر بالخارج. كان قد عمل مدرسًا لبعض الوقت، حتى أصابته هلوسات غريبة. صار يرى أناسًا خفية يحدثونه، كما اعتقد أنهم يتحكمون بعقله. فراح يحارب أشباحًا خفية، حتى سئمه أهله فأرسلوه للمكان. ظلوا يزورنه بانتظام فى البداية، لكنهم انقطعوا عنه بعدها ولم يعد أحد منهم يذكره. نسوه فنسيهم، وغادروا ذاكرته وعالمه، فهجرهم، وصارت المستشفى هى وطنه الوحيد.

منذ أعوام حاولت المستشفى إخراجه منها، لأنه لم يعد مريضًا.. خرج منها بالفعل. لكنه امام العالم الغريب الذى نسيه، وجد نفسه تائهًا لا يدرى إلى أين يذهب ولمن يلجأ. كان قد نسى أين كان يقيم، وأين كان يعيش. فى النهاية وبعد أيام من اللف والدوران حول المكان، ساءت حالته واضطرب عقله، فمكث أمام باب المستشفى يستجدى الأطباء والممرضين وموظفى الأمن كى يسمحوا له بالعودة ثانية للمستشفى. راح يبكى بين أيديهم بل وارتمى يومًا تحت قدمى مدير المستشفى وراح يُقَبِّلُهَا كى يعيده الرجل للداخل.

فى النهاية أعادوه ثانية للداخل. لكنه فى المقابل كان عليه أن يقوم بالكثير من الأعمال، كى يتجنب سخافات الممرضين. كان ينظف الحمامات ويُلَبِّى طلبات المرضين، ويهذب حشائش الحديقة ويقلم أشجارها. ويُصلح أىَّ أعطال قد تطرأ فى المكان. كل هذا كان يفعله بحماسٍ وتفانٍ، خشيةَ أن يسئموا منه يومًا ما فيطردنه للخارج ثانية.

كان الرجل أكثر من أحبه عماد بالمكان، وصار يأنس إليه كثيرًا..

عرف كذلك ناصر صبحى. كان مهندسًا شابًا فى مثل عمره تقريبًا لكن حالته غريبة للغاية وطريفة. كان يرى أن كل من حوله هم شخص واحد فقط وأن ذلك الشخص يُبَدِّل هيئته وشكله من حين لآخر ليخدعه

ويطارده. اعتاد دومًا على العيش منعزلًا عن الجميع، وكان يصرخ لو اقترب منه شخصًا ما. أول مرة رآه فيها كانت حين مر ناصر بجواره. يومها توقف أمامه فجأة وراح يتفحصه بنظرة ارتياب، وقد بدا عليه التوتر قبل أن يصرخ في وجهه:

-هل تعتقد أنني لن أعرفك لو غيَّرت من ملامحك في كل مرة. أنت واهم. إنني أعرف جيدًا من تكون وماذا تريد! بل، ويمكنني أن أؤذيك لو واصلت محاولاتك الحمقاء هذه.

هنا حاول عماد أن يتحدث إليه ليفهم ما يعينيه، لكن الرجل كان قد جُنَّ تمامًا حينها، وراح يقاتله ويضربه مما دفع عماد لأن يدافع عن نفسه هو الأخر فتشاجر معه. فيما بعد وفي إحدى جلسات علاجه التي كانت الدكتورة سحر تجريها له سألها عما يعانيه أمجد فأخبرته بأمره.

كان يعاني من مرض نادر يدعى توهم فريجولي (Fregoli Delusion)، حيث يرجع تسميته للممثل الإيطالي ليوبولدو فريجولي (Leopoldo Fregoli)، الذي اشتُهر ببراعته في تغيير مظهره بسرعة أثناء تمثيله على خشبة المسرح. المريض هنا يرى الجميع شخصًا واحدًا، يُبَدِّل ملامحه دومًا ليضايقه ويتصلص عليه.

لم يكن أمجد هو أغرب الحالات التي قابلها. فهناك مثلًا عم زكي الذي يعتقد أنه المهدي المنتظر، وأنه على الجميع أن يتبعوه لينجدهم من براثن المسيخ الدجال الذي يراقبه ويحاول قتله. وراح يردد أن من وضعه بالمستشفى هي زوجته الكافرة التي لم تؤمن به، واتبعت المسيخ الدجال لتتخلص منه..

كانت هناك حكايات لا تنتهي وقصص لا تُصدَّق رآها وعاشها في المصحة. لكنه في النهاية أدرك أنهم هؤلاء المرضى لايخيفون أحدًا. بل هم في ذُعر دائم من الجميع.

لكن شخصًا واحدًا ظَلَّ يفكر فيه طوال الوقت متسائلًا ما حكايته؟!..

كان هذا هو (برعي) بنحوله ولحيته المهملة وجنونه.

لم يكف ذلك الرجل عن مراقبته وتحاشيه يومًا..وظل عماد يجاهد مرارًا حتى يتحدث إليه ولو مرة واحدة ليعرف حكايته لكن الرجل كان في استعداد دائم للهرب من أمامه.

*****

(10)

ظَلَّ بدوي على جلسته الأبدية وعُزلته الدائمة تحت شجرة البلوط بحديقة المستشفى يرقب العالم حينًا وترنو عينيه نحو الأفق أحيانًا أخرى. ودومًا كان يهمهم بكلمات غامضة، وهو يُحدِّث أشباحًا لايراها غيره. ظل هذا حاله لا يشعر بأحد ممن حوله حتى أتى عماد. هنا صار عماد قبلته التي يتبعها، تبحث عنه عيناه ولا تستقران حتى تعثران عليه، فتظلان معلقتان به بلا سأم أو ملل. حاول عماد مرارًا أن يُحَدِّثِ الرجل ليعرف لماذا يتتبعه هكذا وماذا يريد منه. لكن بدوي لم يترك له الفرصة، فكان دومًا يلوذ بالفرار من أمامه كأنما يهرب من شياطين الجحيم نفسها، فيظل مختفيًا لبرهة ولا يعود لمكانه إلا حين يطمئن أن عماد لم يعد يبحث عنه.

جرَّبَ عماد أن يسأل حكيم عنه يومًا، لكن الأخير اكتفى بابتسامته الباردة الساخرة قبل أن يقول باقتضاب :



-لا حكاية غريبة هنالك..أنه مجنون أخر ممن يعج بهم المكان, يختلق عشرات الهلاوس والخزعبلات فى كل لحظة دون أن يأبه به أحد. دعك من هراءه ولا تفكر فيه.

لم تروى تلك الإجابة الساخرة المقتضبة ظمأ عماد, فجرَّب أن يسأل الدكتورة سحر هذه المرة عنه..كان فى جلسة علاجية معها وسألها عنه فرفعت رأسها نحوه بدهشة قبل أن تقول مبتسمة وهى تخلع نظارتها عن أنفها:

-ولماذا تهتم به ؟..

-لست أنا من يفعل فى الواقع, إنه من يراقبنى طوال الوقت منذ البداية.

هنا بدا الإهتمام عليها وقالت:

-وهل هو الوحيد من يراقبك ويتابعك أم تشعر أن الأخرين يفعلون مثله.

أدرك مقصدها على الفور..ربما تخشى أن يكون هذا عَرَضًا آخر من أعراض مرضه المزعوم. وربما ظنت أنه مريض بجنون الإضطهاد ويعتقد أن الكل يراقبه ويترصده..لذا قال لها مُحتدًا:

-يا الله. بالله عليكِ يا دكتورة لاتُحَدِّثِينى هكذا. إنها ليست أوهام أو ضلالات. إنه بالفعل يراقبنى.

-ولماذا تعتقد أنه يفعل هذا؟

-وما أدرانى؟. ولهذا أسألك عنه كى أعلم لماذا يفعل.

اعتدلت على مقعدها وتركت الملف الذى كانت تطالعه, قبل أن تجيب سؤاله:

-حسنًا, سوف أخبرك. بدوى هو أحد المرضى القدامى هنا. أحد أشجار البلوط العتيقة بالمستشفى كما نسميهم. أتى إلى هنا منذ عقود, وزعم أنه يرى الجان والأشباح ويحدثهم. رأى أطباءه أن هذا نوع من ضلالات انفصام الشخصية وتم علاجه بكافة العقاقير الممكنة طبقا لهذا, بل وخضع كذلك للعديد من جلسات العلاج الكهربائى. لكن الغريب فى الأمر أن استجابته لعلاجه كانت غير مُرْضِيَةً طَوَال الوقت, فلم تنتهى تلك الأوهام من عقله, ولم نشهد تقدمًا, حتى شعرنا باليأس, فتركناه وشأنه.

قالتها قبل أن تتسع ابتسامتها, وهي تميل نحوه, وتكمل بصوتٍ غريب:

-ربما كان صادقًا فى ما يَدَّعِيه دون أن ندرى. من يعلم حقًا ما يدور بعقله, ربما كان يرى حقًا هؤلاء المخلوقات الغريبة, وربما ليس مريضًا بالمرة.

ارتجف جسد عماد وهو يتخيل أن يكون هذا الإفتراض صائبًا. هل يعنى هذا أنه يرى شيئًا ما لا يراه حوله ولا يشعر به. محادثته الغريبة له حين حَذَّرَهُ من قبل وأخبره أنهم وصلوا له فارتجف جسده وهمس:

- هل تعتقدين أنَّهُ ربما يكون صادقًا فى ادعائه هذا وربما يرى أشياءًا لا نراها؟

أطلقت ضحكة قصيرة حينها وعادت لتعتدل على المكتب وقالت ببساطة:

-إننى أمزح قطعًا ياعماد. فقط الرجل مصاب بخلل دائم فى عقله لا شفاء منه

لم تكن الإجابة كافية له. لكنه قرر حينها أن يتجاهل بدوى وألَّا يهتم به. ليراقبه أو ليدور حوله حتى كبندول الساعة. سيتركه وشأنه طالما لا يتعرض له.

لكن ما لا يعلمه الجميع هو حقيقة ما حدث مع بدوى. كان هذا قبل أكثر من أربعين عامًا. كان بدوى قد التحق بكلية الأداب فى ذلك الوقت. وكان يهوى القراءة كَدَيْدَن زملائه فى هذا الوقت. لكنه تَعَلَّق بشىء أخر غير القراءات الفلسفية والروايات. وجد نفسه يغرق فى كتب الخوارق والجان والشياطين وعوالمهم الغامضة المستترة. حدث هذا بفضل الشيخ حنفى الذى كان يقطن بالطابق السفلى من العمارة الذى كان يعيش فيها. لازَمَ الرجل وحضر معه الكثير من جلسات إخراج الجان، وهام بهذا العلم عشقًا، فصار يبحث عن الكتب القديمة التى تُعْنَى به. قرأ العديد من الكتب الثمينة مثل اللؤلؤ والمرجان فى تسخير ملوك الجان. وإغاثة المظلوم فى كشف خفايا العلوم. والجفر الجامع والنور اللامع. وصادفه الحظ فأهداه الشيخ حنفى مخطوطة أصليه لكتاب شمس المعارف الكبرى لأحمد بن على البونى. أخبره الشيخ أن ما بيده نسخة أصلية وكاملة للكتاب لم تنلها يد التحريف والحذف التى امتدت للكتاب عبر قرون من التداول.

قرأ بدوى الكتاب والتمعت فى رأسه فكرة لم يدرك عواقبها الوخيمة فى ذلك الوقت. فكر فى أن يجرب إحدى التعاويذ التى بالكتاب، واختار أن يقوم بتنفيذ طقس يتيح له رؤية الموتى والجان. قام بتنفيذ التعويذة ببراعة يحسده عليها أمهر السحرة، لينجلى أمام عينيه عالم من الفزع رأى فيه المردة والجان والشياطين وأرواح الموتى فذهب عقله، وأتى به أهله إلى المستشفى ليُعَالَج.. لكن العَطَب بعقله كان دائمًا، فلم يبرء منه ولكن احتفظ بقدرته على رؤية هذا العالم الخفىّ حتى الأن..

تجاهله عماد لفترة من الزمن، لكنه وفى أحد الأيام وقد كان يجلس على مقعد رخامى بحديقة المستشفى، وجده يرمقه بذهول ودهشة. شعر عماد حينها بالغضب وقد سئم تلك الملاحقات الغير مفهومة، ووجد نفسه يندفع

نحوه ليرى ما هناك. لن يتركه هذه المرة ولو حاول الفرار كما يفعل كل مرة فسوف يتبعه ولو ذهب للجحيم. لكن بدوى خالف ما توقعه هذه المرة فى أمرين. لم يفر من أمامه كما اعتاد أن يفعل من قبل. والأمر الغريب الأخر أنه بادره بالحديث فور أن اقترب عماد منه وعيناه تتحركان وتنظران للفراغ نظرات غريبة مريبة:

-إنهم يحيطون بك. إننى أراهم. انظر! ألا تشعر بهم؟!!

تبدد الغضب فى نفس عماد وعاوده الذهول والرهبة. فقال بصوتٍ مخنوق وهو يتلفت حوله بصورة تلقائية متوترة كأنما يبحث بعينيه عنهم:

-من هم الذين تراهم وماذا يريدون؟.

زاغت عينا بدوى وراحتا تتحركان فى كل مكان بجنون قبل أن يجيب هامسًا وهو يميل نحوه:

-هناك امرأة عجوز ميتة.لكنها تكرهك كثيرًا. أستطيع أن أرى هذا فى عينيها. هناك أيضًا الكثير من الشياطين. إنهم غاضبون جميعًا. إنهم يريدونك، و يحدثونك طوال الوقت، ألا تسمعهم؟!

كانت كلماته مخيفة يخالطها الجنون، وفكر عماد بهلع. هل تكون تلك المرأة العجوز هى أمه. أيكون الرجل على حق فى مزاعمه تلك، أم أنها هلوسات مجنونة يتوهمها عقلٌ تالف.. شعر بالإعياء فقال بضعف:

-أنا لا أسمع شيئًا. أخبرنى لو كنت تسمعهم ماذا يقولون؟..

وجاءت إجابة الرجل سريعة على الفور حملت الفزع إلى قلبه، وراح يردد بصوتٍ غريبٍ مألوف:



"redire magister dryadalum vel peribis.. redire magister dryadalum vel peribis"

وقعت الكلمات على أذنىَ عماد كالصاعقة وقد تعرفها على الفور. إنها نفس الكلمات الغامضة التى كانت ترددها الأصوات الهامسة على أذنيه..

redire magister dryadalum vel peribis.. redire magister dryadalum vel peribis

راح بدوى يرددها بلا توقف بصوتٍ رتيب مخيف وقد تجمدت عيناه. ومن بعيد أتت الهمسات فجأة تُرَدِّد مع بدوى الترانيم المخيفة. رأى أمه حينها تطوف حول الشجرة الواقف أسفلها. رأى الكثير من الكائنات الغريبة التى ظهرت من العدم وهى تحيط ببدوى وترتل معه التراتيل الشيطانية ككورال من الجحيم. ورغم أن تلك الكائنات الشيطانية كانت بلا وجه أو ملامح تميزها, لكنها كانت مفزعة.

ومن قلب الشجرة أتى. كان عملاق أسود اشتعلت عيناه وتوهجتا غضبًا وعلى جانبى رأسه انحنى قرناه. رمقه للحظة ثم مَدَّ ذراعيه نحوه وهو يقترب منه.

كان هذا فوق احتماله فراح يصرخ, ثم سقط جسده على الأرض وراح يتلوى قبل أن تأتية التشنجات. كانت عنيفة هذه المرة كما لم يحدث من قبل, وكانت طويلة حتى أن كل الأطباء الذين هرعوا لنجدته قد أدركوها قبل أن تنتهى. راحت عشرات العيون تراقب جسده المنتفض بحِيْرَة من يرى مثل هذه الإنتفاضات العنيفة للمرة الأولى. وانتظر الجميع طويلًا حتى هدأ جسده وهمدت حركته فتعاونوا على حمله. أمرهم الدكتور أحمد أن يذهبوا به الى حجرة العلاج بالصدمات الكهربائية. كان يشعر بالإعياء الرهيب فلم يدرك كثيرًا مما يحدث, لكنه شعر بنفسه مُقَيَّدًا على فراش ما

وحوله العديد من الأشخاص الذين يتحدثون بسرعة وعصبية. كان أحدهم يهتف قَلِقًا:

-ألا يجب أن ننتظر حتى يأتى طبيب التخدير

لكنَّ آخَرَ أجابه على الفور:

-لا ضرورة لهذا أنه فاقد لوعيه ولن يشعر بشىء. دعونا نبدأ.

هنا اشتعلت النيران بجسده وهو ينتفض مع الدفقة الأولى من التيار الكهربائى بل لقد اشتعلت روحه نفسها. من ذلك الأحمق الذى زعم أنه لا يشعر بشىء؟. ومع الصدمة الكهربائية الثانية ماتت حنجرته فلم يقو على إصدار أىَّ صوت منها احتجاجًا أو ألمًا. وجاءت الدفقة الثالثه لتُطَوِّح أمه خارج عقله. رآها ترحل عنه مبتسمة فى تَشَفٍ وكأنما تهرب من تلك الالام الرهيبة تاركة إياه لعذابه يقاسيه وحده. وجاءت الدفقة الأخيرة من التيار الكهربائى لتنتزع المارد الأسود نفسه من عقله, فرآه يفر مذعورًا كأنما تطرده الكهرباء, رأى الأنوار البيضاء الساطعة تظهر من بعيد, وتعالت عشرات الهمسات المريحة وهي تطالبه أن يلحق بها. أيكون هذا الموت؟!

لكن عقله غاب حينها فى غيبوبة عميقة قبل أن يحصل على الإجابة. غيبوبة استمرت أيامًا راح يخرج منها للحظات ليعود إليها ثانية كأنما يلوذ عقله بها من الألم والرعب. وبعد أسبوع كان قد تَحَسَّنَ كثيرًا وزال الكثير من التشوش عن عقله وإن ظل جسده يعانى من الالامًا مُبرِحَة.

وهنا علم ماحدث لبدوى. أخبره جمال بكل شىء حدث فى تلك الأيام التى قضاها فى غيبوبته حين جلب له الدواء. وكان ما حدث لذلك المسكين غريبًا مُخيفًا.



بدأ الأمر مع نوبته التى أصابته. حينها راح بدوى يعدو فى كل مكان كأنما يهرب من عَدُوٍ خَفِىَ. كان يصرخ بفزع مطالبًا الجميع بالنجدة من عدو خفى. لاحقه الكثيرون وبجهد هائل استطاعوا تقييده. كان مذعورًا ثائرًا كما لم يحدث له من قبل. فطلب الدكتور أحمد منهم أن يذهبوا به إلى حجرة الملاحظة وأن يحقنوه بالفاليم ليهدأ. فعلوا ما طلبه منهم واستمروا بجواره فى حجرة الملاحظة حتى نام. حينها قَيَّدُوهُ فى الفراش كى لا يؤذى نفسه لو أفاق فجأة ثم تركوه, لكن الصباح حَمَلَ لهم حَدَثًا مُفْزِعًا. دخل عليه أحد الممرضين, فوجده مُعَلَّقًا من رقبته فى حلقة معدنية بالسقف مُجَرَّدًا من ملابسه كلها وقد تحولت تلك الملابس إلى أنشوطة شنق بها نفسه. كان الأمر غامضًا عجيبًا يحمل معه الكثير من الألغاز المُبْهَمَة.

أولها كيف تخلص من قيوده وقد كان مربوطًا بها بإحكام, وكيف استطاع أن يصل إلى السقف المرتفع الذى يناهز الأمتار الأربعة ارتفاعًا, ولماذا كان جسده كله موسومًا بعلامات دامية محترقة كأنما وصمه أحد ما بالنار, ولماذا رُسم ذلك الرمز الغريب على صدره. ثعبان يلتف حول نفسه فى دائرة يتوسطها جمجمة بقرنين..

تذكر عماد ذلك الرمز الذى رآه من قبل على الجدار فى حجرة أمه قبل أن تموت. كان نفس الرمز الذى وصفه جمال له. ودار بعقله تساؤل مفزع. هل قتلت بدوى نفس الشياطين التى قتلت أمه؟!..

بعدها وحين وجد نفسه قادرًا على الحركة ثانية ذهب للشجرة التى عاش بدوى طوال عمره قابعًا أسفلها. لا يدرى ما الذى دعاه الى ذلك لكنه وجد نفسه يفعل. وهناك راح يفحص الشجرة فوقعت عيناه على النقوش المنحوتة على جذعها. كانت هناك امرأة طويلة الشعر وقد رسمها بدوى بعينين واسعتين تلتهمان أغلب وجهها.. كان هناك الكُثُر من الكائنات الضئيلة حولها وكان هناك المارد الطويل بالعينين المخيفتين. نقوش

مرعبة ذَكَّرته بما رآه من قبل فارتجف. لكن ما جَمَّدَ الدماء فى عروقه كانت الكلمات المنقوشة أسفل تلك الرسومات البسيطة. كانت مكتوبة بخط صغير وواضح..

أبحث عنه أو اهرب منه!! لكن إياك أن يَصِلَ إليك. إنه هنا من أجلك!

احتشد على جبهته حينها عرق كثير رغم برودة الطقس, وبدأ قلبه يدق بعنف توترًا وحيرة. أتكون تلك الرسالة موجهه إليه

كان يعلم الإجابه المخيفة. وظلت عيناه معلقة بالنقوش والكلمات لفترة طويلة.

*****

(11)

هل هو مريض حقا وهل يكون كل ما يحدث له ويراه هو جنون عقل مريض؟!

إنه السؤال الذى لا يفارقه ولا يعثر أبدًا على جواب له. كل أطباء المصحة يؤكدون أنه مريض ويحاولون أن يقنعوه بهذا. الام التى عانت من مس شيطانى لم تكن كذلك, لكنك أنت يا عماد من كان مريضًا بضلالات أوحت لك ذلك. ولدينا شهادة الدكتور محمد شاهين التي تدعم ذلك.

-ومن قتل الأم ؟..

-أنت من فعلتها. كل شئ يوحى بذلك. لقد كنت بمفردك معها فى الشقة حينها ولا احد غيرك بجوارها. كما أن التفسير الذى قدمته لموتها غير مقنع او مقبول.. كما أن السكين قد اخترق عنقها من الخلف, فى موضع من

المستحيل أن تكون هى من قتل نفسها, إذًا لا يتبقى أمامنا إلا الاحتمال الوحيد المقبول والمعقول. أنت من فعلت هذا.

-واذا كان هذا صحيحًا, فكيف لا أتذكر هذا؟!

- لا غرابة عندنا أن تقوم ببعض الأمور, دون أن تتذكر أنك فعلتها. إنه الإنفصام وضلالاته اللعينة, ولست أول واحد يحدث له هذا. انظر حولك وسترى أن جميع المرضى قد فعلوا أشياءًا كثيرة لا يتذكرون أو يصدقون أنهم قد فعلوها. إن ألاعيب العقل لا تنتهى, وحين يصير العقل مريضًا, يصبح اكثر جنونًا فى ألعابه. وهذا ليس كل شيء. فلدينا التفسير المقنع لما حدث. الذُهان اللحظى ! فحين تتعرض لمؤثرٍ ما, قد تفعل أشياءًا يُسقطها العقل من الذاكرة على الفور. ويصير من العسير استعادة تلك الذكريات ثانية, لذا قد يلجأ العقل الباطن إلى اختلاق قصة أخرى كى تملأ الفراغ الذى حدث بالذاكرة فى تلك الفترة التى لا تتذكرها.

-إذًا هذا يعنى أننى مريض نفسى حقًا؟.

-هذا ليس عيبًا ولا يدعو للخجل..كلنا قد يحدث له ذلك..انظر حولك فى المصحة وستجد المرضى من كل الفئات.. هناك الأطباء, وهناك أساتذة الجامعة وهناك المهندسين والمعلمين وغيرهم.. بل ولدينا فى هذه المستشفى طبيبان نفسيان فقدا عقلهما وكانا من قِبل طبيبين ها هنا..كلنا يا صديقى قد يمرض ولا حرج فى هذا أبدًا.

-وهل يعنى هذا أننى سوف أُشفى فى يومٍ ما؟..

- هذا ما سوف يحدث حتمًا, مادمت تدرك طبيعة مرضك وتتعاطى العقاقير المناسبة, وتطرح عنك أوهامك جانبًا, فحتمًا سوف تُشفَى..إنها مسألة وقت لا أكثر فلا تقلق.

-وهل قد أخرج من تلك المصحة يومًا ما؟..

-لو وجدنا أنك قد شُفيت تمامًا فسوف نخرجك على الفور.. صدقنى إننا لا نرغب فى إبقاءك هنا للأبد.

دار هذا الحديث بينه وبين الكثير من الأطباء عشرات المرات طوال الأعوام, التى تقترب من السبع, التى قضاها فى المصحة النفسية. كلهم كان يؤكد له أنه مريض وأن السبيل الوحيد لشفائه أن يقتنع بمرضه كى يبدأ عقله فى تميز الضلالات من الحقائق.

ومع هذا الكم من الآراء المتشابهة لم يعد أمام عماد الا أن يتقبل ما يؤكدونه. إنه مريض بالفصام بالفعل. وكل الذكريات التى بناها عقله حول أمه وحول موتها كان من اختلاق عقله الباطن حتمًا. بل وحتى تلك الحادثة المرعبه ل"بدوى", ذلك المريض النفسى الذى شهد نوبته الأعنف هنا فى المستشفى والذى مات بعدها تاركًا أثارًا لاتمحى على جذع الشجرة التى ظل عمرًا يقبع أسفلها, ربما تكون هذيانًا جماعيًا لعقليهما. هذا ما أكَدَته له الدكتورة سحر مرارًا حين ترى تشككه فى عينيه. إنهما مريضان بالضلالات ويران ما لا يراه غيرهما ويرقب كل منهما الآخر, وربما تَحدَثَا سويًا من قبل عن أوهامها فغرسا تلك الأوهام فى عقليهما وصارت ضلالات مشتركة بينهما..

لكن ماذا عن موته الذى ما زال لغزًا ؟. هنا راح الدكتور خالد يؤكد له أن هناك تفسيرًا ماديًا ما لما حدث. ربما فعلها أحد المرضى الآخرين فى غفلة من الممرضين والأمن..

إذًا هو فى دائرة تبدأ وتنتهى عند نقطة واحدة. إنه مريض نفسى, وعليه أن يقتنع بهذا ليبرأ من مرضه.

لم تغادره الهمسات تمامًا، ومن حين لآخر كان يرى شبح أمه حوله. حينها كان يصاب بالهياج ويأتى الصداع العنيف الذى قد يصل للتشنجات.. لكن العقاقير القوية التى كان يتناولها حدت كثيرًا من تلك النوبات فصارت تأتيه فى أوقات متباعدة، قد يفصلها عن بعضها البعض شهورًا طويلة..

مضت الأيام عليه طويلة رتيبة متشابهة.. وكان أكثر ما يزعجه فى المستشفى هو حكيم. ذلك الممرض البارد الذى يتلذذ بالتحكم فى المرضى وإيذائهم. ومع الوقت عُرِفَ عنه الكثير. إن المستشفى مجتمع صغير فى النهاية ولا شىء يمكن إخفاءه فيه للأبد. علم أن هناك من المرضى الأثرياء من يدفعون له الرشاوى والهدايا كى يَكُفَّ عنهم ويتركهم وشأنهم. وعلم كذلك أنه يتاجر مع باقى المرضى فى الكثير من الممنوعات.كان يبيع السجائر بأضعاف ثمنها، وكان يبيع الأقراص المُخَدِّرَة لمن يدفع، وسمع عماد بعض الإشاعات التى تتحدث عن أنه يجلب المخدرات كالهيروين للبعض مادام يدفع. هذه الإشاعة البشعة رددها البعض وأكَّدَهَا له عم مدبولى، لكنه لم يتيقن منها أبدًا.

كان يرى ما كان يفعله مع باقى المرضى الذين لا يمكنهم إعطاءه ما يرغب فيه من مال أو هؤلاء الذين لا يحتاجون ما يقدمه للآخرين من ممنوعات. هنا جعلهم يقومون بكل شىء، من تنظيف العنابر وغسيل الملابس وتنظيف الحديقة، وغيرها. لم يشعر يومًا عماد أن رجلًا كهذا يمتلك قلبًا فى جوفه، كان يرى أنه قد جُرِّدَ من مشاعر الشفقة كلها. وكيف لا يشعر عماد بهذا نحوه وهو يرى كيف يسىء معاملة الكثير من المرضى وخاصة كبار السن والذى تجاوز بعضهم العِقْد السادس أو السابع من عمره. كان من المعتاد أن يصفعهم على وجوهم أو يركلهم بقدمه على بطونهم ومؤخراتهم دون مراعاة لمرضهم أو سنهم وشيخوختهم لو أخطأوا أقل خطأ.

بالطبع لم يكن يفعل كل هذا بمفرده، فهناك جمال وباقى الممرضين الذين يأتمرون بأمره ولايعصون له أمرًا. إنه هنا كبيرهم الذى يدينون له بالولاء والطاعة. شعر عماد أن هؤلاء يُكَوِّنُون عصابة أو مافيا بالمستشفى وراح يتعجب كيف يتركهم الأطباء هكذا دون ردع.. طرح يومًا حيرته وتساؤلاته تلك على الدكتورة سحر التى أجابته بما أدهشه:

-لا أُخْفِى عليك سرًا لو أخبرتك أننا نعلم بالكثير من تلك التجاوزات.. لكن لا حيلة لنا فى الأمر، حتى لو جاء إلينا مريض ما وشكى أحد الممرضين. إنهم حينها يَتَّحِدُونَ سويًا ليُنْكِرُوا التهمة عن زميلهم، ودومًا هناك الحجة الجاهزة المُعَدَّة سابقًا. إنه مريض ويختلق تلك الشكوى. وحتى لو صَدَّقْنَا المريض وعاقبنا الممرض عقابًا ما، فلن يردعه هذا كما تظن. إن خصم يوم أو يومين أو حتى ثلاثة أيام من راتبهم لا قيمة له عندهم.

شعر بالعجز من كلماتها، هل هذا يعنى أن نترك المرضى هؤلاء فريسة لتحكمات هؤلاء الممرضون.. إن الصمت على جريمة كهذه هو مشاركة فى اقترافها. ووجد نفسه يطرح تساؤلًا أخرًا عليها:

-وماذا عن حكيم.. إنه من يُحَرِّك باقى الممرضين ها هنا، يمكنكم التخلص منه ونقله لمكانٍ آخر، وحتمًا سيُضعِف هذا الآخرين.

هنا ابتسمت فى وجهه مشفقة من تفكيره وأجابته:

-ليس الأمر بهذه البساطة التى تعتقدها، فحتى لو ذهب حكيم فسيكون هناك ألف حكيم غيره.. إنه سلوك وتعود يمارسه الكل. إن حكيم هنا لا يُمَثِّل إلا قمة الهرم الفاسد. الحائط الذى يتلقى الطعنات والضربات عن الآخرين. لكن الفساد فى نفوس الباقين هو الشىء العسير على الإقتلاع.. هل تظن أن تلك التصرفات كان حكيم من ابتدعها.. مُخْطِئٌ أنت لو اعتقدت هذا..من قبل كان هناك سلامة، وقبله كان هناك رفاعى

وغيرهم..كل هؤلاء دولة واحدة للفساد تتغير أسماهم لكن عقولهم ونفوسهم الفاسدة لا تتغير.

كلماتها تعنى أنه لا أمل، فصمت قهرًا وغيظًا. من حسن حظه أن حكيم أو أىٌ ممرض أخر لم يضايقة بصورة مباشرة. كان يرى فى أعينهم خوفًا ما مُبْهم منه.. هل رعاية الدكتورة سحر له هى السبب. كان هذا احتمالًا بعيدًا. ربما ماحدث مع بدوى من قبل هو السبب. إن قتله كان بشعًا غريبًا، فهل تراهم ربطوا ما حدث لبدوى به. كان هذا الإحتمال هو الأقرب لقبوله.. فى الواقع كان هذا من حسن حظه.

لكن المعاناة مع الأخرين لم تنقطع. ووصل الأمر الى التسبب فى مقتل أحدهم، وكان هذا عم مدبولى. صديقه العجوز الذى يؤنس وحدته فى المكان.. كان يطيع جميع الممرضين، وينفذ ما يطلبونه منه، رغم وهنه وشيخوخته وضعفه، ظنًا منه أن هذا ما يجعلهم يبقونه بالمستشفى ولا يطردونه للخارج.. لكنه فى النهاية سقط فريسة للمرض بغتة فارتفعت حرارة جسده وراح يسعل بعنف فرقد بالفراش. لكن حكيم لم يرحمه. وما أن لاحظ تحسن حالته قليلًا حتى طالبه بالقيام بما اعتاد عليه من تنظيف العنابر. لم يقوَ الرجل رغم مرضه على الرفض فنهض بوهن وراح يفعل ما أُمر به، وهو لا يقوى على رفع رأسه. سقط فى المياه التى كان يُنَظِّف بها بلاط العنابر مرارًا، فراح جسده ينتفض مرضًا.

وحين انتهى من تنظيف العنبر كان جسده هو الأخر قد انتهى..فقد وعيه فتعاون المرضى الأخرين على إرقاده على فراشه وكان عماد أحدهم..وقاموا بتغيير ملابسه وهم يلعنون حكيم الذى فعل به هذا فى أعماقهم.. فى المساء راح الجسد الضعيف الواهن ينتفض من الحرارة المرتفعة للغاية والتى تجاوزت الأربعين درجة حتمًا. وأتى الصباح حاملًا النهاية لرجل عاش عمره بالمستشفى ومات بسببه. ومات عم مدبولى.

جُنَّ جنون عماد حينها وقد رأى أن حكيم هو من تسبب فى موته.. وما أن رآه قادمًا حينها ليرى ماحدث حتى وثب عليه مُحَاوِلًا تمزيقه. لكن حكيم لم يكن ضعيفًا وفوجئ عماد بالضربات تأتيه من كل مكان، نحو كل جزء من جسده بيد حكيم وغيره من الممرضين الذين تألبوا ضده. شعر بالدماء الحارة اللاذعة فى فمه وأحس بالضربات التى تُزَلْزِل روحه. فى النهاية فقد وعيه وحين أفاق علم أنهم قد حبسوه فى غرفة منفردة لخطورة حالته كما ادَّعُوا. وكان آخر ما سمعه هو صوت حكيم يهمس فى أذنه فى قسوة:

-أنت رجل ميت يا أحمق. لا تنتظر أن تحيا طويلًا بعد الأن. لقد انتهى أمرك. هذا وعد منى!.

*****

(12)

أفاق فتمنى لو أنه لم يفعل. ليته ظل فى غفوته للأبد. كان الألم لا يُحتَمَل وكل ذرة من جسده تئن وتصرخ. شعر أن جفنيه يَزِنَانِ أطنانًا فلم يقدر على فتحهما، واحتاج لساعات أخرى كى يكتشف أن العين اليمنى يمكنها أن ترى بعض الضوء لكن اليسرى لم تفعل. كانت ذراعيه تؤلمانه بشدة وقد تحول قفصه الصدرى لأسياخ من اللهب تكويه. هل هَشَّمَ الأوغاد ضلوعه حين ضربوه؟.

شعر بالعجز، وهو يشعر بكرامته التى أُهدِرَت ورجولته التى استُبِيْحَت. تمنى لو كان ضَرْبَهُم هذا أفضى لموته. ربما لم يكن حينها ليشعر بالمرارة التى تلتصق بحلقه الأن. لكنه عاش. عاش لترتع مرارة العجز والهزيمة فى نفسه، ولتنمو بذور الكراهية والإنتقام فى نفسه.

لقد صار بينه وبين هؤلاء ثأر لن ينساه أبدًا. ويومًا ما سوف يحصل على ثأره.

بعد ساعات من الألم والإنتظار دخل عليه أحد ما. أراد أن يتكلم فأعجزه الإعياء فلاذ بصمته. لكن ذلك الشرير لم يتركه فراح يضغط بإصابعه على عظامه ربما ليُزيد من ألمه، فأفلتت صرخة ألم من فمه لم يقدر على كبتها. لحظات بعدها وأحس بطعم أقراص الدواء المُرَّة فى فمه فأراد أن يلفظها، لكن من دفع تلك الأقراص فى فمه لم يدعه يفعل، وضغط على صدره فصرخ ثانية، وسمع ذلك الغريب يهمس فى أذنه:

-ابتلِع دوائك أو احتمل هذا الألم للأبد.

كان الألم وحشًا شرسًا، لا قِبَلَ له به فابتلع الأقراص المُرَّة مُجبرًا ومرة أخرى تحدَّث إليه الغريب الذى لم يتبينه قبل أن يتركه:

- حكيم يُبلغك تحياته.

تمنى لو كان عقله صافيًا ليعلم من كان هذا، ولماذا هدده بحكيم.. لكن لحظات من الدُوار العنيف اكتنفته فجأة، بعدها زال الألم تمامًا، وذهب ثم لم يشعر بشىء.

فى اليوم التالى تكرر الأمر نفسه. يستيقظ من نومه ليصطدم بآلامه التى لا تُطَاق وتمر ساعات بطئية من الإنتظار قبل أن يأتى أحد ما ليعبث بعظامه فيطلق فى جسده ألسنة من لهب الألم. وبعدها ومع اللهاث والعرق يدفع ذلك الغريب الحبوب المرة نحو فمه مُرغِمًا إياه على تناولها ليخفت الألم بعد حين ويفقد وعيه.

وفى اليوم الثالث تحسنت قدرته على الرؤية بعينه اليمنى قليلًا، لكن الألم لم يخفت..ورأى من دخل عليه هذه المرة..دارت عينه نصف المفتوحة معه فلاحظ الأخير ذلك وقال ساخرًا:

-أرى أن إحدى عينيك قد عادت لتعمل.عليك أن تستمتع بهذا الآن يارجل فلن يدوم هذا طويلًا.

كان حكيم هو من يحدثه هذه المرة. حاول أن يدفعه ويبعد يده الممتدة بالدواء نحو فمه فلم يقدر، وبلا مبالاة دفع حكيم يده الممتدة، فجاء الألم رهيبًا. وابتلع الاقراص المرة رغمًا عنه وسمع حكيم يقول:

-لقد انتهيت أيها الأحمق. كان عليك أن تفكر جيدًا قبل أن تفكر فى الإعتداء علىَ.

خفت الألم وعاد الظلام ثانية. ثم تكرر الأمر لأيام طويلة. خفت الألم لكن ذهنه عاد مُشَوَّشًا ولم يعد بقادر على التفكير فى أيَ أمر. وفى اليوم الذى استطاع فيه ثانية الجلوس بمفرده على حافة الفراش عاودته الهمسات والرؤى المخيفة. عشرات العفاريت التى تحيط به ومئات الوحوش التى تبغى الفتك به والهمسات المخيفة التى تطارده. راح يصرخ فى جنون. وجاءه ممرض ما وحقنه بشىءٍ ما ذهب بوعيه، لكنه ما أن أفاق حتى عاودته الرؤى الرهيبة، راح يصرخ طلبًا للنجدة ليهرع إليه أحد الاطباء هذه المرة وطلب من الممرض الذى برفقته حقنه بمهدئٍ ما.. ثم يفقد وعيه ليفيق بعد ساعات إلى أوهامه التى حَيَّرَته وحيَّرَت أطبائه..

أعطوه المهدئات والمُنَوِّمَات لتصير حياته رتيبة، يفيق ليرى تلك الهلاوس فيتناول دوائه ليفقد وعيه لساعات ثم يتكرر الأمر.

لم تشعر الدكتورة سحر بالراحة مما يحدث..هناك أمرٌ ما لا تفسير له فى حالة عماد. لماذا تدهورت حالته هكذا! ولماذا لم يعد يستجيب لعلاجه

كالسابق. لاح لعقلها هاجسٌ ما فذهبت إليه. كان فى غيبوبته حينها فدفعت مِحقَنًا جلبته معها فى وريده وسحبت بعض دمائه ثم ذهبت للمعمل. طالبتهم هناك بفحص نسبة العقاقير فى تلك الدماء، وحين ظهرت نتيجة الفحص، علمت الحقيقة المريبة. كان دمائه مشبعة عن أخرها بالعقاقير المخدرة التى تسببت هلوسات. كان هذا يعنى أن الممرضين يتعمدون إعطائه تلك الأدوية لدفعه للجنون..

أخبرت الجميع وتم التحقيق مع جميع الممرضين والأطباء المسئولين عن عماد وانتهى الأمر إلى تغيير الممرضين المسئولين عن عماد بآخرين أكثر ثقة.. كان مؤسفًا أن التحقيق لم ينجح فى ضبط الفاعل الحقيقى بين الممرضين وإن كان الجميع علم من يكون.

تحسن عماد هذه المرة.. وحين عاد لصحته ثانية وعلم ماحدث له.. علم ما فعله حكيم معه وكيف كاد يدفعه لجنونٍ لا شفاء منه.. وكأنَّ ثأرًا أخر نما بينهما فَعَلِمَ انه لن يتركه وشأنه أبدًا بعد كل ما فعله..

مضت أيامه بعدها هادئة كمستنقع يحوى ماءًا راكدًا.

لم ينسى ولن ينسى أبدًا ما حدث له من حكيم وما فعله مع عم مدبولى..

يومًا ما سيخرج من المستشفى وسوف يبحث عنه لينتقم..

يومًا ما سيفعل..

كان متأكدًا من هذا..

الفصل الثالث
الشيخ الأسود
(قبل 100 عام)

(1)

ازدحم بهو القصر الفخم بالحضور. ارتفعت الضحكات وانتشر المرح. وقُرِعَت الكؤوس فى بعضها أملًا فى صحة تدوم، وتبادلوا الإنحناءات فى تحيات حارة أو باردة. تنحى البعض ليتحدثوا حديثًا سريًا، يدرك الكل أنه لن يخرج عن توقع الخطوة التالية للإنجليز بعد أن أصدر الخديوى عباس حلمى الثانى، عفوه عن 9 من المتهمين فى حادثة دنشواى الشهيرة المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة. لن يُرضِى الأمر الإنجليز وكل الإحتمالات بعد ما فعله صارت ممكنة..

إنه بداية العام 1908..

وكان الحدث حفلة صاخبة أخرى فى قصر إسماعيل باشا مراد عبدالشكور! كان إسماعيل باشا رجلًا مختلفًا عن أهل زمانه. كان رجلًا عصريَّ الثقافة، أوروبى النشأة والتفكير، كما كان يهوى الغموض والمفاجآت ويتقن تنفيذها. وكانت حفلة اليوم مختلفة. فاليوم هناك المُغَنِّى الشهير الذى ستنتهى به السهرة "عبده الحامولى"، وهناك أيضًا الفاتنة الشامية التى سترقص بين الحضور فى هذا الحفل لتسلب لُبَّهم بحلاوتها ورشاقتها. وفى النهاية هناك مفاجأة أعدها لضيوفه ولم يُفصِح عنها.

مالت على أذنه إحدى الفاتنات المُتبرِّجَات، وقد ارتدت فستانًا لبنيًا طويلًا بلا أكمام وهمست بدلال:

-ألم يحن الوقت لتُفصِحَ لى عن مفاجأة الليلة يا إسماعيل باشا، أم مازال الأمرُ سِرًّا؟

لكنه رد عليها برقة وغموض دون أن تفارق ابتسامته شفتيه:

-لا أسرار حتمًا بين الأصدقاء يا جولنار هانم..لكن المفاجأة تفسد حتمًا لو كُشِفَت قبل حينها، ألا توافقيننى على ذلك؟...

ثم تحرك نحو ضيف جديد وهو يهز رأسه وعينيه بتحيات مقتضبة للحضور من حوله وعيناه تنتقل للساعة الضخمة فى صدر البهو.. بعد خمس عشرة دقيقة سينتصف الليل ليُلقى على الحضور مفاجآته التى يعلم أنها ستبهرهم كثيرًا وستصبح حديث المجالس طويلًا..

الموسيقى العذبة الهادئة تصدح فى المكان وبعض الحضور من الأزواج والعشاق كانوا قد ذابوا فى رقصات حالمة هامسة، وفى ركنٍ قصيٍّ من الصالة توقف شاب وسيم يُحَدِّث زميلًا أخر وعيناه مُعَلَّقَةٌ بالفاتنات، يرمقهن بعينين جائعتين، وحتى اقترب منه أحد الخدم بلباسه الطويل المخطط الشهير، وهمس فى أذنه بكلمات زادت وجهه احتقانًا فوق احتقان الخمر الذى احتسى الكثير منه، وهو يُسَلِّمَهُ قُصَاصَة صغيرة، طالع الشاب ما بها على عجل، ثم التفت الى إحداهن وكانت ترمقه بإعجاب، فحيَّاهَا بهزة رقيقة من رأسه قبل أن يستأذن صاحبه، ويسبقها إلى الشرفة تسبقه أمنيات غير بريئة.

لكن كل هذا توقف فجأة حين أعلنت الساعة الضخمة فى منتصف بهو القصر منتصف الليل بدقات قوية. هنا تحولت العيون كلها لإسماعيل باشا. عَدَّلَ الرجل من بذلته ال(سموكينج) السوداء، ورسم على شفتيه أكبر ابتسامة ممكنه، وتحرك نحو منتصف البهو تمامًا حيث قبعت الفرقة الموسيقية خلفه وقد توقفت عن عزفها، واستعد لأن يتحدث إلى ضيوفه حين لوَّحَ أحدهم نحوه بذراع مُتَرَنِّح تحمل كأس خمرٍ فارغ:

-إذًا فهذا وقت مفاجأتك يا باشا؟!.

-إننى هنا لأقدمها لكم جميعًا يافوزى بك..



وصمت للحظة ليجذب انتباه الجميع قبل أن يعاود حديثه.

-أعلم أن الكل يترقب هذه المفاجأة التى أعلنتُ عنها فى دعوات حفل الليلة, ووصلنى أن البعض يهمس أنها فرقة بيلشوى روسية, واعتقد البعض الأخر أنها تلك الراقصة الشامية الصغيرة التى لا أذكر اسمها الأن.. فى الواقع يؤسفنى للغاية أن أُخَيِّب ظن من اعتقد كل هذا.. فالمفاجأة هذه الليلة مختلفة تمامًا. وأعتقد جازمًا أنها ستروق للكثيرين منكم..

قاطعته هذه المرة امرأة مُتَصَابِيَة فى العِقْد الخامس من عمرها ترتدى فستانًا بلا أكمام قصير كشف عن الكثير من جسدها, وقد لَطَّخَت وجهها بأصباغ ثقيلة رممت ملاحة قديمة فى وجهها, وبدت مُتَرَنِّحَة للغاية من سُكرها, وهى تهتف بنزق:

-ربما حضرت ملكة بريطانيا لتشاركنا الحفلة, دعونا نشرب نخب الملكة يارفاق.

ضجَّ الحضور بالضحك, وانتظر الرجل لحظات حتى يهدأ الحضور قبل أن يُكمِل بصوتٍ ينضح إثارة وتشويقًا:

-ما رأيكم أيها السيدات والسادة فى السحر والسحرة. هل يؤمن أحدكم بتلك الأمور, وهل تعتقدون فى وجود سحرة حقيقين؟..

أجابه أحد الوزراء فى تلك اللحظة مُحَاوِلًا أن يبدو ردُّهُ خفيف الظل:

-إنها ألعاب حواة يا إسماعيل باشا. خداع وخفة يَدَ لا أكثر.

-هذا حق يا دولة الباشا, لو كنا نتكلم عن حواة فى السيرك. لكنى اتحدث عن السحر الحقيقى. أتحدث عن أناس قادرين على فعل الخوارق وتغيير طبائع الأشياء. يؤسفنى مما أراه على وجوهكم أن أعتقد أننى الوحيد ها هنا الذى يعتقد فى وجودهم.

تعالت الهمهمات المرتفعة المتداخلة للحظات,قبل أن يقول من بين الجمع أحدهم:

-وهل للسحر والسحرة صلة ما بمفاجأة الليلة؟..

-صلة وثيقه للغاية, لكن فى البداية هل سمع أحدكم عن "اليستر كروالى" من قبل؟..

تبادل الحضور النظرات والهمهمات ثانية. بدا البعض وكأنهم لم يسمعوا بهذا الإسم من قبل وبدا على وجه البعض الأخر أنه يعلمه وقال أحد هؤلاء له:

-أعتقد أنك تتحدث عن الساحر الإنجليزى العظيم. إنه أشهر السحرة فى هذا العصر يا إسماعيل باشا.

-رائع أن يعلمه البعض, ولكن دعونى أخبر الأخرين الذين لم يسمعوا أىَّ شىء عنه.

قالها وتحرك حركات مسرحية اعتادها وقال بصوتٍ خفيض مؤثِّر:

-إن الجزء الأول من مفاجأتى أيها السيدات والسادة هو هذا الساحر العظيم الذى لَبَّى دعوتى الليلة وحضر إلى قصرى المتواضع كى يُبهر الحضور بما يقدمه. إنه أشهر السحرة الحقيقين. إننى أحذركم أن تبخسوا حقه, فما يقوم به ليس أبدًا ألعاب هواة وليس خِفَّة يد وخداع. إن الأمور التى يقوم بها حقيقية تمامًا. لقد أبهر العالم كله بسحره وحان الوقت ليبهرنا بما يقوم به السيدات والسادة, دعونى أخبركم أن هذا ليس كل شىء هذه الليلة. لقد وصلنى خبر شيخ أزهرى محترم سمعت أنه يقوم بالأعاجيب هو الأخر. ولقد قَبِلَ هذا الشيخ الفاضل أن يأتى الليلة ليتحدى أشهر السحرة فى العالم فى قصرى المتواضع, ولهذا أتوقع أن

نشهد الليلة صراعًا فريد لم يره أحد من قبل. الساحر الإنجليزى العظيم فى مواجهه عجائب الشيخ الأزهرى، فلمن الغلبة؟. هذا ما سنعلمه جميعًا فى نهاية هذه الليلة المشهودة.

وصمت وقد ارتفع الصخب والجدال بين ضيوفه، وجالت عيناه بينهم، وبعد دقيقة عاد ليتحدث بلهجة مسرحية:

-السيدات والسادة. دعونى فى البداية أُقَدِّمُ لكم ساحرنا العظيم. اليستر كراولى.

ومن أحد الرُدهَات الجانبية خرج الرجل. شَقَّ طريقه بين الحضور وابتسامة ثقة تزين وجهه. أفسح الجميع له وهم يرقبون ملامحه الحادة وشاربه الطويل الغريب، ورأسه الحليق تمامًا ونظراته الشيطانية الحادة. كان يرتدى حُلَّةً أنيقة ذات لون رمادى وقد ارتدى فى يديه قفازًا أسودًا طويلًا. تحرك نحو منتصف البهو الضخم حيث إسماعيل باشا الذى صافحه بحرارة قبل أن يتوقف إلى جواره للحظة وعيناه تتحرك بين الحشد ثم انحنى لهم انحناءة خفيفة مُحَيِّيًا. ران الصمت والترقب على المكان للحظة وشعر الكثيرون بعدم الراحة. كانوا محقين تمامًا فالرجل يبعث بوجوده إحساسًا خَفِيًا بعدم الراحة. وبعد لحظات عاد إسماعيل باشا ليتحدث :

-والآن دعونى أقدم لكم الشيخ عبدالله المنياوى ضيفنا الآخر فى هذه الليلة.

تحولت العيون إلى الناحية الأخرى حيث خرج من الممر المقابل شيخ أزهرى يرتدى الكولة والعمامة الأزهرية التقليدية. تحرك هو الآخر بهدوء بين الحشود وقد خفض رأسه قليلًا حتى توقف بجوار إسماعيل باشا الذى حيَّاهُ هو الآخر بحرارة وتسمَّرَت أعين الحضور جميعًا بين الرجلين.

كانت ابتسامة استخفاف تُفْصِحُ عن نفسها بقوة على وجه كروالى وكأنما لا يُبَالى بمُتَحَدِّيه. وفى المقابل بدا وجه الرجل هادئًا بلا أىَ انفعال عليه، قبل أن يفاجئهم الشيخ متحدثًا بإنجليزية سليمة أدهشتهم:

-اسمحوا لى أن أتحدث بالإنجليزيه كى يعى السيد كروالى كلماتى وقد علمت أنه لا يفهم العربية. إننى أريد أن أخبره أن مايقوم به هو درب من دروب السحر الأسود اعتدنا هنا أن نحاربه. لقد سمعت كثيرًا عما يقوم به، ولهذا أتيت اليوم إلى هنا لأدحض ما يقوم به.

لم يصبر كروالى على ما قاله فأجاب من فوره بحدة:

-أتمنى أن يحتفظ الشيخ بأرائه حتى نهاية اليوم. أعتقد أنه سيكون أكثركم انبهارًا حين يرى ما يمكننى أن أفعله.

عادت الهمهمات ثانية والعيون تنتقل بين الرجلين وبدأت المراهنات السرية بين الحضور، وبعد لحظات انتهت المراهنات وقد صُبَّت أغلبها فى ناحية كروالى. أفسح بعدها إسماعيل باشا المكان للإثنين قبل أن يشير الشيخ عبدالله لكراولى وهو ينتحى هو الآخر جانبًا أن يبدأ..

توقف كروالى فى منتصف المكان وأشار لبعض معاونية الذين ظهروا من بين الحضور. أطفأ أحدهم أضواء القصر جميعًا إلا من كشافٍ وحيدٍ أضاء منتصف البهو حيث وقف كروالى. وقال الرجل وهو يُلَوِّحُ بيديه فى الهواء بحركاتٍ غريبة:

-هل تعلمون أن أجدادكم كانوا دومًا أعظم السحرة فى التاريخ. لقد امتلك كهنة أمون ورع وتحتوت حكمة القدماء وورثوا فنونهم المذهلة وقواهم السحرية الغامضة وسادوا بها العالم أجمع.. إن تاريخ الفراعنة فى الحقيقية هو تاريخ السحر. أقول هذا قبل أن أُقَدِّمَ لكم فى البداية أمرًا بسيطًا، أتقنه كهنة أمون فى القِدَم..تحدى الجاذبية والإرتفاع فى الهواء.

وأغمض عينيه وبدأ يتمتم بصوتٍ خافت كلمات غامضة. واحتقن وجهه بشدة قبل أن يبدأ جسده فى الإرتفاع عن الأرض. شهق البعض دهشة، وحبس البعض أنفاسه من الإثارة، وقالت آنسة جميلة وهى تُخفى فمها بكف يدها الصغير:

-رباه. إنه يطير.

ظل الرجل على وضعه هذا لدقيقة قبل أن يهبط ثانية نحو الأرض على قدميه، ثم يفتح عينيه وقد امتلات جبهته بالعرق، وقال بثقة:

-كما ترون لا خدعة هناك فى مافعلته، لقد طرت فى الهواء كما شاهدتم جميعًا، فما رأى شيخنا فى هذا؟

لم يُجِبْه الشيخ عبدالله، واكتفى بالتقدم نحو منتصف القاعة وقال بهدوء:

-أضيئوا الأنوار.

عادت الأضواء لتضىء المكان ثانية، وجلس الشيخ على الأرض مُتَرَبِّعًا ثم صاح بقوة:

-بسم الله القوى القادر صاحب الهبات السخية والمنح الجلية والقدرات الخفية البهية. بسم الله

ثم خفض من صوته وهمهم بعدها بكلمات مبهمة، قبل أن يرتفع جسده عن الأرض. لم يرتفع ارتفاعًا قليلًا كما فعل كروالى. بل ارتفع لمترٍ كاملٍ وهو فى كامل وعيه، ودون أن يبدو على وجهه أىَّ أثرٍ لمجهودٍ ما. ظل هكذا لدقيقتين والعيون مُعَلَّقَة به بإثارة، وهو يدور برأسه بينهم قبل أن ينخفض ثانية.

ضَجَّت القاعة بالتصفيق وهى لا تُصَدِّق ما فعله الشيخ، واتسعت ابتسامة إسماعيل باشا إعجابًا بالشيخ الهادئ، وبدا التوتر على وجه كروالى الذى قال بعد أن توقف التصفيق:

-أعترف أن الشيخ عبدالله قد قَدَّمَ عرضًا مُبهِرًا لم أره من قبل..لكننى لم أُخرج إلا القليل من جُعبتى المليئة بالكثير.

وتأخر الشيخ ثانية ليُفسح له المكان فأشار كروالى لمساعدية فهرع إليه أحدهم حاملًا سيفًا طويلًا وتعاون آخرين على جلب منضدة خشبية وضعاها أمامه..عاد كروالى ليبتسم وقال:

-والآن أخبرونى..هل يعتقد أحدكم أننى لو قمت ببتر مِعصَمِى هذا سيعود ثانية إلى مكانه.

صرخت إحدى الحضور فزعًا وهى لا تتخيل ما هو مُقدِم عليه، فنظر نحوها وابتسم مُطَمْئِنًا، ثم وضع يده اليسرى فوق المنضدة الخشبية وأشار لمساعده الذى يحمل السيف فتقدم نحوه بلا تردد وفوجئ الجميع بالسيف يهوى على كفه فيبتره:

تعالت الشهقات والصرخات، وفقدت إحدى السيدات وعيها من هول ماتراه..وبينما انحنى نحوها البعض ليرعاها، راح الآخرون ينظرون بتوتر لليد التى بُتِرَ كَفُّهَا وراح الدم ينهمر منها بغزارة، والرجل مازال فى مكانه منتصبًا باسمًا لا يبدو عليه أىَ ألم أو تأثر بما حدث لِيَدِه، بل راح يُحَرِّكُهَا أمامهم كأنَّمَا يُرِيهم أن الأمر حقيقى بلا خداع..

بعد لحظات انحنى مساعده والتقط اليد المبتورة ووضعها على المنضدة التى اقترب منها كروالى وقَرَّبَ ذراعه المصابة من الكف وضع المساعد ملاءة سوداء عليهما وغَطَّاهُمَا..وسمع الجميع كروالى يقول :

-والأن دعونا نرى ما الذى يحدث.. هل تعود اليد المبتورة لمكانها؟.. هل تنتظرون أن يحدث هذا؟..

وبدت حركات عنيفة من أسفل الملاءة السوداء ومضت لحظات من الترقب قبل أن يُخرج كروالى يده ببطء من أسفل الملاءة..كانت سليمة تمامًا من غير سوء..

كان هذا مُبهرًا كأقصى ما يكون، وضَجَّت القاعة بالتصفيق الذى استمر لدقائق طويلة وكروالى يتابعها بثقة ومن حين لأخر ينظر باستخفاف نحو الشيخ عبدالله الذى تابع ما جرى محتفظًا بهدوءه، وحين كَفَّت الأيدى عن التصفيق تحرك مرة آخرى نحو منتصف القاعة فأفسح كروالى له المكان. لم يتحدث الشيخ، بل اعتلى الطاولة الخشبية التى أحضرها مساعدى كروالى والتى عادت نظيفة بلا دماء بصورة عجيبة،فجلس فوقها ومدد قدميه قبل أن يشير لمساعد كروالى الذى يحمل السيف أن يهوى به على قدميه..

توتر الرجل وزاغت عيناه للحظة وهو لا يدرى ما عليه أن يفعله.. لكن كراولى هَزَّ رأسه له أن يفعل..فتحرك بتردد نجو الطاولة ورفع سيفه عاليًا ورمق الشيخ نظرة أخيرة كأنما يستيقن منه، إن كان يرغب فى الإستمرار أم لا، لكن الشيخ ابتسم فى وجهه مُطَمْئِنًا فهوى السيف الحاد على القدمين فبترهما..

هوت القدمين على الأرض ومعهما هوت المزيد من الأجساد المُغشى عليها من الفزع، وتابع الباقون ما يجرى بذُعر حقيقى.. هذه المرة لم يكن هناك نقطة دم واحدة..لم يكن هناك انتفاضات عنيفة للقدمين المبتورتين، واحتفظ الشيخ عبدالله بابتسامته على وجهه كأنما لم يقم بأمرٍ مخيف..

ترك الجميع لذهولهم وحيرتهم وأعينهم تنتقل بين القدمين المبتورتين الملقاة على الأرض، وبين الرجل الجالس على الطاولة بهدوء، وبعد دقيقة أشار للقدمين بسبابته.. هنا دبت فيهما الحياة فتحركتا زحفًا نحوه ثم ارتفعتا من فوق الارض وذهبت كل قدم مبتورة نحو منشأها.. أحاط الرجل كل قدم بكفه للحظة وحين رفع كفيه كانت كل قدم قد عادت لمكانها كما كانت من قبل..

لم يصدق الحضور مايرونه والشيخ يهبط الطاولة ليقف على قدميه سليمًا مُعَافى، رمقوه بحِيْرَة وخوف ودهشة وإعجاب..وكان كروالى أول من تحدث مُعْتَرِفًا بهزيمته أمام الرجل:

-من أنت أيها الرجل..أخبرنى أنك لست الشيطان نفسه

فأجابه الشيخ ببساطة:

-إننى الشيخ عبدالله المنياوى..ظننتك تعلم هذا من قبل.. إننى لست الشيطان بالتأكيد. فأنت أدرى منى من يكون الشيطان.

*****

(2)

عاد إلى بيته قرب الفجر، لم يجد الفخر مدخلا لفؤاده ولا تسرب الغرور إلى نفسه. ما قام به كان بعون الله وحده وفضله، ومنذ آتاه الله هذه النعمة وقد داوم على إفادة خلق الله منها ومحاربة حبائل الشياطين وأتباعهم بها.. طالما حارب الدجالين والأفاقين، ومُدَّعِى العلم، والسحرة والمشعوذين. حارب كل هؤلاء ودحضهم جميعًا، وها هو اليوم قد غلب أحدهم مرة أخرى..



نعم كان كروالى ساحر قوى، وقد تأكد اليوم أنه يمارس أقوى فنون السحر الأسود، لكنه لم يبالى. فما بجعبته لايعلمه أحد غيره، وقواه التى منحه الله إياها، بمعرفته سر الكلمات وطُرُق الإتصال بالجان، قد مَهَّدَت له طريق القوة التى لا يدرك مداها إلا القليل. أبهر الحضور بما فعله،لكن تلك لم تكن غايته أبدًا حين أتى. لقد أتى من أجل كروالى. من أجل معرفة مقدار ما وصل إليه الرجل من علم وقوة واتصال بالشياطين، وبالرغم من أنه قد فاقه اليوم إلا أن القلق لم يُغادره. الرجل بالفعل على اتصال بشياطين الظلام، ومازال صغيرًا، لم يتعد الثلاثين من عمره، ولو استمر فى سعيه الحثيث لاكتساب المزيد من القوة فسوف يصل حتمًا إلى ما يصبو إليه، وربما صار يومًا أقوى رجل فى العالم. وهذا ما يجب على من على شاكلته أن يمنعوا حدوثه.

وأمام باب شقته رأى الجسد الراقد فى الظلام، انقبضت عضلات عينيه محاولة تَبيُّنَهُ فلم يُفلِح، فتحرك رأسه لليسار حيث همس بحديث خفى لمخلوق خفى يلازمه كظله، ولايفارقه أبدًا:

-من هذا؟..

-إنه بشرى يا مولانا.

شعر بالحيرة، فتقدم نحو الجسد الراقد أمامه نائمًا، وانحنى نحوه متفحصًا..لم يتعرفه، فهزه برفق فندَّت عن الجسد النحيل همهمة خفيفة قبل أن ينتبه الرجل. فتح عينيه فلمَّا اصطدمت بوجه الشيخ الهادئ اتسعتا عن أخرهما، وبحث مُتَعَجِّلًا عن كف الشيخ، وبلهفة أمسكها وقَبَّلَهَا وهو يهتف:

-مولانا الشيخ عبد الله المنياوى.إننى هنا منذ الصباح أنتظرك..

-من أنت يا بنى.. ولماذا تنتظر؟..

-أنا عبدالتواب المنياوى، ابن الحاج عبدالقوى المنياوى..أحد أقربائك فى كوم الدكة. بلدتك يا مولانا.

مضت لحظات قبل أن يتذكر الأب، فترحم عليه بصوتٍ مرتفع، وفتح باب شقته وتوقف عند الباب وعيناه تخترقان ظلام الشقة كأنما تبحثان عن عدوٍ خفىّ وهو يتمتم بكلمات خفية ولم يتقدم إلا حين سمع صوت الجِنِّىِّ الذى يرافقه وهو يقول مُطَمْئِنًا:

-لا أحد هنالك يا مولانا. المكان آمن.

هنا تقدم لداخل بيته وأضاء مصباحًا زيتيًا وهو يقول لضيفه:

-ادخل يا بنى واجلس فى مكانٍ ما.. أخبرنى هل أنت جائع؟.

-جائع للقائك وعلمك يا مولانا

وعلى ضوء المكان تأمله. كان شابًا ضئيل الجسد. رَثّ الثياب بادى الضعف والوهن. كان شعره طويلًا مُبَعْثَرًا، وكانت رائحته غير طيبة. كان كل شىء فيه يصرخ بفقره وضعفه، فشعر الشيخ بالشفقة نحوه. لكن رفيقه الجِنِّىّ همس فى أذنه:

-سله يا مولانا عن حاجته. هناك ما يخفيه.

فقال الشيخ الكهل بتؤدة له:

-وما هى حاجتك التى تنتظرى من أجلها منذ الصباح؟.

خفض الرجل من صوته ورأسه وهو يجيب:

-علمك ياومولانا وقدراتك. اسقنى من نهلك يا مولانا وعلمنى، كما عَلَّمَ الخضر موسى.



-أىّ علمٍ تطلبه يا بنى. هل تسألنى العلوم الشرعية.

قالها الشيخ بحذر والجِنّى لا يَكُفّ عن الهمس فى أذنه مُحَذِّرًا..لكن الشاب أجاب وعينينه تبرقان للمرة الاولى:

-بل علم الغيب والكلمات يا شيخنا..لاحديث بالبلدة إلا عن كراماتك ومعجزاتك فجئتك طالبًا بعضًا من فيضك هذا.

صمت الشيخ ولم يُعقِّب. وبالرغم من هيئة الرجل الفقيرة وضعفة لكن عينيه حملتا فى لحظة ما قوة لا حدود لها. وشعر أن ذلك الشاب يُخفى تحت رداء ضعفه وعجزه هذا مخلوقًا آخرًا. مخلوق يبحث عن منفذ يتغلب به على ضعفه وقلة حيلته. وبعد لحظات تكلم ثانية:

-وماذا ستفعل بعلمى لو حُزْتَهُ يا بنى.. هل فكرت بالأمر؟.

أجابه عبدالقوى على الفور:

-سأساعد الضعيف والمحتاج وأشُدُّ من أزرِ الفقير. أريد القوة لأكون ذراع من لا ذراع له، ورفيق من لا رفيق له. أريدها لأنجِدَ بها غيرى مثلما تفعل يا مولانا.

لا يدرى الشيخ عبدالله لماذا شعر بأن تلك الاجابة ليست وليدة اللحظة، لقد تمرن ذلك الشاب عليها مرارًا حتى حفظها وأجادها. كان هذا يؤرقه ولا يريحه. هل يبحث الشاب عن القوة ويخفى مطلبه هذا خلف كلمات مطمئنة عن مساعدة الملهوف المحتاج؟. وعاد الجِنّىَ ليصرخ فى أذنه :

-أبعده يا مولانا. إنه يريد الشر. أبعده عنك. إنه يكذب.

لكن الشيخ لم يفعل. لم يكن ليطرد أحدًا من أقاربه من بيته ولم يكن ليَرُدَّ طالبًا للعلم مهما حدث. لن يصدر حكمه الآن على الفتى وسينتظر ريثما يرى ما يريبه منه، وحينها سيفعل. وقال للشاب بهدوء:

-ألك أعداء يا بنى؟..

-الكثيرون يا مولانا ؟..إن الضعاف أمثالى، يعج طريقهم دومًا بمن يستهين بهم، ويؤذيهم لقلة حيلتهم.

-ألك أبناء وأهل؟..

-زوجة أكلها الفقر وأبناء نهش المرض والحاجة أبدانهم وصحتهم.

-وهل تبغى المعرفة كى تغنى وتنتقم

تردد الشاب لكن عينىَ الشيخ النافذتين لم تتركاه ليفكر،فقال:

-ومن يبغى الفقر يا مولانا ويرفض الغنى، أما عن الإنتقام فلن أؤذى أحدًا إلا لو فعلها معى.

-يا بنى القوة التى تبغاها خطيرة، والقوة قد تدفع من لا يقدر على مغالبتها نحو طرق ومزالق لا يتخلها ولا يبغى ولوجها. أخشى أنك تبحث عما لا طاقة لك به. عُدْ يا بنى لبلدك واعمل فى أرضك خيرًا لك مما تبحث عنه.

اختلج قلب الشاب وارتعش بدنه وهو يخشى أن ينهار حلمه الآن ويلفظه الشيخ فقال متوسلًا:

-يا مولانا، لاتَرُدَّنِى ولا تصرفنى عنك. لقد انتويت ملازمتك لأنهل من علمك ولن أتركك حتى لو شئت إبعادى. سألزم باب دارك حتى تقبلنى.

-أخشى عليك ضعفك. أخشى أن تحوز القوة فتغلبك وتأسرك بشهوتها.

-لست ضعيف النفس لأفعل يا مولانا.علّمنى ولن أخذلك.

-القوة ضعف يا بنى..القوة بلا استعداد دمار وهلكه.

-القوة مهابة يا مولانا وإحقاق للحق ونصرة للمظلوم..

-إذًا مازلت مُصِرًا..

- لا طريق أخر أمامى؟..

-إذًا ليفعل الله أمرًا كان مقدورًا. استرح الآن يا بنى فى تلك الغرفة وفى الغد نعاود حديثنا..

وهَمَّ الشاب بتقبيل يد الشيخ مرة أخرى وقلبه يتقافز فى جوفه بسعادة لا توصف, لكن الشيخ منعه, ودخل حجرته وقلبه يرقص بها طربًا..أما الشيخ فقد لزم مِقعَدَهُ بضيق وقد شعر بأنه أخطأ, وراح الجِنِىّ يوسوس له:

-لقد جانبك الصواب يا مولانا..إنه يبغى القوة فقط ولايبغى الحق كما يقول.

-لن أمنحه الكثير إلا بعد أن أطمئن له, فلا تقلق. مازال أمامنا وقت لنعرف مقصده وغايته.

لكن الشيخ كان يدرك كم هو مخطئ فى ما يقوله.. يطالب الجِنِىّ بالإطمئنان, رغم نفسه لم يكن مطمئنًا.

*****

(3)

لاحظ الشيخ عبدالله المنياوى أن عبدالتواب لا يأكل كثيرًا. فى الإفطار لم يفعل وفى الغداء اكتفى بكِسرَة خبز وجبن. فسُرَّ الشيخ. كان لا يحب

النهمين الشرهين للطعام. إن شهوة الطعام هى أم الشرور لا يغلبها إلا قوىّ, وحين أتى المساء واكتفى الشاب بلقيمات صغيرة من الخبز الجاف قرر أن يبدأ معه. افترش الأرض المكسوة بحصيرة من الخوص, وجلس الشاب قبالته وبينهما استوى منقد معدنى مُشتَعِل بالجمر والبخور, وهمس الجِنِىّ فى أذن شيخه بإلحاح

- مولانا..بالله عليك لا تفعل هذا.. تمهل بعض الوقت قبل أن تبدأ

تجاهله الشيخ وحَدَّثَ الشاب:

-فى البداية تعلم ألا تخاف..سوف ترى الكثير من الأشياء المُفزِعَةالتى لم تعتدها, ستراها وحدك ولن يراها أحد غيرك, فإياك أن تضطرب أو تخشاها. واعلم أن من تراه مُهمًا بدا لك هولًا مُخِيفًا, هو مخلوق من مخلوقات الله مثلك تمامًا, ولا يملك مهما أوتى من القوة أن يَضُرُّكَ أو ينفعك إلا بإذن الله.

ابتلع الشاب ريقه بصعوبة من الإثارة ورمق الشيخ بفرح وقال بصوتٍ مبحوح:

-وما الذى سأراه يا مولانا

-سترى الجان والعفاريت والمَرَدَة والشياطين والأطياف الخفية, سترى كل هؤلاء.. بل وستراهم الآن. وبعد حين ستتعلم كيف تتصل بهم وتحادثهم.

ارتجف جسده إثارة وسأل:

-وهل سيروننى كذلك؟

يبتسم الشيخ بإشفاق ويجيب:

-إنهم يرونك بالفعل فى كل حين.. أنت هنا من يراهم للمرة الأولى.

-وهل هذا يُغضِبُهم أو يُضَايِقهم؟

-هذا يثير جنونهم وحنقهم بصورة لا تتخيلها. لقد كشفت سترهم وغطائهم, لقد صار بإمكانك أن تتبعهم وتعرف أسراراهم وتشاركهم حياتهم. هذا أمر لا يحبونه, لأنهم لم يعتادوه, هنا ستصير مقصد شرهم وايذائهم. سيتوقون دومًا لتدميرك وتحطيمك.

-وهل يفعلون هذا معك ؟.

-دومًا يحاولون منذ اتصلت بهم.

-وكيف تحتمى منهم إذًا, وتدفع شَرُّهُم عنك؟

-لو لاحظت لا يكُفُ لسانى فى أى لحظة عن ترديد شيءٍ ما.. سوف تتعلم أن تحتمى من شرهم بالأوراد التى سوف أُلقِنكَ إياها, وبعض الطلاسم والأوشام التى تطبعها على جسدك و كذلك العزائم التى لا تتوقف عن القسم بها.

وصمت للحظة ليرى تأثير كلماته على نفس الشاب الصغير..اعتاد أن يخبر من يطلب منه تعليمه السحر والإتصال بعالم الجان بمخاطر الأمر..فى الكثير من الأحيان يكتفى طالب العلم منه بما يقوله هذا وينصرف عن الأمر. بعضهم يُكمل حتى يرى الجان بأم عينيه. وحينها يَدُبّ الهلع فى نفسه فينصرف عنه هو الأخر, والقليل هو من يكمل. القليل للغاية. وعاد ليتحدث وهو يميل بجسده عبر النار والبخار المُشتعِل نحو عبدالتواب:

-يا بنى الإتصال بعوالم الجان والشياطين هو لعب بالنار لابد أن يكتوى بها يومًا ما من يمارسه..كل من فعل عانى يومًا ما نهاية سوداء

مُريعة..البعض انتحر..البعض احترق..البعض جُنَّ وذهب عقله..وأخرين ماتوا ميتة شنعاء لا تتخيل قسوتها.. إنه الثمن المُريع للمعرفة.

يضطرب قلب الشاب فهمس وشحوب وجهه يزداد:

-الكل يا شيخنا ؟..حتى أنت قد يحدث معك هذا؟!..

-الكل يا بنى..لا أحد ينجو من لعنة كهذه..إننى أنتظر هذا المصير كل يوم, وحتمًا لم يحدث لى شيء من هذا فقط, لأن ساعتى لم تَحِنْ بعد..

وخفض عبدالتواب رأسه مُتَوَتِرًا خائفًا..لم يطلب أن يتعلم السحر كى يهلك..تعلمه لأنه يبغى القوة..يبغى المال..يبغى السلطة.لكن ما فائدة كل هذا هذا لو كان الهلاك مصيره فى النهاية..لكن عناده عاد يهمس إليه..ربما تَعَمَّد الشيخ إفزاعه ليتراجع عن مطلبه؟..كان أمرًا مُحتمَلًا..فها هو الشيخ نفسه أمامه قد تجاوز الستين من عمره ومازال بصحته لم يُصِبهُ سوء, أليس مُحتملًا أن يعيش هو الآخر مثله متمتعًا بصحته وقوته حتى يصل لعمره هذا؟..

وقال للشيخ بإصرار :

-الأمل يستحق المخاطرة يا مولانا..كما أنك أخبرتنى أنك ستعلمنى كيف يمكننى أن أقى نفسى من شرهم.

-بالطبع يا بنى سأفعل..كما أطالبك ألا تنسى هذا عنى.. إياك أن تقوم يومًا بتحضير جان أو شيطان دون أن تكون مؤهلًا لصرفه. لقد هلك الكثيرون من قبل بسبب هذا.

هَزَّ عبدالتواب رأسه مُتَفَهِمًا, فابتسم الشيخ عبدالله بإشفاق وعاد لتمتماته الغامضة لبعض الوقت, وراح الجِنّىَ الذى يُلازِم الشيخ يصرخ فيه مُعتَرِضًا بصوتٍ لم يسمعه عبدالتواب :

-يا مولانا ستندم. الشاب لا يبغى العلم والمعرفة. الشاب يبغى القوة. ألا ترى الشَبَقَ فى عينيه؟..

لكن الشيخ عاد ليتجاهله,و تحدث إلى عبدالتواب ثانية:

-سترى الآن شيئًا لم تره من قبل..سوف أستحضر بعضًا من الجان المؤمنين لتراهم..إياك أن تفزع منهم..إياك أن تُطِيل النظر إليهم.. إياك أن تنظر الى عيونهم..وإياك أن تحاول التحدث إليهم. سترى خلقًا مُختَلِفًا فحاول أن تعتاد مشهدهم.

وارتفع بعدها البخور فى المكان, وتعالى صوت الشيخ مُرَدِّدًا أورادًا وعزائمًا مُبهَمَة لم يفهمها عبدالتواب. وبعد وقتٍ قصير شعر بأنهم صاروا حوله. اضطرب قلبه وارتجف بدنه, لكنه تَذَكَّر تحذير شيخه فحاول أن يتمالك رباطة جأشه. رأى عشرات الظلال تتحرك فى ظلام الغرفة حوله..رفع رأسه ببطء للأعلى فرأى قِزمًا يلتصق بسقف الحجرة ويرمقه بعيون سوداء مُخيفة وفم ملىء بالأسنان الحاده, أحنى رأسه لأسفل على الفور بتوتر فرأى تلك الفاتنة الطويلة التى تُوَلِّيهِ ظهرها..كانت أنثى طويلةَ الشعر, وقد هبط شعرها الحريرى الأسود حتى قدمها..تابعها ببصره حتى التفتت إليه بوجها..كان وجهها طويلًا ذا لون أزرق وكانت عيناها حمراوان كالدم وكانت ترمقه بغضب. تواثب قلبه فزعًا وكاد أن يصرخ لكن عينا الشيخ المُحَذِّرَة واجهته فكتم صرخته وسرف بصره عنها.

رأى عشرات الظلال الغريبة التى تبدو كالضباب والدخان فى كل مكانٍ حوله وسمع همسات خافتة تثير الجنون. لكن إصراره على مواصلة الأمر لنهايته تَغَلَّبَ على فَزَعَهُ, فقبع ساكنًا مُنكمِشًا فى مكانه, فى انتظار أن يصرفهم الشيخ من أمامه. كان خائفًا كما لم يَخَفْ من قبل, أهذا ما عليه أن يعتاده دومًا؟. من العسير أن يتخيل أن تعتاد عينيه على شىءٍ

كهذا..لكن الشيخ الرابض فى مكانه بطمأنينة وسكينة, وهو يرى ما يراه قد فعل ذلك, واعتاد رؤيتهم, ولم يعد يشعر بالفزع منهم, فهل يصير يومًا مثله؟..

راقبه الشيخ مُتَجَاهِلًا ما يدور حوله, منتبها لما يُبْدِيهِ الشاب من مشاعر..وظلَّ الشاب رابط الجأش حقًا بصورة أثارت إعجابه..لم يتحمل الكثيرون جلسة كهذا, وكاد أحدهم يومًا ما وقد كان أحد أبناء الباشوات الذين تَلَقُّوا تعليمهم بالخارج, أن يفقد عقله ويُجَنَّ حين رأى تلك الكائنات. لكن ها هو الشاب أمامه لم يصرخ ولم يُبَالِغ فى انفعاله ولم يبحث عن مهرب. سوف يتعلم هذا الشاب وسوف يتقن الأمر فى وقتٍ وجيز. لكن عينا الشاب اتسعتا فجأة بفَزَع وهو يرمق شيئًا ما خلف ظهره..

والتفت للخلف على الفور فهاله ما شاهده..

كان هناك ماردًا ضخمًا مُخِيفًا برأس به قرنين مُعْوَجّين وأنف أفطس وأطراف تنتهى بمخالب ضخمة..كان ينظر للشاب بثبات وكان فمه يهمس بكلمات لم تصل لأذنى الشيخ عبدالله..توتر الشيخ عبدالله وتوتر الجان الحضور وساد الفزع..لم يكن هذا المارد ممن استدعاهم الشيخ فكيف أتى وظهر؟!.. لم يكن هذا وقت التفكير وعلى الفور شرع فى صرف كل الجان من حوله فألقى العزائم اللازمة لذلك..ومضت لحظات قبل أن يختفى الجميع من حوله وكان المارد الشيطانى آخرهم..

ظل قلبه ينبض بعنف. هذا أمر لم يحدث من قبل. وحين التفت إلى عبدالتواب وجده مُنكَمِشًا حول نفسه فى رُعب وجسده يرتجف بفزع لا مثيل له وقد غمر العرق وجهه وبدنه..نهض إليه وهَزَّهُ فى قوة وهو يقول له:



-ماذا بك يا بنى..هل أصابك مكروه ما؟.. أخبرنى بما تشعر به.

-أريد أن أنام..

قالها عبدالتواب بوهن وصوت مرتجف مماثل لبدنه. وأمام فزعه لم يشأ الشيخ عبدالله أن يرهقه بتساؤلاته. فذهب به إلى فراشه.. ثم راح يربت على رأسه وهو يتلو على أذنه آياتٍ من القرآن الكريم..

تركه بعد ذلك، وعاد لصالة البيت وألقى بجسده على الأريكة الكبيرة بالصالة وقال بقلق مُحَدِّثًا الجِنّيَ الذى يلازمه:

-من كان هذا ؟

-أحد خدام بعلزبول..ظننتك تعَرَّفتَهُ يا مولانا.. إنه يُدعى "طميش"

-وما الذى أتى بهذا الشيطان إلى هنا، بل وكيف أتى دون أن أستدعيه؟

-لا أدرى..لكن كل الجان الذين أحضرتهم فَزِعُوا منه كثيرًا..كان قويًا وكان قادرًا على إيذاء الجميع لو أراد.

ازداد الشيخ توترًا وقال وقد تذكر فم المارد الذى كان يتكلم بصوتٍ خفىّ :

-لقد كان يتحدث بشىءٍ لا أعلمه..هل سمعته وعلمت ما كان يقوله.

-لا أحد منا سمعه يا مولانا..لكن الشاب قد فعل..لقد كان يُحَدِّثُه.

شعر الشيخ بالدهشة،فقال مُرَدِدًا:

-حَدَّثَ الشاب؟!.. ولماذا يفعل..وما الذى يبغيه منه؟..

هنا قال الجِنّىّ باقتضاب:

-سل الشاب..إنه من يعلم..لكنى لا أعتقد أنه سيخبرك بشىء.

وجم الشيخ فى حيرة وعقله يُقَلِّب عشرات الإحتمالات لما حدث.. بينما ظل عبدالتواب يرتجف فى فراشه، رغم الغطاء الثقيل الذى يلتحف به. كانت كلمات المارد تتردد فى أذنه بلا توقف وهيئته المُخِيفَة لا تُفَارِق مُخَيِّلَتِه.

كان يطالبه بالحصول على كتاب الدم. أحد كتب السحر العظمى. أخبره أن الشيخ يخفيه فى حجرته وأنه سيعاونه فى الحصول عليه لو شاء. وفى النهاية طالبه ألا يخبر الشيخ بحديثهما هذا.

كأن أمرًا مُفزِعًا لم يتخيل يومًا أن يواجهه. ظل جسده ينتفض، ولم ينم تلك الليلة أبدًا..

*****

(4)

فى فجر اليوم التالى خرج عبدالتواب من حجرته شاحب الوجه متوعك البدن، وتكاثفت الهالات السوداء حول عينيه منبئة عن ليلة لازمه الأرق بها. كان الشيخ عبدالله المنياوى فى مكانه على أريكته بالصالة بانتظاره، مُحَمَّلًا بهواجسه التى لم تفارقه لحظة واحدة منذ الأمس. ابتسم فى وجهه، وأفسح له مكانًا بجواره وقال مُحَيِيًا وهو يشير له بالجلوس:

-هل تشعر أنك أفضل الآن، وهل نمت بالأمس جيدًا؟..

-الحمد لله يا سيدى. إننى بخير مادمت مُلازمًا لك.

-الحمد لله على كل شىء. والآن أخبرنى يا بنى ليطمئن قلبى. هل حَدَّثَكَ ذلك المارد الذى رأيته بالأمس بحديثٍ ما؟

ارتعشت يديه للحظة و أبعد عينيه عن عينى الشيخ. فعلم الشيخ أنه سيكذب :

-إننى لم أسمع شيئًا يا مولانا غير تلك الهمسات المُخِيفَة التى ملأت أذنى. كانت مخيفة وأصابتنى بالرعب. لكن أخبرنى يا مولانا. من كان ذلك المارد المُخيف. وهل كان أحد الجان الذين استدعيتهم

-بل كان ماردًا رجيمًا. كان شيطانًا يُدعَى طميش.

-شيطان؟!.

ولم يُعَقِب الشيخ. كان يَحنِقَهُ أن يكذب عبدالتواب ويُخفِى ما حَدَّثَهُ به ذلك المارد. فكَّر فى طرده من بيته وقد حَدَّثَتْهُ الشياطين التى لن تحضر مُحَمَّلَة بالخير أبدًا، فهل يخططون لأمرٍ ما يستعينون فيه بهذا الشاب. أيفكرون فى قتله بمساعدة هذا الشاب. ليت هذا ما يكون.

وعاد عقله لحديث الجِنِّىّ له، فمنذ رأى عبدالتواب وهو يُلِحّ عليه فى إبعاد الفتى عنه وطرده. كل ما يحدث الآن يدفعه لإبعاد الشاب عنه، لكن فضوله راح يقتله لمعرفة ما يُخفيه الشاب عنه. سوف يُبقيه بجواره ولن يطمئن إليه لحظة ولن يمنحه أيَّ من علمه الآن ولن يُشعِرَهُ بما يُضمِرَهُ له من مراقبة. وأفاق من هواجسه وعبدالتواب يسأله:

-هل تعنى أنه كان الشيطان نفسه؟..

- كلّا يا عبدالتواب. إنه أحد أتباع بعلزبول. أحد الشياطين القدماء لو كنت لم تسمع عنه من قبل. لست من استقدمته بالطبع، ولم أكن لأُحضِرُ لك شيطانًا أو احد أعوانه أبدًا. أنا حتى الآن لا أعلم كيف أتى هذا الشيطان؟..

-وهل حضر من أجل إيذائى؟.

سأله عبدالتواب، فأجاب الشيخ بعد أن رمقه بنظرة ذات معنى وقال ببطء:

-بالطبع لن أتركه يفعل طالما لَزِمْتَنِى ولم تُخْفِ عنى شيئًا.

اضطربت صفحة وجه عبدالتواب للحظة، لكنه تمالك نفسه ببراعة وهو يقول:

-بالطبع لن أفعل يا شيخ عبدالله..وهل يمكننى أن أُخفى عنك شيئًا؟

رمقه الشيخ صامتًا، ثم غادر المنزل بعد أن أخبره أنه سيتأخر اليوم بالخارج، ولن يعود للبيت قبل فجر الغد، كان هذا يعنى أنه لن يراه ثانية هذا اليوم..

وانتصف النهار وهو فى البيت بمفرده. وبدأت الهمسات تتردد فى أذنه. راح يتلفت حول نفسه فى رعب باحثًا عن مصدرها، هل يكون أحد الجان الذين حَضَّرَهُم الشيخ بالأمس هو من يُحَدثه وقد نسى الشيخ أن يصرفه. ضاق صدره، ووجد نفسه يردد آية الكرسى برعب. توقفت الهمسات على الفور وحين هدأ روعه كفَّ عن قراءة القرآن، وشعر بالإعياء وبرغبة مُلِحَّة فى النوم تكتنف عقله. فاتجه إلى الحجرة التى خَصَّصَهَا له الشيخ عبدالله ورقد على فِرَاشَهُ الصغير ونام من فوره. وهناك فى الحلم رأى المارد مرة أخرى. بدا وكأنه فى الجحيم وألسنة اللهب تتراقص من حوله، وعيناه تتوهجان كأتون مشتعل. وبصوتٍ مُفزع راح يحدثه:

-ابحث عن كتاب الدم أيها البشرى الفانى. إنه وحده من سيمنحك القوة التى تفتش عنها. فتش عنه، واهرب به.

هنا تَغَلَّبَ شَبَقَهُ للقوة على خوفه فيصيح :

-لكنى لا أعلم أين هو، ولا كيف يبدو.

-الشيخ اللعين يُخفِيهِ عنك وعن الجميع لأنه يدرك ما يحويه من قوة. إنه يحتفظ به لينتفع به وحده. إنه من يخفيه.

تتأجج لهفته للقوة. صار الكيان صديقًا ولا يعود يخشاه. ويقول بلهفة:

-وأين يخفيه الشيخ؟..

-سوف أخبرك. لكن عليك أن تقوم بأمور قبلها. الكتاب مرصود وله حراسه من الجان يحمونه.

ويخبره المارد الشيطانى بما عليه أن يفعله، ثم يفيق من نومه. الحماس يرتع فى عروقه وشهوته للقوة فى عنفوانها الآن وعيناه مُصَوَّبَتَانِ نحو حجرة الشيخ المُغلَقَة. ويستعيد عقله ما عليه أن يقوم به. يدخل المطبخ ويبحث عمًّا يحتاجه. يعود بالمنقد وقد اشتعل الفحم بداخله والبخور والطباشير. يغلق النوافذ كلها فتظلم الشقة. يرسم النجمة الخماسية فى منتصف الصاله وهو يردد كلمات لا يعيها لَقَّنَهُ إياها المارد فى حلمه. يُلقى البخور على النار خلالها فيترنح الدخان فى رقصات شيطانية، كأنما تتلاعب به الشياطين.يرتفع صوته بالتعاويذ الشيطانية، فيزدحم المكان بالمردة والشياطين.

لم يكونوا كالجان الذين رآهم بالأمس..كانوا أكثر شناعة وإفزاعًا.كان ليموت من قبل لو رأى شيئًا مثل هذا..لكنه الأن لايخشاهم..شعر أنَّهم أتوا من أجله ولمساعدته..وحين انتهى من تعويذته ظهر فى منتصف الدائرة المارد طميش الذى زاره بالأمس. وبإصبع مِخلَبِى يُشير المارد نحو الباب فتحرك نحوه وفتحه.

ورأى الذُعر فى عيون العشرات من الجان الذين يحرسون الحجرة وكتاب الدم وقد ظهروا جميعًا أمام بصره. وحين تحرك للداخل دخل معه الشياطين التى أحضرها. اندفع نحو الفراش دون أن يُبالى بالهمسات والصرخات التى تحدث حوله من قتال غير متكافئ بين جان وشياطين.

رفع حَشوَة الفِراش ووجد الخِزانة الخشبية التى أخبره المارد عنها فى الحلم. فتحها فوجد الكتاب. أسودًا كالليل، ذو ملمس مُقَزِّز ورائحة نفَّاذَة لا تُطاق. لا يدرى هل يتوهم ماحدث أم أنه بالفعل شعر بالقوة حين أمسكه. وتراجع خارجًا من الحجرة..وقد انتهت المعركة البائسة والتى خسرها حراس الكتاب. انصرف الشياطين الذين حضرهم. واختفى المارد طميش. هنا وضع الكتاب بين طيات ملابسه، وهرع نحو باب الشقة وفتحه ليندفع هاربًا. كان عليه أن يختفى عن أعين الشيخ عبدالله وأعوانه من الجان، حتى يعى كيف يستفيد من الكتاب

وبعد أقل من الساعة حضر الشيخ عبدالله لاهثًا مذعورًا ليستطلع النبأ وقد أعلمه بعض الجان الذين يعملون معه بالخبر..رأى آثار الجان الموتى فى كل مكان بالحجرة..رأى الخزانة الخاوية على عروشها..ووجد نفسه يسقط على الأرض بإعياء وهو لا يُصَدِّق ما جرى..ولم يرحمه الجِنِّىّ الذى يلازمة وراح يصرخ فى أذنه مُوَبِّخًا:

-لقد خانك البشرى كما حَذَّرتُكَ يا مولانا..أخبرتك أنه يبغى القوة السوداء فلم تصدق.. لقد خذلتنا حين رفضت الإستماع إلينا.. لقد ضَيَّعْتَنَا.

-ابحث عنه وأخبرنى أين ذهب؟..

يقولها ورغبة الإنتقام تُلهِبُ جوفه، لكن الجِنِّىّ لايجيب سؤاله ويستمر فى تعنيفه:

- أضعت كتاب الدم يا مولانا. لقد فقدت كل شىء يا مولانا وكل هذا لأنك لم تستمتع إلى..

ويصرخ فى خشونة وصرامة:

-سألتك أين هو الآن؟. أخبرنى لو تعلم أو أصرفك عنى.

-لست أدرى..لا أراه ولا أرى الكتاب. لقد مات كل حراس الكتاب الذين كانوا يرشدوننا لمكانه. لا أحد منا يمكنه تعقبه بعد الآن. لقد صار الكتاب حُرًا وقد استحضر حُراسه من الشياطين.

لكنه لم يقبل هزيمته وقال فى إصرار:

-سوف نبحث عنه وسوف نجده وسوف ننتقم..أقسم أنا الشيخ عبدالله المنياوى على هذا.

*****

(5)

رافقته مخاوفه فى رحلة هربه. تركته الشياطين فلم تعاود زيارته ومؤازرته، وروَّعته الهواجس فصار يتلفت حوله كل حين كالمجذوب بحثًا عن عدو خفى قد يتبعه. يخشى أن يرسل خلفه الشيخ عبدالله من الجان من يفتش عنه ويتعقبه. لقد خانه وسرقه بل وتسبب كذلك فى موت بعض حراسه من الجان.حتمًا سيبحث عنه كى يسترد ما فقده، ينتقم. ليس أمامه غير أن يختفى بغنيمته كى يرى على مَهَل كيف يمكنه أن يفيد منها..

وجلس فى القطار المتجه الى بلدته بقلبٍ يرتجف، وعينين متشككتين فى كل من حوله. كان كلما شعر بالخوف والريبة تحسس الكتاب المخفى بين طيات ملابسه ليستقى منه قوى خفية تتشبع بها روحه، فتنقشع عن قلبه الوساوس وتزول المخاوف. هذا الكتاب بلا شك يحوى القوة كما أخبره ذلك المارد فى الحلم، إنه حتمًا كذلك وإلا ما سر إحساسه بالقوة هذا كلما لامسه؟!

ما لا يعلمه الشيخ عبدالله المنياوى أتقن تمثيل دور الفقير البائس كى يَرِق له قلب الشيخ ويعلمه.كان مُولَعًا بالقوة منذ صِغره، وطالما تفكر فى

المجهول والعوالم الخفية التى نعيش بينها ولا نحس بها. قرأ المخطوطات القديمة عن السحر والخيمياء فلم تروى ظمأه.حاول عن طريق كتب الجان تحضيرهم غير مرة فلم يُفلِح.وحين يئس من محاولاته فكر أن يبحث عن أحدهم كى يعلمه ما خفى عنه. خاض رحلة بحث طويلة انتهت الى الشيخ عبدالله بعدما رأى من الأفَّاقين والدجَّالين ما لا يُحصَى..وهكذا كان عليه أن يحتال عليه كى يعلمه فنون السحر والإتصال بالجان..

كان قد سمع عن الكنوز القديمة التى تحفظها طلاسم يحرسها الجان والمردة. وتخيل ما يمكنه أن يحصل عليه لو عثر عليها وفك طلاسمها وتغلب على حراسها..قرأ عن قوى الظلام التى تمنح صاحبها البأس، وقرأ عن الإتصال بالشياطين وكيف يمنحون القوة لمن يعاونهم ويعاهدهم. قرر أن يصل إليهم مهما حدث وأن يطاوعهم مهما طلبوا، فالعطايا التى تنتظره حينها تستحق المشقة والمخاطرة.

رأى فى البداية أن يزور زوجته ويرى ابنه الصغير. سيطمئن عليهما وسيبعدهم عن البيت كى لا يطولهم غضب الشيخ عبدالله وأعوانه. وصل إلى داره الكبيرة بقريته وأمر زوجته بجمع أغراضها وأغراض ابنها ذو الأعوام الثلاث، ثم ذهب بهم إلى بيت أهلها بالقرية المجاورة لقريته. أمرها أن تلزم هى والطفل بيت أبيها ولا تبرحه أبدًا..حذَّرَهَا من الغرباء، وفى النهاية أخبرها ألا تقلق عليه لو طال غيابه وتأخر عليها. إنه فى رحلة قد تطول.

وفى قلب الجبل وفى إحدى المغارات البعيدة المهجورة، استقر.. جَهَّزَ المكان بما يجعله صالحًا للحد الأدنى للسكنى. طرد منه زواحفه السيارة والقوارض والخفافيش، وجلب إليه الكثير من أدوات السحر وكتبه وعظام الموتى، وشحوم المقتولين كما تقتضى الطقوس. ثم أخرج الكتاب من مكمنه للمرة الأولى وراح يتأمله. الجلد سميك للغاية مصنوع من جلد

عجيب مدبوغ بإتقان، وقد نحتت فى قلبه الرموز الغريبة والطلاسم وفى منتصف الغلاف الجلدى تحسَّست كفه دائرة مُجَوَّفَة فارغة. فتح الكتاب وطالعت عيناه بين دفتيه عشرات الرسوم والرموز والطلاسم..

ولم يفهم شيئًا من المسطور. الكتاب بحروف عربية لكنها غير مفهومة. حاول فكّ الطلاسم ومعرفة معانى الرموز ففشل حتى طال الأمد دون أن يكتشف أسراره، فشعر بالعجز واليأس وخشىَ أن يكون قد تسرع فى سرقة الكتاب ومفارقة الشيخ. هل خدعه ذلك المارد ودفعه لفعلته الحمقاء تلك كى يبعده عن الشيخ؟. لكن لو فعل فما هدفه من ذلك؟.

ولو كان يبغى مساعدته كما أخبره فلماذا يتركه هائمًا تائهًا فى حيرته هكذا؟.

وتمضى الأيام عليه بطيئة كسولة، وهو حبيس مغارته يؤرقه،ولا يرحمه الكتاب فيكشف له أسراره. يرقد على ظهره على الحصى خارج الكهف يرقب النجوم والكواكب فيتناهى إلى أذنه صوت ياتيه من داخل الكهف. يفتش الكهف خائفًا. فلا يجد أحد ويرى لعجبه أن الكتاب مصدر الهمهمات الخفية. يقترب منه فتتعالى الأصوات والهمسات الغريبة وما أن يلمسه حتى تختفى الأصوات مرة واحدة ليغرق الصمت والرهبة المكان، يُحَرِّكَهُ بين أنامله ويتحسس ورقه الغريب الذى هو حتمًا من جلد الموتى ويصرخ حانقًا

"ألم يحن الوقت بعد لتُظهر عجائبك "..

لكن الكتاب كما هو لا يجيبه ولا يبرحه

ويأتى النعاس فينام بعد أيام من الأرق يائسًا عاجزًا. وفى الحلم كان هناك المارد. لم يخشاه هذه المرة بل شعر بالغضب منه ووجد نفسه يصرخ فى وجهه:

-لقد خدعتنى أيها الشيطان. الكتاب أكذوبة لا جدوى منه..

وتتوهج عينا المارد الناريتين، ويجيب بصوتٍ مخيف:

-بل أنت من يجهل كيف يعمل. تملك القوة أيها البشرى ولا تدرى كيف تستعملها.

-إذًا كيف أجعله يعمل؟.

هنا تتصاعد النيران واللهب من حول المارد لتبتلعه ويقول قبل أن يتلاشى معها.

-الدم أيها البشرى هو ما يجلو الأسرار. قدم له القرابين.

ويصحو من حلمه وقد صفا عقله مرة واحدة وقد أدرك طريقة وما عليه أن يفعله. وتحرك فى الصحراء فوق حماره الذى أتى به.

ورأى مُسَافِرًا فوق حمار آخر يبغى عبور الصحراء. اندفع بلهفة نحوه وحيَّاه وأقسم عليه أن يبيت ليلته بجواره ليُطعمه ويسقيه. كان المسافر قاطع طريق بائس يبغى ضحية ما. وحين تأمل هيئة الشاب الواهنة أدرك أنه لا خوف منه. لم يكن القدر قد ساق أمام قاطع الطريق ضحية ما منذ أيام فارتضى بهذا الشاب الذى يدعوه، وأمل أن يَجِدَ فى مسكنه ما يستحق أن يسلبه إياه.

أطعمه عبدالتواب فى كهفه لحم غزال اجتهد قبلها فى اصطياده.. وسقاه بعدها خمرًا ملىء بالأعشاب المخدرةبعد أن أوهمه أنه شراب منعش من جذور الأعشاب. شرب اللص بنهم ثم رقد على ظهره. وتعالى شخيره وقد فقد وعيه. هنا جذبه عبدالتواب جذبه وأرقده فى قلب نجمة خماسية صنعها فى أعماق الكهف، ثم رفع خنجره عاليًا وهوى به على رقبته

ففصلها عن منبتها. انبثق الدم غزيرًا كالفيضان، وبنشوة شيطانية، ملأ كفيه منه وفى الفجوة الدائرة على غلاف الكتاب سكب بعض القطرات..

وكالسحر استجاب الكتاب فى يده. اهتز بعنف وقد تشرب القطرات كلها كرمال عطشى للماء. فكر أنه يبغى المزيد فوضع قطرات أخرى وأخرى حتى استقر الكتاب فى يده، وحين فتح صفحته الأولى، وجد الطلاسم قد انجلت والألغاز قد حُلَّت. قرأ التعويذة الأولى فأدرك سرها. قبض على حجر ضخم يتوسط أرض المغارة فتحول الحجر لشاشة بلورية يرى على سطحها من يحب. رأى زوجته وابنه فرَقَّ قلبه واطمئن. إذًا فهذه التعويذة الأولى قد كشفت له الحجب فصار قادرًا على رؤية من يحب. أراد أن يرى الشيخ عبدالله المنياوى فرآه للحظة على سطح الحجر قبل أن يتعكر السطح البلورى ويختفى الشيخ. هل شعر به الشيخ؟. ربما. هنا خشى أن يَدرك الشيخ بوسيلة ما مكمنه فقرر ألا يراه عبر الحجر البلورى ثانية وأن يكتفى بالإطمئنان على زوجته وابنه.

وأدرك الآن لماذا نعته المارد بكتاب القوة. عاد ليفتحه ليرى التعويذه التالية فقلب الصفحة الأولى. ولدهشته عادت تعاويذه مبهمة كما كانت. رمق الكتاب بدهشة وظن أنه بحاجة للمزيد من الدماء. اعتصر من العنق المبتور بعض الدماء وسكبها على الكتاب. فلم يتشربها أو يتقبلها كما حدث فى المرة الأولى. جلب المزيد فسالت الدماء عن سطح الكتاب دون أن يتشربه.

هل يرغب الكتاب فى قربان وأضحية أخرى ليبوح بالمزيد من أسراره' وهل عليه أن يقتل كل مرة كى يفك طلاسم تعويذة أخرى. كان مأزقًا بالفعل.

*****

(6)

عاد ليبحث عن قربان بشرى جديد. وهذه المرة كان رجلًا بدويًا يرعى غنمه. راوغه حتى أتى معه للمغارة ثم قتله. سكب الدماء على الكتاب فلم يتبدل شىء. زاد من الدماء فانسابت من على غلافه نحو الأرض الرمليه التى امتصتها على الفور بنهم.. فتح الكتاب وقد كاد أن يُجَنّ فلم يرى إلا طلاسمه المبهمه. مالذى تبدل؟، ولماذا لم يتقبل الكتاب هذا القربان كما حدث فى المرة الأولى. هل فقد الكتاب سحره أم أن هناك أمرًا آخرًا يبغيه الكتاب هذه المرة. وثارت نفسه وهو يحملق فى الروح البريئة التى أزهقها بلا جدوى. وبجسد مثقل بالحيرة والهموم حمل الجثة حيث واراها الثرى.

جرب أن يقرأ فى كتب السحر القديمة التى بحوذته عسى أن يجد بين أحشائها ما يساعده فى فهم الكتاب فلم يجد للكتاب بها ذكرًا. حاول أن يتلو عليه تعاويذ وعزائم تجلو السحر وتزيل الطلاسم فلم يُجدِى. بحث فى أحلامه وقد راح ينام كثيرًا عن المارد كى يهديه السبيلَ فلم يصل إليه. راحت الأيام تمر عليه بطينة رتيبة بلا جديد حتى اعتراه اليأس وأيقن أنه قد فشل. وراحت رغبة مُلِحَّة توسوس فى نفسه أن يعود أدراجه إلى بيته، وقد طمأنه قليلًا أن أسرته لم يلحقها أحد حتى الآن كما كان يخشى، ربما نسيه الشيخ عبدالله، وربما فشل فى الوصول إليه.

وفى هذا اليوم كان القيظ ثقيلًا كالهموم، وراحت رمال الصحراء تتوهج أمام بصره فى مدخل المغارة لامعة ملتهبة. ولدهشته رآه قادمًا نحوه من بعيد غير عابئ بالحر ولا الرمال المشتعلة أسفل قدمه. فكر برعب أن الشيخ عبدالله قد وصل إليه عبر أعوانه من الجان بلا شك، فلا بشرى قادر أبدًا على عبور الصحراء فى مثل هذا القيظ بمثل هذه الطمأنينة كما يفعل هذا الشيخ، لكنه لم يكن الشيخ.

أيكون هذا القادم نحوه الأن عِفريتًا أم جانًا أم ماردًا شيطانًا. وهل ينتظره داخل المغارة. أم يهرب منه. لكن إلى أين؟

أين يذهب فى تلك الصحراء. لم يكن يملك غير سكين حاد فأمسكه بترقب وقد قرر أن يدافع عن نفسه لو أضمر القادم الأذى له.

مضت اللحظات ثقيلة حتى صار الغريب أمام باب الكهف. توقف ليلتقط أنفاسه وهو يضع كفه فوق بصره محاولًا تبديد ظلام المغارة والنظر إلى من بها. وراح عبدالتواب يراقبه بأنفاس محبوسة وقلب لا يعرف السكينة. بدا الرجل عجوزًا هَرِمًا من التجاعيد الكثيفة التى نحتها الزمن على وجهه. وكان يرتدى جلبابًا أبيضًا واسعًا وخُفًّا جلديًا كما يعتمر عمامة بيضاء فوق رأسه وقد اتكأ على عصا خشبية سوداء فى كفه الأيسر. من يكون وكيف وصل إلى هنا ولماذا أتى؟. تنهش الأسئلة عقله دلف العجوز فتحة المغارة فتلاشى الضوء من حوله, وتنهد قبل أن يتحدث..

-أما من مقيم هنا يأوى الغريب؟.

أجاب بصوتٍ مضطرب:

-من أنت أيها الغريب؟. وماذا تريد؟

- غريب آخر ضَيَّعَتْهُ أحلام كأحلامك!

كلمات عجيبة وشعور غريب بالإنقباض يخنق عبدالتواب والغريب يدخل أمامه يصحبه تيار بارد من الهواء من المستحيل أن يأتى من أى مكان فى هذا القيظ. لم يشعر بالراحة أبدًا أمام الغريب الذى توقف أمامه يتفقده مبتسمًا, ولما طال الصمت قطعه الغريب قائلًا:

-أهارب أنت الأخر تبحث عن مأوى..أم شقِىّ معلول النفس تبحث عن نفسك؟

-من أنت ؟..وماذا تبغى منى؟..

قالها عبدالتواب متجاهلًا أسئلة الشيخ وقد منع نفسه بصعوبة من أن يقول له "وما شأنك أنت بى"..لكن الشيخ هو الأخر تجاهل أسئلته وهو يجلس فى أحد الأركان ويقول مُتأَوِّهًا:

-ياالقيظ الصحارى. كم الرحلة شاقة كما كل مرة, وكم صار المرء ضعيفًا فلا يقدر عليها كالسابق.

-من أنت, وماذا تبغى منى ؟..

يبتسم الشيخ ويقول ببساطة :

-بل أنت الذى يريد..لكن لابأس ببعض الماء البارد لو كنت مُصِرًّا على معرفة ما أطلب.

وجد نفسه يحمل اليه قنينة ماء, تناولها الغريب بيد معروقة طويلة الأظفار وشرب منها بنهم قبل أن يعيدها إليه فارغة ويتنهد بارتياح قائلًا:

-حلو هو الماء البارد. لا أمل لى به فى أسفارى الطويلة.

-من أنت؟

-ألا يحمل لسانك سؤالًا غيره يا فتى؟..

-سأسألك غيره حين أحصل على إجابته. من أنت؟.

-ادعونى بما شئت من الأسماء وامنحنى ما أحببت من الألقاب..أنا أىُّ شىءٍ تتخيله أىَّ شىءٍ تحبه أو تخافه. أنت تدعى عبدالتواب, أليس كذلك؟..



هنا يرتج عبدالتواب. كيف عرف اسمه, إنه ليس بشريًا حتمًا.. ويزداد رعبًا حين يصل تفكيره لتلك النقطه فتتسع ابتسامة الرجل وهو يهز رأسه موافقًا كأنما يجيب على أفكاره التى تدور بخلده "نعم.. أنا لست بشرى".

هل يهرب؟..لكن إلى أين ؟. وينهض الشيخ ثانية متكئًا على عصاه ويغمغم:

-تبحث عنى وحين آتيك ترغب فى أن تهرب منى.. عجيب حالكم أيها البشر..

يتراجع عبدالتواب للخلف ويقول مرتجفًا :

-من أنت ؟. هل أنت الشيطان؟..

ويضحك الغريب ضحكة صاخبة تظهر أسنانه البيضاء النضيدة, ثم يقول:

-وماذا لو كنت هو..أليس الشيطان هو من سوف يهبك القوة والغنى اللذين تبحث عنهما؟..

يراقبه بحذر ويتحرك الغريب للداخل..وتتصاعد فى أنف عبدالتواب رائحة كبريتية عنيفة يُصدِرها الرجل.. يرى الغريب النجمة الخماسية الكبيرة المطلسمة والتى ما زالت تحوى دماءًا جافة للقتيلين اللذين قتلهما منذ أيام فيهز رأسه برضا, ويلتفت إليه باسمًا ويقول بجذل:

-أرى أنك مُخلِصٌ فى عملك أيها البشرى..يمكنك أن تحوز على ما تصبو إليه, لكنك تطرق الدرب الخاطئ..

نجح الغريب فى إشعال الإثارة فى جوفه. تجاهل خوفه ورهبته وتابعه وهو يتفقد جدران الكهف وأرضيته. انحنى الغريب نحو الجِرَاب الجلدى الذى يحوى كتاب الدم. ففكر عبدالتواب أن يمنعه لكن قوى مجهولة منعته.

أمسك الغريب بالكتاب ونظر إليه بشوقٍ غريب وقد توهَّجَت عيناه. وكأنما لا يصدق أنه يحمله. وبعد حين رفعه أمام أنفه وتشممه بقوة, وقال بنشوة:

-كم أوحشتنى ياصغيرى. يومًا ما ستعود إلى موطنك.. يومًا ما ستعود إلى أبائك ليرعوك ثانية. لكن هذا ليس الآن. لم يحن الوقت بعد. مازال على كلينا أن ينتظر!.

ثم التفت نحو عبدالتواب الذى يرمقه بحيرة, وقال له:

-تملك القوة يا فتى ولا تدرى ماذا تفعل بها. كم أنت شقىٌّ أيها البشرى

-وماذا أفعل به. إنه يرفض أن يبوح بمكنونه.

-الدماء وحدها ليست مفتاحه. ربما تصلح للبداية لكن هناك أمور أخرى يحتاجها ليتكلم.

-لقد قدمت أضحيتين له لكنه لم يبح إلَّا بالقليل.

-فتِّشَ عن الشيخ الأسود. ابحث عنه تظفر بالإجابات. إنه بغيتك أيها البشرى.

"الشيخ الأسود؟" ردد بحيرة..من هذا الشيخ الأسود وأين يجده.. ومرة أخرى أجاب الغريب عن تساؤلاته دون أن ينطق بها قائلًا:

-عليك أن تبحث يا فتى. كفى كسلًا ودع كهفك وتحرك. ابحث عنه لتحظى بأحلامك.

قالها وناوله الكتاب..شعر عبدالتواب باليد المرتعشة التى تسلمه الكتاب كأنما تفعل هذا رغمًا عنها.. ثم وجد الشيخ يتجه للخارج مُزمِعًا الخروج وعصاة تطرق الأرض الصخرية, قائلًا:

-والآن أعود للصحراء والرمال ثانية. أما للغريب من راحة؟!

وغادر الكهف وراح يبتعد ببطء أمام عينى عبدالتواب الذاهلتين حتى اختفى..العجيب أن الرائحة الكبريتية العنيفة ظلت بالكهف لفترة طويلة دون أن تختفى وظل سؤال عبدالتواب مُعَلَّقًا فى جدار الزمن بلا إجابة

-من كان هذا؟..

*****

(7)

طالت الرحلة دون أن يدرك مقصده، وتعاظمت الحيرة والقلق والتيه والغُربَة والتعب. جابَ عبدالتواب البلاد من أقصاها إلى أدناها. لم يَكُفَّ لسانه لحظة واحدة عن التساؤل. هل يعرف أحدكم الشيخ الأسود ؟!..

كان البعض ينظر إليه حينها بريبة وشك وتعجب قبل أن يرد عليه أنه لا يعرف شيخًا كهذا. وكان البعض الآخر يرشده إلى أقرب شيخ أسود البشرة يعرفونه. لكن أيًا منهم لم يكن هدفه. رأى فى قرية بالبحيرة شيخًا ضريرًا أسودًا. كان قمئيًا قبيحًا فلم يحبه، وكان يعمل بالدجل والسحر.. ومنذ اللحظة الأولى كشف زيفه وادعائه، وقد رأى الكثيرين من أمثاله. سأله الرجل عن حاجته فأجابه باقتضاب أنه يبحث عن الشيخ الأسود. هنا ضحك الرجل كاشفًا عن أسنانٍ سوداء قذرة نخرة،وقال متهكمًا:

-وها هو الشيخ الأسود أمامك بكل جوارحه إلا بصره. هل أتيتنى لأعد لك عملًا يذهب بأعدائك للجحيم نفسه، أم تراك ترغب فى التخلص من زوجتك. يمكننى أن أساعدك فى هذا ولا تقلق، فلست وحدك من يرغب فى هذا، هناك الكثيرون غيرك، أم تُرَاكَ تفكر فى...

هناك لم يحتمل عبدالتواب كل هذا الهراء الذى يسمعه فقاطعه قائلًا:

-هل سمعت عن كتاب الدم؟..

-ولا كتاب الماء !..

-إذا فلا حاجة بى لك..

لم يكف الكتاب حينها عن إصدار همساته الخفية التى يصدرها من حين لآخر. اعتاد تلك الأصوات المخيفة فلم تعد تدهشه..ومن حين لآخر كان يخرج قطعة الحجر التى اقتطعها من المغارة ويلمسها بكفه لتصير مرآة يرى خلالها زوجته وابنه، فيتخلج قلبه شوقًا. ويتمنى لو أمكنه العودة، لكن رحلة البحث لم تتم ولن يعود إليهما قبل أن ينهيها.

وفى أسيوط وفى إحدى المغارات فى قلب الجبل ذهب للقاء شيخ أسود يحكون عن كراماته وقدراته. فوجده أنثى. عجوز شمطاء سوداء، كريهة الشكل والرائحة. لم يحبها، لكنه ومنذ الوهلة الأولى أدرك أنها ساحرة بحق وليست مُدَّعِيَه أو دَجَّالَه كغيرها. دخل عليها مغارتها ارتجف من نظراتها التى تفحصته وقد شعر أن تلك النظرات تنفذ إلى أعماقه فَتُعَرِّيَهَا. أراد أن يُخفِى عنها غرضه الحقيقى من الزيارة لكنها كانت هى من تكلم:

-لديك من الأسرار الكثير أيها الشاب، وقلبك مثقل بالحيرة.

انعقد لسانه فلم يدرى بما يجيبها. وواصلت الحديث:

-لست الشيخ الأسود، ولا أدرى حتى كيف يكون. لا أحد منا رآه ولا أحد يدرى كيف يكون. إنه أسطورتنا الحية التى لا نعلم أرضها. إنه سيدنا جميعًا الذى لا نعرفه. البعض يدعوننى بالشيخ الأسود ربما لخوفهم منى أو ربما لأنى زنجية. لكننى لست الشيخ الأسود. أنا جواهر العرافة. لا تنس هذا الإسم أيها الشاب. تعلم أن تتذكرنى.



كيف عرفت كل هذا دون أن يتحدث..هل هناك من يخبرها بما حدث معه أم أن عقله صار كالكتاب المفتوح يقرأه من يشاء. المارد قد فعل من قبل والرجل الغريب فعل وها هى تفعل. لاذ بصمته وانتظر أن تكمل..

-أرنى الكتاب الذى لم يره أحد منذ أجيال.

هنا تردد. مادامت ليست هى الشيخ الاسود فلماذا إذًا تبغى رؤية الكتاب. وجد نفسه يتراجع للخلف أمام أناملها السوداء الغليظة الشبيهة بالمخالب والتى امتدت نحوه. ظل يرمق اليد الممدوة دون أن يجيب طلبها فسحبتها ثانية وابتسمت قبل أن تطلق ضحكة كحشرجة الموت وتقول :

-لا أحقد عليك أيها الشاب لامتناعك عن إعطائى الكتاب. لو كنت مكانك لفعلت. الكتاب أيها الشاب خطير ومن يعرف كم يمنح لا يتمنى غيره. إياك أن تأمن أحد يعرف عنه شئيًا. إياك أن تُفَرِّط فيه. إياك أن تخبر عنه أحدًا غير الشيخ الأسود.

وتكلم للمرة الاولى:

-لكنى لا أجده.. شهور طويلة مضت وأنا أبحث عنه ولا أعثر عليه.

-ابحث عنه وستجده. إن الكتاب معك وحتمًا ستجده. كلاكما يبحث عن الأخر فاصبر.

أراد أن ينصرف وقد انتعش ببعض الأمل حين عرفت ما بجعبته وحين أكَّدَت له أن الشيخ الأسود ليس خرافة وأنه حتمًا سيجده, لكنها استوقفته قائلة:

-يومًا ما ستحوز القوة فاذكرنى. سيكون لى طلبًا تنفذه من أجلى حينها, لكنى لن أخبرك به الأن. فقط عدنى أن تحقق طلبى حينها.

لم يرغب فى التورط فى وعد لايدرى كنهه فتردد. ابتسمت عن فم ملىء بالفجوات وقد خلا من الأسنان إلا من سن نخرة, وقالت:

-سأعطيك فى المقابل شىء ينفعك للغاية. خذ هذه ولا تفتحها الأن.

قالتها ووضعت فى كفه لفافة صغيرة من الصوف مربوطة بخيط رفيع.. تأملها بِحِيْرَة وحَذَّر فقالت :

-الشيخ عبدالله وأعوانه يتبعونك يا فتى ويومًا ما قد يصل أحدهم إليك قبل أن تصل لسر الكتاب وقبل أن تصير قويًا لتحمى نفسك.. لو حدث هذا ووصلوا إليك فُكَّ الخيط وألقِ تلك اللفافة فى وجوههم وسوف تقيك شرهم..

نظر للفافة مرة أخرى وأدرك أنها لا تخدعه وقد علمت بمن يطارده بل ومدته بالقوة التى قد تحميه منهم. وضع اللفافة بجيبه ورفع رأسه بعدها نحوها وقال:

-أعدك يا جواهر أن ألبى طلبك حينها..

-لا تنسى أيها الشاب. لا تنسى كغيرك.

وطاف بعدها بكل مكان. زار الأقصر وأسوان ووصل إلى الواحات البعيدة فى الصحراء بلا جدوى, حتى يئس من العثور عليه فقرر العودة إلى القاهرة خائبًا. سيعود لعائلته وسيكف عن البحث عن هذا الشيخ اللعين وبل وسيعيد الكتاب للشيخ عبدالله فى مقابل أن يكف عن مطاردته وتعقبه

ركب القطار من أسوان واختار مِقعَدًا بجوار النافذة ونام..وحين استيقظ بعد ساعات أدرك أن القطار صار قريبًا من قنا. نظر حوله فوجد شاب أبيض كالثلج فى مثل عمره يجلس بجواره, ويرتدى بذلة سوداء وطربوشًا أحمرًا طويلًا. بدا كأحد الموظفين الكبار أو أحد طلاب الجامعات.كان يرمقه بسَكِينَة فشعر عبدالتواب بالريبه. انكمش فى مقعده فابتسم الشاب وقال :

-يبدو عليك التعب والإعياء. ظللت نائمًا لخمس ساعات وقد ارتفع غطيطك عاليًا. أنت تجيد النوم يا هذا.

شعر ببعض الخجل فحَكَّ عينيه بظهر كفيه وقال:

-بالفعل إننى متعب للغاية. لكننى الآن أفضل..

-أرى هذا.. وأرى أنك فى طريقك لبلوغ راحتك.. رحلة طويلة تلك التى خضتها يا عبدالتواب بالفعل.. رحلة طويلة مُرهِقَة لكنها تستحق.

اتسعت عيناه فى ريبة..كيف عرف هذا الشاب هو الأخر سره؟ هل صار العالم كله يعلم ما الذى يبحث عنه. لكن حيرته هذه المرة لم تَطُل، إذ قال الشاب له باسمًا:

-آه..إننى أعتذر حين فاجأتك بمعرفتى أحوالك واسمك دون أن تعلم من أنا. لقد نسيت أن أُقَدِّم نفسى لك فى البداية

وصمت للحظة وأكمل:

-أنا الشيخ الأسود.!.

الفصل الرابع

لعنة الثانية والثلاثين

(قبل أعوامٍ سبع)



(1)

بالخارج لملمت الشمس بقاياها واختفت بتؤدة خلف خط الأفق مُخَلِّفَة بعض أشعتها الواهنة فى قلب الأفق، ومن المئذنة التى تبعد عن البيت عشرون مترًا، ارتفع أذان المغرب مخترقًا غياهب الفضاء داعيًا الخلق للصلاة.

وفى داخل المنزل كانت أم عماد قد انتهت من إعداد الطعام،، ثم اتجهت لحجرتها لتمارس هوايتها الوحيدة التى تجيدها دومًا.. الإنتظار..

اتصل عماد بها منذ ساعات وأخبرها أنه سيتأخر فى عمله قليلًا.. كان يكذب وكانت تعلم ذلك. لابد أنه الآن مع منى، حبيبته. كان يكذب عليها كى لا يضايقها، وهو يعلم أنها لا تتناول طعامها من غيره. لكن ما لا يعلمه أنها سمعت همساته بالأمس، وهو يحدث منى ويخبرها بموعدهما اليوم. لم تخبره بما سمعته، واكتفت بالدعاء له ورجته ألا يتأخر، فوعدها ألا يفعل.. لكنه دومًا يفعل. سيتأخر ككل مرة، ولن يأتى قبل الثامنة أو التاسعة، وككل مرة ليس أمامها غير انتظاره.

لقد كبر الفتى وصار عاشقًا، وبعد حين لن يطول، ستكون له حياته المستقلة مع حبيبته التى اختارها قلبه. سيَنْسَلُّ من بين يديها هو الأخر، كما حدث لأخته، حين تزوجت قبل عامين، ورحلت مع زوجها للخليج حيث يعمل. سيتزوج عماد هو الأخر، وقد يذهب مع زوجته بعيدًا، وستبقى هى بمفردها فى البيت تجتر ذكرياتها وحياتها بملل الشيخوخة وضجر العجز، فى انتظار موت يخفف عنها وطئة الحياة..

تحركت بتثاقل وجَرَّت قدمين منتفختين بالماء لتسير نحو حجرتها. صار قلبها ضعيفًا، ولهذا صارت قدمها متورمتين بالماء، كان عليها أن تتناول

الكثير من الأقراص كل صباح ومساء. فى الواقع لم تجدى العقاقير كثيرًا، بل جعلتها تشعر بالإعياء طوال الوقت.

جلست على طرف فراشها للحظة قبل أن تخرج البوم صور عتيق كان أسفل الوسادة. فتحته وتأملت الصور حبيسة الأغلفة البلاستكية المتآكلة، قبل أن تتنهد وتخرجها كلها من محبسها، وتنثرها على الفراش لتتأملها. رفعت إحداها وقربتها من بصرها، كانت صورة غير ملونة تجمعها بسالم. زوجها الراحل ووالد أبنائها.

كان يرتدى فيها قميصًا مقلمًا، وبنطال ضاق عند الفخذ واتسع فى نهايته..كان يحيط كتفها بذارعه ويبتسم للكاميرا، وقد استكان رأسها إلى صدره باطمئنان من لا يخشى الغد. ابتسمت بمرارة وتذكرت كم كان الغد قاسٍ بعدها. وانتقلت بعينها إلى صورة أخرى..كانت لابتسام وهى فى الخامسة، وقد راحت تلتصق بساق أبيها الذى كان يرفع رضيعه فى ذلك الحين عماد وهو يضحك..كانت الصورة فى القناطر الخيرية، وكانت هى من صورهم بالكاميرا العتيقة التى ما زالت تحتفظ بها فى دولابها. كانت تلك الصورة هى الأخيرة لزوجها قبل أن تحل الفاجعة التى أودت به. قبَّلَت الصورة بشفتين يابستين وازدادت دموعها انهمارًا، وهمست كأنما تحدث زوجها:

- كم أفتقدك يا حبيبى.

ظلت الصورة بقبضتها ورقدت برأسها على الفراش وأغمضت عينها الدامعتين وراحت تتذكر..

تذكرت الفتى الذى طرق قلبها قبل أن يطرق باب بيتها ليتزوجها. كان وحيدًا كزهرة برية فى قلب الصحراء. أخبر أباها أنه بلا أب، أو أم، أو أهل



يعرفهم. لكنه راق أباها فقبِلَهُ، وتزوجا. دام زواجهما أعوامًا ستٍ فقط, لكن ذكرياتها معه فى تلك السنوات كانت كعمر بأكمله.

مات سالم فى يوم ميلاده, حين بلغ الثانية والثلاثين من عمره. مات بعد أحداث غريبة بدأت فجأة, ذهبت بعقله قبل أن تذهب بعمره. مات فى الثانية والثلاثين من عمره وقد أخبرها قبل ذلك أن من المصادفات فى عائلته أن والده قد مات فى الثانية والثلاثين من عمره فجأة, وكذلك فعل جده. يومها كان يضحك وهو يخبرها أنه يسمها لعنة الثانية والثلاثين, وأنه يخشى أن يكون هو الأخر فريسة لها يومًا ما.

يومها احتضنته بجزع وهى تطالبه أن يكف عن فأله المشنوم هذا, وأن الأمر لا يعدو أن يكون مصادفة لا أكثر. لكن الأمر لم يكن مصادفة, ومات هو الأخر فى الثانية والثلاثين من عمره تمامًا..

وطوال أعوامها التالية عاشت فى رعب لا ينتهى وهى ترى ابنها عماد ينمو أمام بصرها يومًا بعد يوم والحيرة تنهشها, هل تدركه هو الأخر لعنة الثانية والثلاثين كما لحقت بأبيه وأجداده. لم يكن هناك من سبيل لتدرك الحقيقة, وظلت أسيرة للحيرة والقلق حتى اعتل جسدها وحاصرته الأمراض التى هدمته..

لكنها لم تخبر عماد عن تلك اللعنة الغامضة التى تجرى فى دماء عائلته. لو كان مقدرًا له أن يكون ضحيتها يومًا ما, فلتحدث فجأة دون أن يؤرقه انتظارها. ليعيش حياته الطبيعية كأقرانه دون أن يذوب احتراقًا وخوفًا فى انتظارها, فكم كان الجهل رحمة وكم حملت المعرفة فى جوفها الشقاء.

فتحت عينها واعتدلت ورفعت رأسها للسماء ببطء تناجى الخالق وتدعو من أعماقها أن يجعل موتها قبل يوم ابنها.

همَّت بالنهوض لكن الدُوَارَ فاجأها, فعادت لتجلس على الفراش..شعرت بروحها تغادر جوفها,وأنبئها قلبها المرتجف والعرق البارد الذى تفصد من جبهتها أن مستوى السكر فى دمها قد انخفض حتمًا كثيرًا. لقد تأخرت فى تناول الطعام والسكر وحش لا يرحم أخطاءً كهذه. تحاملت على نفسها لتنهض كى تتناول بعض الحلوى التى تحتفظ بها فى الكمود. نهضت بالفعل لكن الدوار عاد بتوحش فى هذا الحين فمادت الأرض أسفل منها وترنحت, أمسكت بالقائم النحاسى للسرير لتستند عليه,لكن جسدها أبى أن يطاوعها ويستقر, فهوت أرضًا رغم تشبثها بالقائم الذى هوى معها..راحت تلهث والدوار يكتنفها ويكاد أن يُغَيِّبَهَا عن وعيها..كانت تعلم أن السكر لو واصل انخفاضه أكثر من هذا فقد تفقد وعيها للأبد, ولهذا راحت تجاهد غيبوبتها وتزحف نحو الكمود..

بلغته فالتقطت منه قطعة من الحلوى ألقتها فى فمها ثم أغمضت عينها وهى تمتص حلاوتها ببطء. مرت دقائق من الإعياء والقلب يخفق بسُعَارٍ, قبل أن ينحسر الدوار ففتحت عينها. رأت القائم النحاسى الذى انهار معها فزحفت نحوه. أمسكته بيدها ورفعته فسقط من جوفه مفتاح نحاسى غريب تردد دوى اصطدامه بالبلاط صاخبًا, ثم سقط من القائم ورقة مطوية حال لونها واصفر. رمقت المفتاح والورقة بحيرة وهى تفكر إن كانت هى من خبأهم فى هذا القائم أم لا. اعتصرت ذاكرتها لكنها لم تذكر أنها قد فعلت هذا يومًا ما. إذن من فعل؟. بالتأكيد ليس عماد أو ابتسام, هل يكون زوجها الذى رحل عنها قبل 25 عامًا هو من فعل.

عاد قلبها ليدق بقوة وهى تدرك أن شيئًا ينتمى لزوجها ظهر الأن.. تحسست المفتاح وتأملته..كان ممتلئًا بالنقوش الغريبة المنمنمة. لم تستطع تميزها. التقطت الورقة المطوية وقلَّبتها بين أصابعها.كانت صفراء مهترئة متآكلة الحواف. فتحتها لترى ما بها فشعرت بشىءٍ حادٍ كالدبوس

يخترق جلد إبهامها.. كان الألم حادًا فصرخت.. وانفجرت من سبابتها دماء كثيرة, تشربتها الورقة الصفراء على الفور بنهم شيطانى. ألقت الورقة بحنق لتتفقد إصابتها.

كانت عيناها تتأمل الإصبع الدامى فلم تلحظ الخيوط السوداء المظلمة التى راحت تنبثق من العدم على الجدار خلف الفراش..لم ترى الثعبان المشتعل الذى ظهر فجأة فى قلب الجدار حول جمجمة مشتعلة بعيون نارية مخيفة وقرنين ملتويين. لم ترى هؤلاء الأشباح الذين خرجوا فجأة من الفراغ من خلفها, وهم يرمقونها بقسوة بوجوه مسطحة لاتحمل إلا فمًا مُظلِمًا مفتوحًا عن آخره..

ثم هتفوا فجأة بترانيم مخيفة فانتبهت. وحين استدارات برأسها للخلف والفزع يقتلها لترى ما يدور صرخت صرخة واحدة. كان هذا هو كل مافعلته قبل أن تفقد وعيها.

ولم ترى أبدًا كل تلك الأجساد الدخانية التى راحت تغوص فى بدنها وتختفى فيه.

*****

(2)

أدرك عماد وهو يفكر فى أمه أنه تأخر كثيرًا. كانت عقارب الساعة تعدو سريعًا نحو العاشرة مساء وقد خلت الشوارع الباردة من المارة. سقطت فوق رأسه قطرة من مطر, فرفع رأسه نحو السماء المظلمة المُلَبَّدَة بالغيوم والسحب. كان يحب المطر ويهوى السير فيه, لكن ليس فى وقتٍ كهذا. كان فى مزاج أبعد ما يكون عن الرغبة فى الإستمتاع بأى شىء. كان فى مزاج لايشتهى البهجة..

كانت هناك منى, وكانت هناك مشاكلها مع أمها التى ترغب فى تزويجها بابن أختها الطبيب الثرى الذى يعمل فى دبى والذى يتقاضى فى شهرٍ واحد ما يتقاضاه أباها فى عامين, أخبرته منى أنها ملت كل ما يحدث. وفى النهاية أخبرته أن عليه أن يفعل شيئًا ما ليصمت الجميع, كان يعى ما تطلبه منه..تعال وتقدم لخطبتى..اذهب إلى أهلى وأخبرهم أنك تريد أن تتزوجنى..افعل شيئًا ما يُغلِق هذا الباب المفتوح الذى يتسرب منه كل يوم ألف عريس وخاطب..

ابتسم لها مشجعًا وهو يحتضن أناملها الطويلة الرفيعة بين أصابعه,ويقبلها. وهمس لها مطمئنًا:

-لا تقلقى يا حبيبتى. سوف أطرق بابكم قريبًا. ولن يكون هناك المزيد من الخُطَّاب.

استسلمت يدها الباردتين لأحضان كفيه, لكن عينها ظلتا جامدتين وقالت:

-إذن أخبرنى متى تنوى أن تفعل؟..

يُقَرِّبُ أناملها من شفتيه وينفخ فيهما بعض الهواء الدافئ من صدره قبل أن يجيبها:

-أريدها أن تكون مفاجأة.

-تعلم أنى لا أحب المفاجآت. أخبرنى الآن بموعد أخبر به أمى كى تكف عنى.

-أخبرى أمك أنها لو لم تكف عن إلحاحها وملاحقتها لك, فسوف أقتلها..

وتسحب يدها من بين كفيه, بغضب وتصيح اعتراضًا:

-أنا لا أمزح يا عماد..يبدو أنك لا تفهم ولا تدرك كم أعانى..

كان قد قرر أن يتقدم وقد حاز على بعض النقود، تكفيه لخطوبة محدودة..لكن كان عليهما أن ينتظرا عامين آخرين قبل أن يكون مستعدًا للزواج.. أخبرها بما انتواه فارتسمت البسمة على شفتيها لأول مرة مُزِيحَةً توترها وهمست بعيون استعادت بريقها:

-لتكن أعوامًا ثلاث أو أربع، هذا لا يهمنى.. اخطبنى الآن، وبعدها تزوجنى متى شئت.. فقط أخرس كل هؤلاء الخطاب وامنع أمى عنى.

وصل إلى عمارته التى يقطن فيها فوجد المدخل مُظلِمًا.. دلفه شاعرًا بالدفء، وصعد لشقته..كانت مظلمة هى الأخرى..هل نامت أمه كل هذا الوقت فلم تلحظ الظلام؟. تحسست يداه الحائط بحثًا عن مفتاح الإضاءة.. أضاء المكان، فوجد أمه جالسة فى الصالة على الكنبة المواجهة لباب الشقة..كانت ترمقه بعيون جامدة ثابتة وأجفان لا ترمش. ارتجف حين رآها هكذا، لكنه سرعان ما ابتسم وهو يغلق باب الشقة، ويغمغم بإحراج:

-مساء الخير يا أمى.. لماذا تجلسين فى الظلام هكذا؟..

جاوبه الصمت، فشعر بالقلق وظلت على جلستها ساكنة جامدة..اقترب منها وهو يقول لها معتذرًا :

-أعلم أنكِ غاضبة منى لكننى لم...

وقطع كلماته حين أمسك كفها ليقبلها..كان باردًا كالثلج،فرمقها بقلق قائلًا وهو يتحسس جبهتها التى كانت باردة كذلك:

-يا إلهى ! ماهذا؟. أنتِ باردة للغاية. هل تشكين من مرضٍ ما؟

مرة أخرى لم ترد عليه وظلت على صمتها وجمودها. تفقدها ببصره بقلق دون أن يترك يدها الباردة.. هزها برفق وهتف بها:

-أمى تحدثى إلىَّ وأخبرينى هل أنتِ بخير؟..هل تشعرين بشىءٍ ما..تحدثى إلىَّ أرجوكِ.

هنا تحركت مقلتيها المتحجرتين نحوه، وفتحت فمها وتحدثت، لكن ما خرج من فمها لم يكن صوتها أبدًا..كان صوتًا آخرًا غير صوتها..صوت غليظ غريب جعله يثب للخلف فى هلع..

-لقد رحلت أمك أيها الأحمق.. رحلت للأبد وصارت ملكًا لنا الآن. إياك أن تنعتها بأمك بعد الآن. إنها لم تعد أمك.

رمقها بعيون مذعورة، وقد عادت أمه لصمتها وهى ترمقه بعيون جامدة لا حياة فيها. ظل متسمرًا فى مكانه يرقبها بخوف وحيرة للحظات قبل أن يتمالك نفسه ثانية ويحدثها هامسًا بصوتٍ مرتجف:

-ماذا هناك يا أمى. ولماذا تتحدثين هكذا؟. ما الذى يحدث؟!

ظلت على جمودها للحظات قبل أن تعاود الحديث بنفس الصوت الغريب:

-ألم أخبرك أن هذا الجسد لم يعد ينتمى لأمك؟.. لقد رحلت أمك كما سترحل أنت الأخر. كلكم ترحلون طوال الوقت ونبقى نحن. سوف نكون نحن فقط فى النهاية.

وأطلقت ضحكة مخيفة رددتها الجدران بصدى مرعب.أحس عماد بذعر لا حدود له فى تلك اللحظة، وشعر أن تلك التى تحدثه ليست أمه حقًا. لا يدرى لماذا خشى من أمه هكذا فى تلك اللحظة. فكر أن يفر من أمامها لكنه أحجم وقد شعر بالخجل من نفسه لأنه فكر فى تركها وهى هكذا. لايهمه ما ألَمَّ بها أو ما تعانيه، فى النهاية هى أمه وعليه حمايتها ومساعدتها..

واندفع الأدرينالين فى دمائه بجرعات كبيرة أزارته على مخاوفه، تقدم نحوها وأراد أن يحتضنها..لكنه ما أن لمسها حتى امتدت يدها نحوه فأطبقت على كتفة بقوة رهيبة آلمته كثيرًا، قبل أن تدفعه بعيدًا.. وجد جسده يطير فجأة فى الهواء لمسافة كبيرة قبل أن يصطدم بالحائط المقابل فيتكوم أسفله فى ألم ورعب.. شعر بتهشم عظامه كلها، وراح قلبه يتواثب فى صدره وهو يرى أمه تتحرك نحوه وابتسامة مخيفة ترتسم على شفتيها وما زال الصوت المخيف هو ما ينبعث من حنجرتها:

-أحمق أنت الآخر كآبائك..لماذا ترفض أن تصدق أن أمك قد رحلت، ولم تعد تنتمى لعالمك الفانى..لقد ذهبت أمك ولن تعود.. حان الوقت لتتعود هذا.

وامتدت يدها نحوه ثانية، فحاول أن يفر، لكنه لم يقدر، رفعته من قميصه بقوة هائلة، فوجد جسده يرتفع فى الهواء ثانية، قبل أن تلقيه نحو جدار آخر..هذه المرة آلمته ساقه اليمنى وقد شعر أنها قد تهشمت بلا شك..لكن خوفه سحق ألمه وهو يفكر فى الهرب. راحت أمه تضحك وهو تنظر إليه بشماتة، وجسده يئن ألمًا وفزعًا.. وأحس بهواء ساخن يصفع وجهه دون أن يدرى مصدره.

ومرة واحدة قفز جسده واندفع نحو الباب وهو يصرخ.. حاولت أمه اللحاق به لكنه هذه المرة نجح فى أن يسبقها..وفتح الباب بسرعة وخرج إلى السلم المظلم وهو يطلق صرخاته ومن خلفه ترددت صرخة ساخطة من فم أمه..فُتح باب الأستاذ محروس فى الطابق الذى يعلوه وهرعت نحوه جارتهم أم محسن، وبعد حين لحقه الحاج رضا الذى يسكن أسفله.

كان يرتجف وعشرات الأسئلة الحائرة تلقى على مسامعه..لكنه اكتفى بأن أشار نحو شقته. وغمغم بصوتٍ اقرب للبكاء:

-أمى!.. لا أدرى ماذا حل بها.. لقد هاجمتنى.

اتسعت أعينهم بدهشة، ثم اندفعوا للداخل.. كانت أم عماد تجلس على الكنبة بهدوءٍ باردٍ، وبدت الشقة فى فوضى عارمة، وقالت لها أم محسن بحذر وعيناها تتحركان فى محجريها بقلق:

-ماذا بكِ يا أم عماد..ولماذا تضربين عماد؟.

لم تجبها. فَدَنَت منها أم محسن بحذر، والحاج رضا والأستاذ محروس يراقباهما بحذر.. وما أن لمستها أم محسن، حتى رفعت أم عماد رأسها نحوها، وأطلقت صرخة كالفحيح فى وجهها، وقد بدت ملامحها شرسة للغاية، وهتفت بها محذرة :

-إياكِ أن تلمسينى أيتها البشرية اللعينة.

نبض قلب أم محسن هلعًا، وتراجعت بظهرها للخلف، قبل أن تتعثر فى السجادة فتسقط عليها وهى تصرخ وكذلك فعلت أم عماد. وراح كل شىء فى الشقة يرتجف ويهتز كأنما تحركه أيادٍ خفية..فكر الحاج رضا فى أن يفر من هذا الجحيم لكنه خشى أن يُتهم بالجبن، بينما راح الأستاذ محروس يقرأ بصوتٍ مرتفع الآيات الأولى من سورة البقرة..

ظلت أم عماد تصرخ للحظات، قبل أن تطلق ضحكات ساخرة زادتهم رعبًا..هنا استجمع عماد شجاعته فاندفع نحوها ليُسكِتَها..قاومته لكن الحاج رضا والأستاذ محروس أدركاه ليساعداه..راحت تصرخ بين أيدهم احتجاجًا وهى تضربهم،وصاح الأستاذ محروس فيهم وهو يقاوم كفها الذى يبغى عُنُقَه:

-أدخلوها حجرتها بسرعة..علينا أن نقيدها إلى الفراش..

تعاونوا بجهد على إرقادها بالفراش وظلت تصرخ وتدفعهم بذراعيها بقوة وعنف وتخمشهم بأظفارها متى استطاعت أن تصل إلى شيء منهم..وصرخ الحاج رضا في عماد وهو يشعر بالدم يسيل من ذراعة بعد أن جرحته:

-أحضر أيَّ شيء نُقَيِّدُهَا به يا عماد..أسرع يا رجل

تركهم عماد واندفع نحو المطبخ وبعد لحظة عاد بحبلٍ غليظ. نجحوا في النهاية أن يقيدوها رغم مقاومتها الهائلة التي لا يعرفون من أين أتت بها. لكنهم ما أن انتهوا حتى فوجئوا بها تصرخ بنفس الصوت الغليظ المخيف..

-لن يفيد هذا أيها الحمقى، ولن تقيدوننا للأبد.. سوف نتخلص من هذا القيد في وقتٍ ما، وحينها سوف تدفعون الثمن.. سوف نمرح جميعًا حينها.

وترددت من فمها ضحكة ساخرة أخرى، فارتجفوا وهم يرمقوها بوجوم..

*****

(3)

-لا حل إلا الشيخ كريم..دعوا لِيَ الأمر وانظروا كيف سينتهى كل هذا السخف.. أنتم لا تعلمون كم هو الرجل مُبارك وكيف هو "سره الباتع"

هكذا هتفت أم محسن وهى تمد عنقها من حينٍ لآخر عبر الصالة، لتنظر إلى جسد أم عماد المُسَجَى على الفراش. رمقها عماد بحيرة وهو لا يعلم من هو الشيخ كريم هذا الذى تتحدث عنه وما هو الشىء الخارق الذى يبشر به..لكنه أحجم عن الحديث وعقله يشتعل تفكيرًا في ما جرى منذ قليل من أمه..

وقال الحاج رضا وقد راح طوال الوقت يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم:

-هذا الأمر يتعلق بالجان. هذا واضح لا التباس فيه..هناك جان يتلبسها وهو حتمًا من فعل كل ما قامت به. ألم تروا كيف كانت تتحدث، وكيف تبدل صوتها..هل رأيتم كيف قاومتنا. صدقوني إنه جان وليس أمرًا آخر.

وابتلع عماد ريقه بصعوبة وقلبه يرتجف في صدره..أيُّ جانٍ هذا الذى يتحدث عنه الحاج رضا..الأمر لا يحتمل كل تلك التعقيدات..ربما كان هناك تفسير لما حدث وربما كان هذا التفسير أبسط بكثير مما يسمعه. راح عقله يفتش عن هذا التفسير لكنه عجز، ووجد الأستاذ منصور يقول هو الأخر :

-أخشى أننى أوافق الحاج رضا في كل ما ذكره..لقد شهدت شيئًا كهذا من قبل..كان ابن أختى ملبوسًا بأحد الجان، وقد قام حينها بأشياء مريعة تشبه كثيرًا تلك التى حدثت الآن.

وافقته أم محسن كذلك، وهى تهز رأسها وهتفت:

-ومن أين جاء هذا الجان..إنها "تعيش في حالها" ولا تؤذى أحدًا

أجابها الحاج رضا :

-من يدرى يا أم محسن..ربما سكبت ماءًا مغليا في المرحاض أو حوض الغسيل، ربما سقطت في الحمام وربما غَنَّت أو صرخت فيه..أعتقد أنهم يأتون هكذا.. لقد رأيت شيخًا يتحدث عن هذا في أحد البرامج التلفزيونية.

شعر عماد بالحنق من هذا الهراء الذى يدور حوله، وتمنى لو يسألهم لو يتركونه الآن بمفرده ليفكر في مصيبته تلك..كان يرغب في الوحدة ليفكر فيما عليه أن يقوم به،لكنه أمسك لسانه ولم يفعل خجلًا.. وسمع الأستاذ محروس يحدثه قائلًا :

-لماذا تصمت يا عماد ولا تتحدث. أخبرنا بما تفكر فيه لنشاركك الرأى.

فتح عماد فمه ليتحدث، لكن صرخة مخيفة من أمه أخرسته على الفور وقد ارتجفت أجسادهم جميعًا لها..هنا نهضت أم محسن وتحركت نحو عماد ثم توقفت أمامه وقالت بحزم:

-اسمعنى جيدًا ياعماد، هذه أمور لا تعرفها ولا تفهمها،لهذا اترك الأمر لى وسوف أجلب الشيخ كريم..لو كان هذا جانًا أو شيطانًا رجيمًا حتى، فهو خير من يطرده أو يحرقه لو لزم الأمر..وافقنى فيما أريده وسنذهب سويًا له فى الصباح لنأتى به لها.

رمقها عماد بِحيْرَةٍ قبل أن يهز رأسه بيأس بحركة مبهمة تعنى الموافقة..وبعد ساعة تركه الجميع، قضى ليلة ليلاء مع أمه التى لم تكف عن الصراخ والتهديد والوعيد له.. رقد على الكنبة المواجهه لحجرتها ليراقبها وقد قرر ألا ينام، لكن البرد والسكون والملل غلبه فنام بعد ساعات..

وما بين اليقظة والنوم، شعر بحركة ما تدور من حوله. استيقظ عقله مرة واحدة، وفتح عينيه ليصدم بعينى أمه التى مالت نحوه وقد سقط شعرها المبعثر حول وجهها وهى تبتسم كالشياطين. كاد قلبه أن يتوقف فزعًا، وهو يفكر كيف فَكَّت قيودها، وما الذى تنوى فعله به.. وهتفت فى وجهه بصوتٍ كالفحيح:

-هل ظننت أن تلك الحبال السخيفة ستعوقنى وتحميك منى. والآن قد فشلت حيلتك وحان وقت الحساب أيها الطفل الشقى. هيا أخبر أمك كيف تريد أن يكون عقابك؟. هيا أخبرنى. إننى انتظرك.

حبس أنفاسه فى صدره، وعيناه تدوران فى محجريهما برعب. أراد أن يتكلم لكن فمه الجاف كالحطب لم يطاوعه، وواصلت هى حديثها المفزع وهى تتحسس وجهه بأنامل باردة قاسية:

-إننى جائعة للغاية يا عماد..أشعر أننى لم آكل منذ قرون بعيدة.. إننى أتوق للطعام بشدة.. هل تعلم أىُ طعامٍ أشتهيه الآن؟.. خمن!.

انتزع الكلمات من حنجرته بصعوبة، وهو ينكمش على نفسه أكثر وهمس بفزع وهو يشير بعينيه نحو المطبخ:

-هناك الكثير من الطعام بالمطبخ. تناولى منه ما شئت.

اتسعت عيناها بشدة حتى صارتا تملأن وجهها كله وهمست فى أذنه:

-وماذا عنك.. ماذا لو كنت أشتهى لحمك؟!. أتضن بهذا على أمك؟!.

عيناها صارتا بلون الدماء وانتفض جسده هلعًا حين فتحت فمها بعدها باتساعه..رأى الأسنان التى استطالت وصارت أكثر حدة.. شَمَّ الرائحة العفنة التى انبعثت من فمها والتى ذكرته برائحة القبور، وانحنت على رقبته لتقضمها وقد عجز جسده عن التحرك مدافعًا عن نفسه، أو محاولًا إبعادها عنه..لم يكن أمامه إلا أن يصرخ..ونجحت صرخة فى الإفلات من فمه فى النهاية، وقد لامست أسنانها عنقه..

ثم استيقظ..

هَبَّ من رقدته والعرق يغمره، ورأسه يدور بلا توقف فى المكان مُفَتِّشًا عن أمه. ما زالت أمه على فراشها تصدر تلك الأصوات الغريبة، وما زالت قيودها كما هى.. كان حلمًا إذن.. جلس على الكنبة ثانية وراح يلتقط أنفاسًا عميقة ليهدئ من روعه ومضى وقت طويل قبل أن يهدأ قلبه.. ولم ينم ثانية..

وفى اليوم التالى صحبته أم محسن إلى عمارة حديثة بالسيدة زينب. وأمام إحدى شققها الفاخرة توقفا وقرأ عماد اللافتة التى تعلو الباب:

الشيخ كريم عبد الوهاب

معالج روحانى وعالم أعشاب

دخلا الشقة الأنيقة فتحركت نحوهما فتاة فى مقتبل العمر ترتدى بنطلونًا ضيقًا, وبلوزة قصيرة فَجَّرَت الأنوثة فيها..لم يتوقع ما يراه وقد تخيل أن يدخل شقة قديمة بها أرائك خشبية كئيبة وإضاءة خافتة, تستقبلهم فيها امرأة بدينه قذرة, وهى تحدثهم عن كرامات الشيخ, وتحصى لهم فضائله.. كان كل شىء مختلف تمامًا عما دار بباله قبل أن يأتى المكان. تحدثت أم محسن إلى الفتاة ذات الإبتسامة العملية,بينما اتجه هو نحو أحد الأركان وجلس وراح يراقب الأخرين الذين بادلوه النظرات الفضولية..بدا المكان كعيادة طبيب أكثر مما أوحى بمكان شيخ يعالج من المس الشيطانى وغيره..احتفظ بصمته, وراحت أم عماد تتحدث اليه بلا توقف عن الرجل وما يقدر على فعله.

مضت الساعة قبل أن تشير إليهم الفتاة الجميلة بإصبع ملطخ بالأصباغ أنَّ دورهم قد حان, فتحركوا نحو حجرة الرجل. وكما توقع عماد كان الشيخ مختلفًا عما يظنه.كان فى قد تجاوز الخمسين من عمره ذو شعر ناعم أسود ينسدل على جبهته, ولحية خفيفة سوداء تتخللها خصلات بيضاء, وعيون سوداء واسعة نافذة تثير التوتر, وعلى شفتيه ارتسمت ابتسامة مريحة. كان يرتدى حلة أنيقة سوداء ورباطة عنق رمادية, وقد أسدل فوقها عباءة بنية زادته وقارًا.. جلس خلف مكتب أنيق هو الأخر كالمكان كله, تعلوه مبخرة كهربائية مشتعلة يتصاعد منها البخور. وعلى الحوائط ظهرت بعض الأيات القرآنية ذات الخطوط المتشابكة المتداخلة, وفى ركن آخر كان هناك بعض الأقنعة الغريبة المخيفة و الغريبة, وقد غرقت الغرفة بأكملها فى رائحة البخور العطرية القوية.

ظل الشيخ كريم يتبعهما ببصره وابتسامته لا تفارق وجهه, وحين جلسا قال لهما بصوتٍ رخيم هادئ:

-مرحبا بكما فى مكتبى المتواضع. أتمنى لو أمكننى مساعدتكما.

تحدثت أم محسن..قصت عليه كل ما حدث والشيخ يتابعها باهتمام دون أن يقاطعها وحين انتهت التفت إلى عماد وسأله:

-إذن فهى أمك يا أستاذ عماد ؟.. إنه أمر مؤسف بحق, لكن لا تقلق لن يدوم هذا العبث الشيطانى طويلًا وستشفى منه بإذن الله..

-لا أتمنى غير هذا.

غمغم عماد, وعاد الشيخ ليتحدث:

-أخبرنى يا أستاذ عماد.. هل ما حدث لها يحدث لأول مرة وهل حدث أمر مماثل لأحد غيرها فى العائلة؟.

-إنها المرة الأولى التى يحدث فيها أمر مماثل.

-وهل تشكو أمك من كوابيس سيئة.. قطط سوداء تزورها فى أحلامها. حيوانات سوداء كالكلاب مثلا تطاردها فى نومها.. عيون مخيفة ترقبها أو أصوات مخيفة تسمعها وهى بمفردها؟.

-لم تخبرنى بشىء من هذا أبدًا.. لكن هذا لا يعنى أنه لم يحدث.. ربما حدث معها وأخفته عنى.. إننى لا أدرى حقًا

هز الشيخ رأسه متفهمًا وهو يلقى ببعض البخور فى المبخرة الكهربائية فتصاعدت سحب الدخان وعاد ليسأل:

-وهل تواظب أمك على الصلاة؟.



-بالطبع تفعل، أمى متدينة للغاية ولا تترك فرضًا واحدًا. إنها أيضًا تصوم الإثنين والخميس من كل أسبوع.

-وماذا عنك؟.. هل جربت أن تقرأ يومًا عن الجان و طرق تحضيرهم أو محاربتهم.

-لم أهتم يومًا بتلك الأمور، ولم أفكر فيها أبدًا.. إنها خارج اهتمامى تمامًا.

صمت الشيخ كريم وخفض عينيه للحظات قبل أن يعاود حديثه:

-الأمر كما هو واضح، يحوى روحًا شريرة أو جانًا ما، أو لِنَقُل أنه مَس شيطانى لو تحدثنا على نحو أكثر دقة.. لقد صارت تلك الأمور تتكرر كثيرًا هذه الأيام.. إنها نهاية الأيام كما يبدو.

-هل أنت قادر على مساعدتها؟.

اتسعت ابتسامة الرجل وحرك كفيه وهو يعبث بلحيته، وأجاب:

-هذا هو عملى ولهذا جئتنى.. سوف أعمل على علاجها من كل ما تعانيه.. لا يهم فى هذا إن كان من يفعل بها هذا عفريتًا أو شبحًا أو جنًا أزرقًا حتى.. بإذن الله سوف أُذهِبُ عنها كل هذا وستُشفى مما بها.

كانت عينا الشيخ كريم واثقتين، وشعر عماد بالراحة من كلماته وثقته. أحس أنه وُفِقَ كثيرًا فى القدوم إلى الرجل الصحيح. ووجد نفسه ينظر إلى أم محسن بامتنان، ويبدو أنها قد أدركت ما يجول بخاطره فقالت على الفور وهى تبتسم:

-أملنا فى الله وفيك يا شيخ كريم كبير، لقد أخبرت عماد أنك لن تخذلنا.

وخفض الشيخ كريم رأسه بتقوى، وغمغم :

-الأمل كله بيد الله وحده..إنما نحن أسبابه يا سيدتى.

قال عماد وقد غمره الأمل:

-إذن ماذا علينا أن نفعل الآن؟.

-يجب أن أراها فى البداية.. هذه هى الخطوة الأولى.. سيكون هذا بعد صلاة مغرب اليوم لو كان هذا مناسبًا.. فقط اتركوا العنوان مُفصلًا عند داليا، مساعدتى بالخارج ومعها الأتعاب، وسوف أكون عندكم فى الموعد الذى حددته.. كونوا بانتظارى ولن أتأخر.

*****

(4)

حضر الشيخ كريم فى موعده تمامًا بعد صلاة المغرب مباشرة، وطلب على الفور أن يرى أم عماد. كانت أم محسن وعماد والحاج رضا بانتظاره..وتقدمته أم محسن نحو حجرة أم عماد. عبق المكان برائحة عضوية عفنة وشت بأن أم عماد قد أطلقت العنان لفضلاتها. لم يبد على وجه الرجل أى تأفف واتجه نحوها بلا تردد دون أن يولى اهتماماً لأم محسن التى راحت تعتذر عن تلك الرائحة الشنيعة.. جذب مقعدًا خشبيًا من أحد الأركان وجلس أمامها. وبينما راح ينظر إليها متفحصًا راحت أم عماد ترمقه ببرود ولا مبالاة. بعد لحظات أغمض الرجل عينيه، وراح يردد فى سره كلمات مبهمة وقد وضع كفه على جبهتها. مضت لحظات من الترقب، وعماد يتابع بعينه ما يفعله الرجل حتى شق الصمت صوت أمه. وخرج من فمها نفس الصوت الغليظ المخيف:

-من هذا الأحمق، وما الذى يفعله هنا؟. هل أتيت بمهرج ليرى أمك ياعماد؟



قالتها لعماد وأطلقت ضحكة صاخبة مخيفة,وقبل أن يتحدث عماد أشار إليه الشيخ كريم ألا يفعل.. وبينما استمر الرجل فى تراتيله الخافتة دون أن ينصت إليها, واصلت هى فى حديثها:

-أنت تمزح أيها المهرج بحق..ما هذا الهراء الذى تتمتم به..ارفع صوتك بما تقوله ليسمعوك وليضحكوا معى..إنه مهرج..مهرج يا حمقى.

قالتها وعادت لتضحك ثانية..وبينما توتر عماد, فتح الشيخ كريم عينيه وقال لها بثقة وهو يرسم بكفه فى الهواء حول رأسها دوائر وخطوط وهمية متشابكة:

-أشعر بخوفك منى, وأفهم ما الذى تروم إليه بنعتى بالمهرج..أنت تعلم أننى سوف أخرجك من جسدها. أنت تدرك أننى قادر على فعل ذلك.

لكنها ردت عليه بتحدٍ, وقالت :

-أنت واهم. وأعدك أن تدفع ثمن تحديك لى. أنت ترتجف بداخلك وتعلم أنك عاجز أمامى. هيا اخبرهم بهذا ولن أؤذيك كثيرًا..أفعلها لأصفح عنك.

وجم الشيخ كريم ولم يرد. رمقها للحظة, ثم نهض من مقعدة والتفت نحو عماد وقال وهو يخرج من الحجرة:

-لقد انتهيت.. دعنا نكمل حديثنا بالخارج.

لكنها عادت لتتكلم بمكر:

-تسمى نفسك الشيخ كريم..أليس كذلك. لديك فتاتين. يمكننى أن أراهما. الكبيرة فاتنة بشعرها الطويل الأحمر, والصغرى تشبه أمها التى طلقتها منذ عشرة أعوام..

انتفض الشيخ كريم فجأة,وتسمر فى مكانه للحظة, وبان على ملامحه الفزع لأول مرة وقد اختفت ثقته بنفسه. رأى عماد كل هذا فى وجهه فاضطرب هو الآخر, وانتظر أن يبدأ الشيخ كريم بالحديث ليفسر له ما يجرى. مضت لحظات من الترقب ظل الشيخ كريم خلالها يرمق الحجرة بتوتر قبل أن يشيح وجهه ويقول:

-أغلق الحجرة عليها..لا أريد أن تزيد من توترنا بحديثها هذا. إن من يستحوذ عليها شرير جدًا وماكر للغاية.

وصلهم صراخها وضحكاتها المكتومة عبر الباب المغلق, فأكمل بقلق:

-إنه جن قوى كما لم أرى من قبل. أعتقد أنه أحد أمراء الجن الأحمر. إنهم من يمتلكون القوة ليفعلوا شيئًا كهذا.

ارتجف الجميع لوقع كلماته فى قلوبهم, وغمغم عماد بصوتٍ مختنق:

-وهل يمكنك التغلب عليه؟.

عادت الإبتسامة الواثقة إلى وجه الشيخ كريم واسترد وجهه حمرته, وقال:

-سوف أخرجه منها بالطبع؟. لكن هذا سيتطلب بعض النفقات, والإعدادات والمساعدة من آخرين.

أجابه الحاج رضا وهتف وهو يلوح بكفه:

-افعل أىَّ شىء ولا تُلْقِ بالًا للنقود. اطلب ما شئت ياشيخ كريم وسوف نعطيك, لكن اطرد هذا الملعون من جسد أم عماد..

لم يكن هناك ما يضيفه عماد كان ليدفع عمره نفسه ثمنًا لشفاء أمه..لذا فقد هزَّ رأسه للشيخ كريم مؤكدًا ما قاله جاره, فقال الشيخ كريم بارتياح:

-على البركة..لكن هناك شيئًا ما يجب علينا أن نقوم به أولًا.

رمقه الجميع بتساؤل, فأخرج من حقيبته الجلدية الصغيرة مِحْقَنًا وأمبولًا زجاجيًا كسر عنقه وسحب ما به من سائل وهو يقول:

-سأعطيها مُهَدِّئًا ما..يجب أن نجعلها تنام قليلًا..كما يجب علينا أن نقوم بتنظيفها. لن نتركها لتتعفن فى فضلاتها هكذا.

رمق عماد المحقن بتشكك ولاحظ الشيخ كريم هذا فقال له مطمئنا:

-اطمئن أنه مهدئ طبى يدعى فاليام. إنها بحاجة له كى تهمد ثورتها.

قالها واتجه نحو حجرتها ثانية مُكمِلًا:

-ليساعدنى أحدكم, أحتاج لمن يقيد ذراعها.

*****

(5)

غابت أم عماد عن الوعى تمامًا بعد أقل من نصف الساعة من حقنها بالمهدئ. وتعاون عماد وأم محسن على نقلها للحمام, وتنظيفها, بدلوا ملابسها, بأخرى نظيفة, واقترحت أم محسن أن يلبسوها كافولة من تلك التى يستعملها كبار السن والمرضى فوافق.. أعادوها بعد ذلك ثانية للفراش لكن دون أن يقيدوها إليه هذه المرة..كانت تغط حينها فى نومٍ عميق,ولم يَبْدُ عليها أنها ستفيق قبل ساعات, لذا فَضَّلَ عماد ألا يقيدها الآن..

غادرته أم محسن وجلس عماد على طرف فراش أمه يتأملها بأسى.تمنى لو يعلم هل تعود كما كانت ثانية, أم تراه قد فقدها للأبد. تمنى لو استطاع البكاء ليريح لوعته قليلًا..مضى وقت طويل وهو بجوارها سابحًا فى أفكاره

السوداء, حتى انتبه إلى صوت تليفونه يتردد رنينه بغرفته, فذهب إليه. كانت منى من يتصل به..تنهد قبل أن يرد, وقد تذكر أنه لم يكلمها طوال الوقت. توقع ثورتها وهو يجيبها ولم يكن مخطئًا فى هذا. وصرخت فى وجهه على الفور فور أن أجاب الإتصال:

-أخبرنى أنك تمزح معى. هيا أخبرنى أن هذا هو غرضك من تجاهلى طوال اليوم, وتجاهلك إجابة اتصالى بك, أم تراك تهرب منى بعد حديث الأمس..هل هذا قصدك يا عماد ؟.

كان اخر ما يريده الآن هو الشجار, وحاول أن يتمالك أعصابه معها كى لا يثيرها, فيزداد غضبها, وقال بهدوء:

-إنها أمى يا منى. لاتعلمين حتمًا ما أصابها.. لكن هل يمكنك أن تهدأى قليلًا لأخبرك بكل شىء

وصله عبر الهاتف صوت تنفسها البطىء ومرت لحظات من الصمت قبل أن تقول:

-هل هى بخير؟.

قصَّ عليها كل شىء بإيجاز, لاذت بالصمت ولم تعقب, فقال لها بحذر:

-لماذا كل هذا الصمت؟..

-أنت لا تخترع كل هذا كى تهرب منى بعد حديث الأمس بيننا؟. أعنى أنها ليست حجة لتتفادى التقدم لخطبتى؟!.

كتم أنفاسه غيظًا لحماقة ما تقوله ورد ببطء:

-وهل يمزح المرء فى أمورٍ كهذه. هناك أم محسن يمكنك أن تسألها, وهناك الحاج رضا, لقد شهد الأمر هو الاخر.

شعرت أنها قد آذته بشكها، وأن كلامها كان سخيفًا يخلو من اللباقة. كان عليها أن تُشعِرهُ بمشاركتها له فى مصيبته تلك، لا أن تتهمه بإختلاقها. وزفرت نفسًا عميقًا وغمغمت:

-وكيف هى الأن. هل تحسنت؟.

-إنها نائمة. أتمنى أن تظل هكذا طوال الليل، فأنا أتوق أنا الأخر للنوم بشدة. وبالكاد أمنع جفناى من السقوط.

-هل يمكننى أن أزورها بالغد لأطمئن عليها. سوف أجلب أمى معى.

اعترض على اقتراحها على الفور، وقد رفض أن تشهد أمها أمه على هذا الحال..لذا هتف على الفور:

-لا داعى لهذا أبدًا. الأمر لا يستحق العناء. أعدك أن أخبرك حين تتحسن ويعود اليها إدراكها كى تزوريها كما تشاءين، لكن ليس الأن.

-كما تريد. لكن عليك أن تحظى ببعض النوم الأن وسوف أطمئن على كليكما بالغد.

أنهى المحادثة وهو يشعر بإرهاق لا حَدَّ له..خلع حذائه وألقاه بإهمال بجوار الفراش ورقد عليه بملابسه دون أن يغيرها..كان يتوق للنوم جدًا ويشعر أنه على وشك أن يفقد وعيه من الإرهاق.. وبالفعل لم تمض لحظات حتى تعالى صوت شخيره..

وفى الثلث الثانى من الليل، بدأت الأحداث الغريبة فى حجرة أمه..توهجت الحجرة المظلمة بضوء أحمر دموى رهيب. ضوء شيطانى مفزع.. وعلى الجدار الخلفى لفراش أم عماد توهج الرسم الشيطانى ثانية.. ثعبان نارى يلتف حول نفسه وقد ارتفع رأسه، وتوسط الفراغ الذى صنعه بجسده جمجمة نارية العينان لها قرنان على جانبيها، وأسفل الرمز الشيطانى

بدأت كف شبحية تنطبع على الجدار وتتنقل من بقعة لاخرى نحو السيدة الراقدة فى إغماء عميق حتى وصلت لرأسها. هنا ظهر لها جسد ضبابى ورأس بلا خلجات وعينان حمراوان كالدم..راقب الجسد الشبحى المرأة الراقدة للحظات قبل أن ينحنى نحو أذنها ويحدثها بلغة لا يعرفها البشر.

تململت أم عماد وهمهمت بكلمات مبهمة لكن عقلها الذى كان أسيرًا للمهدئ القوى الذى حقنوها به لم يستجب. بدا وكأنه غير قادر على إجابة ذلك النداء. لكن الشبح المفزع لم ييأس، ورمقها بنظرة غاضبة قبل أن يرفع كفيه عاليًا فى الفراغ، ويبدأ فى ترتيل تعويذة ما. تعويذة مريعة لا يعوزها القوة.

بحق ناسوت، وقدرة أحنوت آمركم أن تخضعوا.. بحق ملباخ وقوة أشطيباخ أفيقوا. أزوث المغلوب يناديكم فَلَبُّوا. هبوكم بالا تاطشو. كوما تادو أحون، أحون، أحون.

فى اللحظة التالية امتلأت الجدران بعشرات الخيالات التى راحت تهمس فى إيقاع موحد وهى تردد التعويذة من خلفه، وبعد دقيقة كانت أم عماد قد نهضت من رقدتها بحركة آلية وجلست على طرف الفراش وقد ارتفعت مقلتى عينيها لأعلى وعلى شفتيها ابتسامة مُخِيْفَة. راحت هى الأخرى تردد التعويذة المخيفة مع الظلال المخيفة، قبل أن ينتهى كل شىء فجأة..اختفى الشبح.وابتلع الجدار الظلال التى على سطحه، وتوقفت الهمسات ولم يعد الرمز الشيطانى الذى على الجدار موجودًا..

لقد أفاقت أم عماد وكان هذا كافيًا كى يبدأ المرح ثانية..

غادرت حجرتها، دون أن تبالى بالظلام الحالك بالصالة، وتحركت مباشرة نحو حجرة عماد. فتحت الباب ودلفت بهدوء قبل أن تتحرك نحو الفراش

الذى رقد عليه عماد فى نومٍ عميق. جلست على طرفه ومالت نحو أذنه ثم بدأت تهمس..

مضت لحظة قبل أن يتحرك عماد من الفراش..وبينما استمرت هى فى همساتها بدأ جسده فى الإرتفاع عن الفراش. هنا بدأ عقله الباطن يشعر بالحيرة من هذا الوضع الغريب الذى لم يألفه، وبحث كالمحموم فى ثنايا خبراته المتراكمة عن خبرة كهذه ربما عرفها من قبل، فلم يجد..وحين شعر أن الأمر يفلت من يده، هرعت رساله نحو وعى عماد النائم لتوقظه ليرى ما عليه أن يفعله..

فتح عماد عينيه ليجد نفسه على ارتفاعَ مترين كاملين من الفراش ولا يفصله عن مروحة السقف الساكنة إلا مترًا واحدًا. هَزَّ رأسه للناحيتين بجنون وهو لا يصدق ما يحدث له، وهو يصرخ برعب حقيقى:

-ما الذى يحدث ها هنا. أين أنا؟.

رأى أمه التى رمقته ببرود وقد غربت مقلتيها فبان بياض عينها، وهى تردد تعويذتها المربعة. كان هذا أكبر من أن يحتمله فراح يصرخ. راح يصرخ وهو يحاول بكل قوته أن يفلت من قوى خفية ترفعه فى الهواء وتمنعه من السقوط..لكن جسده استمر فى الإرتفاع ببطء نحو السقف ورأى فى هذه اللحظة كيف بدأت مروحة السقف فى الدوران. تضاعف الهلع فى نفسه، وارتفع صراخه اليائس، وظلت أمه ترمقه بثبات وفمها لا يتوقف عن الهمهمة الخفية..بدت وكأنها تلعنه بتعويذة ما.

ازدادت سرعة المروحة أكثر وأكثر، وبدأ يشعر بهوائها البارد يضرب جسده الذى يقترب منها حثيثًا. فأحس بفزع لم يشعر به من قبل، ووجد نفسه يفكر بجنون كيف يحتمل ما هو مقبل عليه حين تبدأ أذرع المروحة الحادة فى تمزيق لحمه وجلدة، وتهشيم عظامه..

راح يستجديها أن تتوقف، وقد دنا جسدة من الأذرع المعدنية العملاقة، حتى كاد أن يلامسها، ثم أطلق صرخة أخيرة وهو يتمنى، أن ينتهى الأمر بسرعة وألا يطول عذابه.

يقولون أن قطع الرقبه لا ألم فيه،وقرأ من قبل مقالة تؤكد أن ذبح الطيور هو ،نطريقة المثلى لقتلها دون ألم حقيقى..قرأ أن العصب الحائر بالرقبه هو أول ما تلمسه حد الشفرة، وأنه حينها، وفى أقل من جزء من الثانية يرسل رساله لمراكز الألم فى المخ أن تكف عن عملها وأن تهدأ. هذا ما يقوله العلماء لكن هل عاد أحد للحياة بعد ذبحة ليؤكد هذا الهراء؟..

فى اللحظة التالية كانت النجدة قد وصلته. وظهر الأستاذ محروس وقد جذبه صراخه فاندفع إلى شقته لنجدته. لم يفكر فى طرق الباب بل راح يضربه بكتفه على الفور حتى انهار الباب، تجمع حوله آخرون من سكان البيت.الحاج رضا وابنه إسماعيل وطه وأم محسن وابنتها وزوجها. وكان الأستاذ محروس أول من وصل الحجرة ورأى الهول..

كان عماد مُعَلَّقًا فى الهواء وجسده يندفع بإصرار نحو المروحة التى راحت تدور بجنون لم تفعله من قبل كأنما تشتهى بجنون تذوق اللحم البشرى والدماء. وشاهد كذلك أم عماد التى تجمدت بمكانها بطريقة غريبة وهى تتابع ما يحدث ببرود وتتمتم كلمات غريبة.. للحظة تسمر فى مكانه ذاهلًا..لكن صرخة من فم عماد أيقظته من سباته فتحرك وفعل الشىء الوحيد الصائب..ارتمى على جسد أم عماد فسقط بها أرضًا..وكالسحر هوى جسد عماد هو الآخر نحو الأرض على الفور بعد أن لامست الشفرات الحادة للمروحة شعر رأسه. كان من حسن طالعه أنه سقط على الفراش فلم يتأذى كثيرًا. بعدها راحت المروحة تبطئ من دورانها ببطء، بينما اشتعل مصباح الإضاءة وتعالت صرخات أم عماد الوحشية وهى تدفع الأستاذ محروس بيدها بعيدًا عنها..

ومرة أخرى تكالب الجميع عليها للسيطرة على جنونها. لم يبالوا بجنونها ولا صرخاتها أو احتجاجها، وتعاونوا على تقييدها ثانية، تابعهم عماد بعيون زائغة، دون أن يقدر على فعل أىَّ شىء.ظل يرتجف فزعًا، وأذرع المروحة الحادة لا تفارق ذهنه. كان يعيش كابوسًا يأبى أن ينتهى.

*****

(6)

فى صباح اليوم التالى جلبت له أم محسن بعض التناول فتناول منه القليل.. فكر فى أمه التى لم تتناول الطعام منذ يومين، فدخل عليها حجرتها حاملًا بعض الشطائر، ورفعها أمام بصرها قائلًا:

-هل ترغبين فى تناول شىء ما..

رسمت ابتسامتها التى لا تنتمى إليها، وقالت وهى تمط رقبتها نحوه:

-ربما أكون جائعة،لكنى أتوق إلى شىء آخر غير طعامك السخيف هذا.

-أطلبى ما شئتِ، وسوف أحضره لك.. هل تريدين لحومًا.. جبنًا.. أنتِ تحبين المكرونه، هل تريدين أن أطهو لكِ بعضها.

-أريدكَ أنت !.. ظننتك أدركت هذا.

اهتزت الصينية فى يده، فتراجع فى توتر، وعادت لتضحك مرة أخرى ضحكتها المجنونة الصاخبة. خرج من حجرتها بعد أن أغلقها خلفها ثانية، وهو يحاول ألا يستمع لصرخاتها أو تهديداتها..

وجاء الشيخ كريم فى المساء بعد صلاة العشاء كما وعد. كان أنيقًا كعادته، واثقًا من نفسه بشدة كأنما هو ذاهب فى رحلة.. وفوجىء عماد بمن أتى معه.

كانوا عشرة كلهم من الزنوج. ثلاث رجال ضخام، وسبع سيدات فى منتصف العمر تقريبًا، وكلهن يتسمن بالبدانه. ارتدى الرجال حلة موحدة سوداء، وارتدت السيدات فساتين سوداء طويلة، كشفت عن أذرعهم كاملة رغم الطقس البارد. راحوا يتحركون أمامه فى الصالة بسرعة، وهم يدخلون مُعِدَّاتِهم وأغراضهم. رمقهم بحيرة وهو لا يدرى من هم وما الذى يفعلونه، وتسرب الشك فى قلبه حين رأى الدفوف التى حملها أحد الرجال. هنا التفت نحو الشيخ كريم ليفهم منه ما الذى يجرى.. لكن الأخير بادره بالإجابة :

-إنهم فرقة إفريقيه من نيجيريا تمتلك موهبة حقيقية فى طرد الجان أو الأرواح الشريرة، وكثيرًا ما أستعين بهم فى أعمالى. سترى بعد قليل كم هم بارعون فى عملهم.

-هل سيقومون بطقوس وثنية مثلًا؟

-ليس وأنا موجود يا رجل. هل تمزح؟. طقوس وثنية فى حضرة شيخ يعالج بالقرآن. لقد شططت فى تفكيرك حتمًا.

نصبت سيدتان فى تلك اللحظة قائمًا خشبيًا فى منتصف الصالة وراحت أخرى تثبت عليه بعض الستائر الملونة. وأحس عماد أن الأمر يشبه أمرًا يعلمه. شىء ينتمى للجزعبلات والتخاريف الشعبية، فهتف مستنكرًا:

-هل سيقومون بعمل زار؟..

أسرع الشيخ كريم بالإجابة التى يبدو أنه ذاكرها مرارًا:

-ليس بالصورة التى تتخيلها، إنها طقوس مختلفه تمامًا أبعد ما يكون عن الدجل، إن طقوس طرد الأرواح الشريرة أو الجان أو المس الشيطانى، أو القوى السفلية متنوعة بشدة. والجميع فى كل مكان يقوم بها.. هنا يقوم

بها الشيوخ، وبالغرب المسيحى هناك القساوسة تحت إشراف الكنيسة والفاتيكان نفسه، وفى اليهودية هناك الحاخامات، وفى البوذية والكنفوشيسيه يقوم بها الكاهن، وفى المجتمعات البدائية يقوم بها ساحر القبيلة.. كل هؤلاء يمتلكون الطقوس الناجحة للغاية لو شئت رأيى. إن استخدام نصوص ورموز دينية معينة، أو طلاسم وكلمات سحرية مناسبة، قد تكون بقادرة على إجبار الكيان الشرير الذى يستحوذ على جسد ضحيته على مغادرة هذا الجسد.. كُلٌ يقومُ بالأمرِ بطريقته، وكُلٌ قد يكون ناجحًا فى عمله هذا. إن ما يعنينا فى النهاية أن نبرئ الضحية، وليس نوع الطقوس المستخدمة فى هذا.

قالها وأشار نحو أحد السيدات البدينات والتى بدا أنها أكبرهن عمرًا. ابتسمت له حينها، وأومأت برأسها لهما حين لاحظت الإصبع الذى يشير إليها، بينما استطرد الشيخ كريم وهو يومئُ برأسه لها هو الآخر مُحَيِّيًا :

-هل ترى هذه..إنها (ماتا كولاباكاتو). أدعوها ماتا للتيسير. لقد ظل أجدادها لقرون، هم أشهر سحرة أحراش السافانا. تعملت فنون السحر منهم، لكنها لم تكتفى بميراثهم. لقد درست الأمر وحصلت على شهادات علمية فى محاربة الأرواح الشريرة. الحق يقال أننى وقعت على كنز كما يقولون حين استطعت إقناعها بالعمل معى. إنها بارعة للغاية فيما تقوم به، ولم تفشل مرة واحدة فى عملها..

شعر عماد أن عقله يرفض الأمر كله، وتداعت لذاكرته فتاوى قرأها من قبل حول تحريم الزار وكيف يُعَدُّ شِرْكًا بالله.. نظر إليهم وما زالوا فى حركتهم الدائبة، لإعداد المكان، وفكر فى طردهم.لكنه تذكر كيف صارت أمه، فأحجم.

ظهرت أم محسن ورَحَّبَت بالشيخ كريم ونظرت إلى الزنوج الذين يدورون حولها دون أن يبالوا بوجودها، وراحت تتابعهم بفضول وحماس..مضت دقائق من الصخب قبل أن يصير المكان مُهَيَّأً..

أُطفِئَتِ الأنوار واشتعلت الشموع وخرجت سحب البخور الكثيفة من معقلها وارتفعت فى المكان موسيقى إفريقية مميزة كانت الطبول هى مركزها، ثم صرخت ماتا فجأة، وقد أولت ظهرها للنصب القائم فى منتصف المكان والذى علته الكثير من الأقنعة الغريبة المخيفة، وقد امتلأ وجهها بالخطوط الطولية الحمراء والبيضاء والزرقاء، وراحت ترقص رقصات مجنونة وهى تدور حول النصب، يتبعها الزنوج الآخرون. تراجع عماد، وبسملت أم محسن وحوقلت، ومازال الشيخ كريم فى تمتماته المبهمة وهو يرقب ما يجرى بهدوء.. وبعد دقائق قليلة من الصخب أشارت ماتا إليهم ورأسها لا يكف عن الدوران فى الهواء تتبعه جدائلها الكثيرة الطويله،فهتف الشيخ كريم فى عماد :

-لقد حان الوقت..دعونا نحضر أمك

دخلوا حجرتها فرمقتهم بخواء وإستسلمت لأيديهم التى حررتها من قيودها..ثم تعاون كريم وأم محسن وأحد الشباب الزنوج على إخراجها للخارج..

تكاثفت سحب البخار وازدادت حدة الطبول، وراحت الفتيات الزنجيات يدرن فى هستيريا حول النصب، ثم انضم الشاب الأسود الذى يمسك أم عماد ومعه عماد الذى يسندها من الناحية الأخرى.. شعر عماد بالغثيان بعد لفتين وهو يسند أمه لكنه استمر..وراحت أغنية بربرية تردد تجاوبها أصوات تخرج من حناجر بدائية. صار الأمر جنونًا. شعر عماد أن أمه قد



خف ثقلها وأنها صارت لا تحتاج اليه فى دورانها فجرب أن يترك ذراعها، فراحت تدور بمفردها وبسرعة مماثلة للجميع..

كانت تبتسم الأن فى نشوة وتصرخ كالأخرين،ولا يدرى هل كان يتخيل ما يراه بفعل الدخان والظلام أم أنها بالفعل تردد مع الأخرين تراتيلهم وأغنيتهم البدائية التى لا يفهمها..

تراجع للخلف ووقف بجوار الشيخ كريم الذى راح يرقب ما يجرى دون أن يشاركهم أو يتدخل، وكاد أن يبتسم حين رأى أم محسن هى الأخرى وقد اندمجت فى الرقص كالأخرين، وراحت تدور هى الأخرى وجسدها البدين للغاية يترجرج بلا توقف..

كان الجنون؛ يضحك منتشيًا الأن، وقد فقد المنطق عقله.. وراحت عشرات المطارق تضرب رأسه بلا توقف كأنما ترد على تلك التى الطبول التى تُقرع بالخارج، وبعد نصف الساعة همد كل شىء فجأة، ثم سقط الجميع على الأرض بغتة بما فيهم أمه وأم محسن كأنما فقد الجميع قواهم مرة واحدة..

لكن ماتا لم تفعل وكذلك أحد رجالها الذى اندفع نحو قفص خشبى وفتحه وأخرج منه غرابًا أسود راح ينعق بلا توقف. التقطت ماتا الغراب بيد،وبالأخرى رفعت خنجرًا غريبًا ذو حد مسنن ونهاية ملتوية، من حزامها ودون تردد هوى الخنجر على رقبة الغراب فسقط رأسه على الأرض وانطلقت من رقبته نافورة من الدم،فألقت ماتا الغراب فى حجر أم عماد وصرخت وكذلك فعل-، الأخريات.

راح الغراب ينتفض فى حجر أم عماد التى لم تتحرك حينها، وهى تنظر إليه ببرود..

وصمت الجميع بترقب، وبدا الصمت مخيفًا على ضوء الشموع ودخان البخور.. وابتلع عماد ريقه وهو يتساءل فى سره "ماذا بعد؟"

وفى اللحظة التالية أتت الإجابة على تساؤله الصامت..نهضت أمه فجأة ورفعت ذراعيها لأعلى فسقط الغراب الذبيح على الأرض،وراحت تضحك.. توتر الجميع حين أنطفأت الشموع فجأة وساد ظلام مخيف فى المكان كله.. ثم راح صوت أجنحة تخفق فى الفراغ. ومن قلب الظلام انبعثت الصرخات الفزعة. كان كل من بالمكان يصرخ برعب لا حدود له

حاول عماد أن يشعل المصباح الكهربائى لكنه لم يستجب لمحاولته، فأخرج من جيبه هاتفه المحمول وأوقد شاشته وعلى ضوء شاشته الخافت رأى الهول..كان الغراب الذبيح فى تلك اللحظة يطير بلا رأس وهو يضرب بجناحيه وجوه الجميع والزنوج يتدافعون ويصطدمون ببعضهم فى الظلام بلا هدى، للفرار من عدو وهمى. وَجَّهَ الضوء نحو أمه فرأى ابتسامتها المخيفة. ثم راحت صفعات من أيدٍ خفية تضرب وجه الشيخ كريم وضيوفه، فراح يصرخ هو الاخر وهو يخفى وجهه ليحميه.

وهتفت أمه فى اللحظة التالية بصوتٍ مخيف :

-حمقى..كلكم حمقى..

وحين حرك عماد ضوء شاشة محموله نحو الجدار شاهد الرعب، كان الحائط يمتلئ بالظلال المُخِيفَة. ظلال شبحية من الدخان وأياد ومخالب تخرج منها وتضرب الجميع بلا توقف. هنا اصطدم به أحد الزنوج فسقط أرضًا وسقط تليفونه المحمول من يده.. شعر بالرعب وهو يتخيل أن تقتنصه تلك الظلال هو الأخر. ولم تتوقف الصرخات الفزعة لحظة واحدة.. الكل كان يصرخ ويتألم. وتصاعد فى الهواء رائحة شيطانية لجلود ولحم بشرى يحترق.

ومرة واحدة فُتِحَ باب البيت دون أن يدرى من فعلها. وعلى الضوء المتسرب من السلم رأى الأبدان التى تلقى للخارج كأنما تركلها أقدام ضخمة. كانت أجساد الزنوج عارية تمامًا وكانت مليئة بالكدمات والحروق والجروح والدماء. لكن أيًا منهم لم يلتفت إلى إصاباته أو عريه وهم يولون الأدبار هاربين، وكان أخرهم الشيخ كريم الذى ما أن لامست قدماه السلم حتى راح يجرى عاريًا هو الأخر لايلوى على شىء.. وبعد الدقيقة عاد الصمت، ثم اشتعل المصباح الكهربائى فجأة فأضاء المكان..

صار المكان خاليًا إلا منه وأم محسن التى فقدت وعيها، وأمه التى ما زالت منتصبة كما هى وقد عقدت ذراعيها أمام صدرها..كانت ترمقه بسخرية، وابتلع ريقه بصعوبة وتصبب العرق من جبينه وهو ينتظر الخطوة التالية..هل تؤذِهِ هو الأخر..لكنها اكتفت بأن قالت بصوتٍ كالفحيح :

-حمقى.. أنتم مجرد حمقى لا أكثر.

قالتها وسارت نحو حجرتها بهدوء كأنما لم تفعل شيئًا. وزفر بيأس وهو ينحنى نحو جسد أم محسن ليوقظها.

*****

(7)

انتشرت الأخبار والشائعات فى الحى كله، راح الكل يتحدث عن المس الشيطانى المخيف الذى أصاب أم عماد، حتى علمت أم منى هى الأخرى بالخبر، فتحدثت إلى ابنتها بظفر. لقد انتهى أمر عماد. راحت بقـ ـوة تلقى على مسامعها كلمات كالأحجار تمزق قلبها ومشاعرها. وجدت منى نفسها تتركها وتلوذ بحجرتها لتتصل بعماد. تجاهل اجابة اتصالها فى المرة الأولى

والثانية. لكنها ألحت، واتصلت به مرة أخرى فأجاب. وأتاها صوته مرهقًا متعبًا لكنها بادرته :

-أريد أن أقابلك الأن. الأمر عاجل.

حاول التملص منها وهو فى أسوأ حال ممكن، وغمغم:

-ألا يمكننا تأجيل الأمر؟..

صرخت فيه:

-لقد ذكرت أنى أريد أن أراك الأن، سأقابلك الأن وليس فى وقتٍ أخر.. يجب أن أراك الأن لنتحدث.

-ألا يمكنك أن تخبرينى فى الهاتف بما يدور فى عقلك؟..

-أريد أن أراك الأن يا عماد..ولن أتحدث إلا أمامك..كفى تحطيمًا لأعصابى وقابلنى الأن.

كانت تصرخ..وكان صوتها يرتجف وهى تبكى. لكن ماذا عن أمه. لم يكن ممكنًا أن يتركها هكذا بمفردها.كانت تجلس فى تلك اللحظة على الكنبة المقابلة له متربعة، متجمدة كالتماثيل، ولولا تنفسها البطىء لظن أنها ماتت. لن تقبل حتمًا أم محسن أن تعتنى بها لو طلب منها هذا بعد ماحدث لها بالأمس فى جلسة الزار، ومن العسير أن يتركها الأن..لذا أجاب منى:

-لا يمكننى يا منى أن أخرج الأن. لا أستطيع أن أترك أمى بمفردها..

-إذن سوف أتيك أنا لنتحدث فى بيتك. هذا أفضل. إننى بالفعل أرغب فى الإطمئنان على أمك.

كان هذا آخر ما يرغب فيه..لم يكن ما حدث لأمه عيبًا يدعو للخجل, لكنه لا يرغب أن تراها منى هكذا..خشى أيضًا أن تبادر أمه بتصرفٍ ما من تصرفاتها الشاذة فتفزع منى, أو تثير نفورها منها.. لذا صاح رافضًا الإقتراح:

-هذا غير ممكن الآن يا منى..أعدك أن نتقابل فى الغد.

-كلا لن نفعل.. سوف أتى لمنزلك الآن..يمكنك أن تطردنى لو شئت, لكنك لن تستطيع أن تمنعنى من القدوم

قالتها وأغلقت الهاتف كى لا تستمع لاعتراضه..

ألقى عماد الهاتف من كفه نحو الكنبة المقابلة بحنق.. أحنقه إصرار منى على القدوم لبيته فى هذا الوقت العصيب. رمق أمه وهو يفكر ما الذى يمكن أن تفعله مع حبيبته حين تأتى رغم أن أمه منذ الأمس ظلت هادئة كطفل وديع..لم تصرخ كعادتها, ولم تطلق الضحكات الساخرة, بل ولم تغادر مكانها من فوق الكنبة التى تجلس القرفصاء عليها, جامدة متصلبة كتمثال فرعونى قديم. تمنى لو استمرت هكذا حتى تنتهى منى من زيارتها. من السهل أن تتقبل غرابة تصرفاتها, لكن من العسير أن يطالبها بتقبل تصرفاتها الشاذة المجنونة لو عادت لثورتها وجنونها. ووجد نفسه يدعو الله فى سره أن يتم الأمر على خير..

أتت الطرقات الخفيفة التى تصدرها أنامل رقيقة على خشب الباب, فنهض من فوره ليفتح الباب, والقى نظرة سريعة على أمه قبل أن يفعل ليطمئن لهدوئها..دخلت منى ورأى آثار نحيبها على أهدابها المبتلة وعيونها المحمرة..دلفت الصالة وابتسمت بشحوب وهى تحى أمه من بعيد:

-كيف حالك يا ماما؟ لقد أوحشتنى.

ابتلع عماد ريقه بقلق منتظرًا ردة فعل أمه..لكنها لم تتحرك, فأسرع يقول لها وهو يجذبها من ذراعها ليجلس معها فى ركنٍ بعيد من الصالة:

-انها لا تجيب أحدًا كما ترين. دعينا نجلس هناك ونتحدث..

جلسا على مقعدين خشبين والتفت إليها عماد بجسده بينما أطرقت هى رأسها للأسفل وهمس:

-والآن ماذا هناك..

لم ترفع رأسها وقالت بشىء من الحزم:

-ما الذى تعانيه أمك بالضبط يا عماد..أخبرنى بالحقيقة من فضلك ولا تخفى شيئًا.

وجم للحظة مفكرًا وقد علم لماذا هى ثائرة, ولماذا لم تنتظر للغد. لقد سمعت حتمًا بما حدث لأمه. قرر أن يخبرها بالحقيقة, وليترك لها حرية اتخاذ القرار بعدها.

انتهى من قصة فربتت على كفه بتعاطف, ورمقت أمه الساكنة للحظة بإشفاق, وغمغمت:

-أليس محتملًا أن تكون مريضة بمرض نفسى ما.. لماذا لم تفكر فى أن يراها طبيب ما؟..

كان اقتراحًا فكر فيه من قبل..لكنه استبعده حين تذكر ما جرى من أمه وخاصة بالأمس..ما زالت صورة الغراب الذبيح الذى عاد يطير ثانية ويضرب بجناحيه الجميع فى مُخَيِّلَتِهِ, ولا يُبارحها قَطّ. المرض النفسى لن يفعل هذا أبدًا. المرض النفسى لن يحرك غُرَابًا مذبوحًا..إن ما يحدث هو شىء شيطانى مخيف..

-لا أعتقد أنها تعانى من مرضٍ ما.. الأمر مختلف تمامًا.

ران الصمت للحظة, وهى تفكر فى كلمات أمها, ثم طرحت عليه الإحتمال المخيف الذى أخبرتها به أمها, قائلة:

-وماذا لو لم تبرأ أمك مما بها؟. ما الذى سيحدث حينها؟.

-سأحاول ثانية وثالثة ورابعة حتى أنجح..لن أتركها بالتأكيد هكذا ولن ألقى بها للشارع

أرادت أن تسأله "وماذا عنى ؟.."، لكن أمه تحدثت حينها للمرة الأولى.. وصرخت فيه بجزع مزيف:

-هل تريد أن تلقى أمك فى الشارع أيها العاق..انظرى يا فتاة ما الذى ينويه..سيلقى بأمه المريضة فى الشارع. لكنه لن يفلح. لن يتخلص منى هكذا. إننى معه للأبد, ولن أتركه أبدًا.

ثم ضحكت فرددت الجدران صدى الضحكة المخيفة. وارتجفت منى حين سمعت ما قالته, واتسعت عيناها برعب وهى تحبس أنفاسها وتراقبها بحذر..بينما هتف عماد فى قلق وهو لا يفكر إلا فى منى فى تلك اللحظة:

-اهدأى يا أمى بالله عليكِ..إننى لم أقل أبدًا أننى سالقيك فى الشارع,ولم يراودنى تفكير ما فى فعل هذا أبدًا.. هنا تحركت أمه نحوه ومالت نحوهما وقالت هامسة:

-لكن هذا لن يرضى خطيبتك أو أمها..ألم تخبركِ أمك يافتاة أننى قد جننت وأننى لن أشفى..إن هذا صحيح بالفعل.. لقد جننت وسوف أظل هكذا. سوف ألزم عماد للأبد ولن يتزوجك ما دمت حية. أليس هذا ما جئتِ من أجله. ها أنا أجيب أسئلتك. عودى لأمك وأخبريها أنكِ توافقين على العرس الذى جلبته لكِ. هيا أخبرها يا عماد أنك ستلزم أمك المريضة

ولن تتركها ولن تستطيع أن تتزوجها.. أنت تفكر فى هذا الآن. أخبرها بالحقيقة ولا تخجل مما تفكر به.

راحت منى تنتحب برعب فاحتضنها عماد, وصرخ فى أمه :

-اصمتى بالله عليك..سوف أتزوجها رغمًا عن الجميع.. لا شىء سوف يمنعنى عن هذا.. سوف أتزوجها مهما حدث.

-هذا لن يكون أيها الأحمق

قالتها أمه, فأظلم المكان فجأة. ولم يعد هناك أى ضوء.حتى الضوء المتسرب من النوافذ تلاشى هو الآخر كأنما حجبه ستار كثيف خَفِىّ. وفى اللحظة التالية تعالت الهمهمات الوحشية والزمجرات المخيفة من كل مكان, راحت أمه تهمس بكلمات لها رنين مفزع, فشهقت منى برعب وهى تلتصق به أكثر وصرخت بصوتٍ مخنوق:

-عماد..ماذا يحدث وأين ذهب الضوء؟. إنى خائفة. أخرجنى من هنا.

شعر بالرعب وقد تذكر ما حدث بالأمس, لو تكرر الأمر مع منى فقد تموت هلعًا. راح يبحث بجنون فى جيبه عن تليفونه ليضىء به المكان..هنا غمر المكان ضوء أحمر مخيف زاد من رعبهم..لم تكن أمه أمامهم فى تلك اللحظة.. كانت قد اختفت من المكان تمامًا..لكن ما أتى بالهول كان عشرات الظلال لكائنات مخيفة بأذرع طويلة تتمدد كالمطاط, ورؤس طويلة للغاية يتبدل شكلها باستمرار, وهى تزحف بجنون على الجدران. ثم راحت صرخات مفزعة تنبعث من العدم..

كان هذا أكثر مما يحتمل قلبها وشعرت منى أنها ستموت هلعًا. تمنت لو يحدث هذا كى لا ترى شيئًا. وفى اللحظة التالية وجدت رأس حماتها يتدلى أمام وجهها من أعلى فى وضع معكوس, وقد تعلقت أرجلها فى السقف. رأت

الإبتسامة المخيفة على شفتيها، والشعر المبعثر المتدلى نحو الأرض. وشاهدت الفم الذى فُتحَ عن أخره وقد انبعثت منه رائحة عفنة قادمة من الجحيم نفسه. ثم سمعت الأم المخيفة وهى تَفحُ قائلة:

-والآن ما رأيك. هل يمكنك حقًا احتمال هذا؟..

لم يكن يمكنها أبدًا أن تحتمل كل هذا الرعب. كان الجواب معلومًا وليس بحاجة لكل ما حدث. فقدت وعيها وكذلك فعل عماد بجوارها. وظلت أمه تطلق ضحكاتها المجنونة لوقتٍ طويل

*****

(8)

ابتسم ممدوح دون أن يستطيع أن يمنع نفسه من فعل هذا حين أخبره عماد بما جرى منذ ساعات له ولمنى من أمه. كان قد ترك منزله وجاء اليه ليقضى ليلته عنده. صار يخشى أمه الآن كالشياطين، ولا يأمن أن ينام فى بيت يضمهما سويًا. وقال ممدوح بإثارة دون أن يمنع ضحكاته:

-هل تعنى أن أمك تسلقت الجدار وزحفت علو السقف فى وضع مقلوب، ثم رأيتم رأسها فجأة مقلوبًا أمام وجوهكم؟..

-لا أدرى ما المضحك فى هذا غير أنك أحمق

قالها عماد بغضب فأسرع ممدوح يقول معتذرًا:

-إننى لا أسخر يا رجل. فقط تخيلت الأمر، فلم أتمالك نفسى..الأمر مفزع لكنه يثير الضحك فى الوقت نفسه.

لا يدرى عماد كيف يكون الفزع طريفًا هكذا ليثير الضحك. يبدو أن ممدوح قد أصابه الخبال..لم يرد عليه وهز كتفيه بضيق لكن ممدوح تكلم:

-والآن ماذا تنوى أن تفعل؟.

كان الكل يسأله هذا السؤال كأنما الإجابة، وتنهد بحيرة قبل أن يجيب :

-لا أعلم. كل ما أعلمه أننى بحاجة الآن للنوم لأسبوع كامل. سوف أنام هنا وحين أستيقظ سأفكر فى الأمر ثانية..

رمقه ممدوح للحظة قبل أن تتسع عيناه وتبرق وهى تجاهد أكوام الدهون فى وجنتيه وهتف وفكرة مجنونة تلح على عقله:

-حسنًا..ما رأيك لو تدع الأمر لى هذه المرة..سوف أتصرف أنا.. فقط أعطنى مفتاح الشقة ولا تقلق. أعتقد أننى أعلم ما علىَّ أن أفعله.

شعر عماد بالقلق وهو يحاول أن يسبر أغوار ممدوح بلا جدوى، وقال بتوتر:

-ما الذى تنوى فعله بالضبط..الأمر لا يحتمل حماقات بالله عليك

-لا تقلق.. ستصحو لتجد أن الأمور كلها قد عادت لنصابها.

-إنها أمى يا ممدوح. رغم كل شىء، هى أمى ولن أقبل أن يصيبها مكروهٍ ما.

لكن ممدوح بدا واثقًا وتحدث بإثارة وحماس:

-وأنا كذلك أعدُّهَا أُمًّا لى، وأنت تعلم هذا..فقط ثق بى وأعطنى المفتاح..

تبادلا النظرات للحظة وعماد يفكر فى أن يرفض..كان ممدوح صديقه منذ أعوام طويلة. لكنه لايثق كثيرًا فى تصرفاته الحمقاء الغبية. كان يشعر

أحيانًا أن جبال الدهون التى تحتل جسد ممدوح قد زحفت نحو عقله هو الاخر فاكسبته الغباء. لم يكن ليثق فيه فى أمرٍ هامٍ كثيرًا. لكن الإرهاق والتوتر والحيرة هو ما دفعه لموافقته، فأخرج من جيبه مفتاح الشقة وناوله إياه وقال له مهددًا:

-سأسلخك حيًا لو أصَابها مكروه.

راح عماد فى نومه وممدوح غارق فى التفكير..كان يفكر بالشيخ ميمى والشيخ وحيد. صديقاه بالمسجد. وكانت القصة بسيطة

فالشيخ ميمى وبعد أن حصل على الدبلوم عمل بالتجارة، تاجر فى كل شىء من ملابس وأقمشة وأجهزة منزلية وغيرها. وحين راح يتوسع فى تجارته دون أن يسعفه رأس مال كاف،خسر الكثير فكف عن التجارة وراح بالكاد يستعيد نقوده التى بالسوق. أطلق لحيته فى ذلك الحين وعاد ليتردد على المسجد ثانية، ولازَمَ شيخ سلفى متشدد،فتعلم منه القشور، التى راح يرددها بعد ذلك فى حلقات العلم وقد منحه البعض حينها لقب الشيخ ميمى. هنا عاد ليفكر بالتجارة ثانية، دون أن يعلم أحد من أين أتى برأس المال الضخم الذى افتتح به متجرًا ضخمًا للملابس الجاهزة. تحدث البعض عن النقود التى يجمعها من الناس ليستثمرها لهم وقال البعض الأخر إنها أموال الخليج التى توزع على الشيوخ ليوزعوها على الفقراء.

لم يكتفى الشيخ ميمى بحلقات العلم والقاء خطب الجمعة. بل توغل فى أمرٍ آخر. علاج الممسوسين وإبطال الأعمال السفلية الشريرة وإخراج الجان. وذاع صيته فى تلك الأمور كثيرًا ولهذا فكر ممدوح فى أن يلجأ له..

أما الشيخ وحيد فلا تختلف حكايته كثيرًا عنه. أنهى الدبلوم هو الأخر، وراح يبحث عن عمل ما وقد كره العمل بالزراعة كأبيه،وقد رآها جهد بلا طائل. جَرَّبَ بعض الوظائف فلم ينجح. أصابه الإكتئاب لشهور قبل أن

يخرج منه وقد أطلق لحيته وارتدى الجلباب القصير وصار يستخدم السواك فى كل وقت، ثم صعد المنبر ليخطب فى الناس..

كانت خطبه عقيمة لا روح فيها، أخرجها من كتب التراث العتيقة التى هجرها الجميع، وراح يرددها بلا فهم حقيقى أو دراسه. من العسير أن تسأله عن أمر ما فى الدين ويعطيك إجابة محددة أو مقنعة..والإجابات السهلة عنده هى التحريم. إن كل ما يجهله ولا يعلمه حرام. تحدث البعض عن علاقته بالأمن وكيف لا يتم اعتقاله كالأخرين. قالوا انه مُكَلَّف بالإبلاغ عن الشباب المتدين الذى يرتاد المساجد. لكنها فى النهاية ظلت ظنون لم يثبتها أحد..

اشتهر هو الأخر بمحاربة الجان كما يزعم..بل وكتب كتبًا يدعى (السيف البتار فى قتال الجان) وراح يتحدث كثيرًا عن بطولاته فى مجاله. كانت هناك عشرات الحكايات التى يرددها بفخر دون أن ينسى مهاجمة الجهلة المدعين من شباب الشيوخ الذين يَلِجُوْنَ هنا أمرًا لا يفقهونه..

ذهب ممدوح للقائهما فى محل ميمى على ناصية الشارع حيث اعتادا أن يسهرا سويًا. أخبرهما بما حدث لأم عماد فتبادلا النظرات فى تفهم قبل أن يخبراه أنهما سوف يساعدانه. تحركا نحو بيت عماد وسألهما ممدوح بفضول:

-لكن كيف يدخل الجان أجسادنا..وكيف يعيشون بداخلنا..إننى أفكر فى هذا الأمر كثيرًا ولا أدرى كيف يحدث.

أجابه وحيد بثقة:

-الجان قادر على الدخول فى الجسد من مواضع شتى..فتحتى الآنف أو الفم أو فتحة الشرج أوالأذنين.. إن أى ثقب فى الجسد صالح لولوجهم.

أنهم يعيشون فى تجاويف القلب والعقل ويسيرون ويتنقلون فى مجارى الدم..

-لكن أليس ممكنًا أن يخرج الجان من جسدها ليدخل جسدًا آخر بجوارها كجسدى مثلًا؟

أجابه الشيخ ميمى هذه المرة :

-هذا محتمل..لكننا ننتبه لهذا ولا نسمح به..

وصلوا لشقة عماد وفتح ممدوح الباب. كانت الصالة مغلقة ساكنة.. لكن ضوءًا أحمرًا غريبًا راح يتسرب من أسفل باب حجرة أم عماد. هنا التفت إلى الشيخين الشابين وقال بخوف:

-ما هذا الضوء؟..

لكن الشيخ وحيد رمقه بغضب وهو يضع إصبعه أمام شفتيه المضموتين ويصدر هسيسًا يأمره بالصمت..صمت وإن لم تفارق عيناه باب الحجرة التى يتسرب من أسفله الضوء الأحمر الذى لم يرى مثله من قبل. هل عليه أن يتراجع الأن,عاد ليفكر.

بدأ كلا الشيخان فى ترديد أيات من القرآن التماسًا للحفظ. هكذا يعملان دومًا. وشاهد ممدوح الشيخ ميمى وهو يدور فى الصالة بشيء من الترنح كأنه سكران, وهو يلمس بكفه الجدران ومن حين لآخر تتسع عيناه كأنما يرى شيئًا خفيًا لا يراه غيره.. أراد حينها أن يسأله عما يراه, لكنه تذكر النظرة المحذرة التى رمقه بها وحيد فأمسك لسانه.. ومضى بعض الوقت قبل أن يتحدث الشيخ ميمى:

-البيت يحوى شر كبير فى كل مكان..أستطيع أن أشعر به.

نظر اليه الشيخ وحيد ولم يعقب. ثم اشار إلى الحجرة التى ما زالت تومض بذلك الضوء الأحمر الرهيب:

-ما رايك لو ندخل..

هز ميمى رأسه موافقًا فاتجها إليه ومن خلفهما سار ممدوح..طرق ميمى الحجرة طرقات قوية وصاح بصوتٍ قوى:

-السلام عليكم..

جاوبه الصمت فكرر تحيته ثانية وفى الثالثة وحين لم يأته الرد همس وهو يفتح الباب :

-توكلنا على الله..

فتح الباب فرأوا ما أثار فزعهم..كانت أم عماد تجلس على الفراش وقد غمر الحجرة من مصدر خفى ذلك الضوء الأحمر الرهيب. لم تكن بمفردها. فبجوارها كانت هناك نسختان منها متطابقتان تمامًا. كانوا ثلاثة من أم عماد وكانت أعين الثلاثة تشتعل باللهب.

شهق ممدوح فزعًا. وتوتر الشيخ ميمى ووحيد وهما يشهدان أمرًا لم يشهداه من قبل, وقد زاد الضوء الأحمر الشيطانى من توترهما فتبادلا النظرات الخائفة وردد الشيخ ميمى :

-أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

راح يرددها بخوفٍ حقيقىّ بينما فكر الشيخ وحيد فى أن يهرول هاربًا من المكان كله وقد شعر أن ما يراه ليس ككل مرة..هذة السيدة بها شيء شيطانى حقًا, وليس ادعاءًا كما يحدث كل مرة..



حركت النسخ الثلاث من أم عماد رؤوسهم نحوهم ورمقوهم للحظة بعيون زجاجية ميتة قبل أن يطلقوا ضحكاتهم الساخرة وتصيحون بصوتٍ واحدٍ كالفحيح :

-المزيد من الحمقى..مرحبًا بكم فى الجحيم.

كانت هذه لحظة الفرار, فتراجعوا للخلف والشيخ ميمى يهتف برعب:

-دعونا نغادر هذا المكان الملعون

كان ممدوح أكثرهم رعبًا وهلعًا وخاصة حين رأى الفزع الذى تجلى على وجه رفيقيه. لكنه تذكر أنهما ها هنا لطرد الجان عن جسدها. فلماذا يهربان إذًا. لذا دفعهما نحو الحجرة بيديه الضخمتين وهو يغالب خوفه ويقول:

-إلى أين..ألن تخرجوا ذلك الجان منها..ألم تأتوا إلى هنا من أجل ذلك؟..

دفعه وحيد محاولًا التملص من يديه المتشبثة بملابسه وهو يصيح:

- ألا ترى إنها شيطان؟!! اتركنى يا أحمق. دعنى أذهب

لكن ممدوح بالرغم من رعبه أدرك أمرًا أخرًا..إنه اكثرهم بدانة وأقلهم خفة فى الحركة. ولو تركهما يهربان ربما تعثر حينها فى شيءٍ ما ووجد نفسه بمفرده معها.كان هذا أخر ما يتمناه لذا تشبث بهما أكثر وهو يصرخ :

-لن تذهبا إلى أىِ مكان قبل أن تعالجاها..

وتحركت الكيانات الثلاث التى تحمل شكل أم عماد نحوهم فصرخ ميمى ووحيد وهما يحاولان التخلص من قبضة ممدوح المتشبثة بهم. لكن فزعه كان أقوى منهما. فلم يفلتهما. وحين تراجعوا للخلف ثانية كى يبتعدوا تعثروا فى بعضهم البعض فسقطوا أرضًا. هنا أدركتهم النسخ الثلاث من

أم عماد ووقفت كل واحدة منهن فوق أحدهم وهى ترمقهم بخواء. راحوا يصرخون فى جنون, بينما صاحت النسخ الثلاث فى صوتٍ موحد مخيف:

-إذن فقد أتيتم لإخراجنا من جسدها. الشيخ ميمى الجبان والشيخ وحيد الأفّاق. محاربى الجان الأتقياء الذين يهزمون الجان ويحرقونهم طوال الوقت. أليس هذا ما تتقناه. لقد جئتكم اليوم ببعض الجان لأرى كيف تهزمونهم.

وضحكت بسخرية, ودَوَّت الصرخات من خلفها. وبرزت الظلال السوداء على الجدران قبل أن يخرج منها ظِلٌ مخيف بأطراف طويلة وانامل دقيقة ووجه ممسوح لاشىء فيه إلا فجوة الفم والعيون الحمراء.. ثم تبعه أخر فى ركن أخر وثالث ورابع وخامس. اصطفوا أمام الجدار فى غضب حقيقى فانكمش الثلاثة حول أنفسهم رعبًا ورددت أم عماد ساخرة:

-هؤلاء بعض الجان. هل حاربتم مثلهم من قبل؟.

كان الثلاثة فى فزعٍ لا حدود له الآن. بال وحيد على نفسه, وانتابت ميمى نوبة صرع عنيفة, بينما فقد ممدوح وعيه..

وحين أفاق الثلاثة كانوا ملقيين فى أحد الشوارع المظلمة. كانت العلامات الدامية والحروق تملأ أجسادهم. وكان وجهى ميمى ووحيد موسومين بشعار شيطانى مثلث فى منتصفه عين محترقة. لكن شيئًا مهمًا قد تَبَدَّلَ فى وحيد وميمى. لقد فقد كلهما عقله. ورأى ممدوح وهو يعدو من أمامهما فى فزع كيف يرمقانه فى جنون.

*****

(9)

كان ممدوح أحمقًا. وقد كادت حماقته أن تؤدى بحياته. لقد فقد ميمى ووحيد عقلهما ورغم ذلك لم يشعر عماد بالشفقة الحقيقية عليهما. فى النهاية هما كانا نصابين يتخفيان خلف لحيتهما وقد نالا جزاءًا كان ينتظرهما يومًا ما.

توجه إلى حجرته وحاول الاتصال بمنى مرارًا لكنها لم تجبه. عاوده شعوره بالإرهاق فقرر أن يغفو قليلًا. وحين استيقظ وجد لدهشته أن الشمس قد ودعت السماء، وقد حل الظلام. أضاء ضوء حجرته وخرج. فاصطدمت عيناه بباب حجرة أمه المفتوح. تذكر أنه قد تركه مغلقًا. هل تراها استيقظت..

تحرك بحذر نحو الغرفة، فلم تكن بها. شعر بصوتٍ ما يأتى من المطبخ رغم ظلامه فاتجه إليه ودفع بابه برفق وهو يضيء المصباح. كانت أمه هناك تفترش الأرض وهى تأكل. ثم شعر بالغثيان الشديد وهو يرى ما تأكله..

مئات الصراصير مختلفة الأحجام كانت تسير فى صفوف منتظمة كالمنومة مغناطيسيًا نحو أمه التى راحت تلتقطها من الأرض بأناملها وتدفعها نحو فمها ثم تسحقها بأسنانها مصدرة صوتًا مريعًا، قبل أن تعود لتلتقط غيرها. شعرت به فالتفتت إليه بفم ممتلىء وابتسمت له. ومن بين أسنانها رأى الصرصار الضخم الذى هرسته الأسنان فسالت دمائه البيضاء على شفتيها. كان الدوار والغثيان الذى أحسه لا حدود له، وبالكاد وصل إلى الحمام قبل أن يفرغ ما فى جوفه. تقيأ كل شىء فى معدته، حتى شعر أنه سيتقيأ أحشائه نفسها فى المرة القادمة. كان يعيش كابوسًا يرفض أن يغادره. راح يتنفس بعمق كى يغالب الدوار الذى يشعر به وبعد دقائق عاد إليها ثانية. ما زالت على حالها، وما زالت أكوام الصراصير الحية تاتى إليها

من كل صوب كأنما يجذبها مغناطيس ما.. ابتسمت له ثانية وعادت لتتحدث بصوتٍ غليظ، وهى تشير نحو الأرض الممتلئة بالحشرات:

-لقد أعدت ماما الطعام يا فتى..ألن تاتى لتشاركنى العشاء..

شعر بالعجز فصرخ بيأس:

-ما الذى تريدينه منى؟.. أخبرينى قبل أن أصاب بالجنون. ماذا تريدين؟

هنا تركت ما بيدها وتبددت ابتسامتها وقالت له هذه المرة بصوتٍ مغاير للصوت الغليظ الذى صارت تتحدث به.. كانت هناك أصواتًا أخرى ممتزجة تخرج من حنجرة أمه فى تلك اللحظة..

-عد للسيد وحرر أزوث.. إنه ينتظرك.. حرر أزوث تنتهى آلامك.

لم يفهم الهراء الذى تقوله..وأشعرته الأصوات الممتزجة بالدوار والإعياء. ظلت تردد جملتها حتى سئم من كل هذا فراح يعدو مغادرًا البيت كله. شعر بالعجز وأن قيامته قد أتت وأنه عالمه قد انتهى. يؤلمه ما آل إليه حال أمه، ويحنقه عجزه عن مساعدتها..ليته يعلم طريقًا ما يسلكه كى تبرأ مما بها

وبعجزٍ لا حَدَّ له رفع رأسه للسماء وهتف متضرعًا "رحماك يا الله"

ارتفع فى تلك اللحظة آذان العشاء.. فساقته قدماه نحو المسجد. توضأ ثم صلى ركعتين قبل العشاء، أطال السجود فيهما، ووجد نفسه يناجى ربه باكيًا ويردد:

- "ربِ إنى مَسَّنِىَ الضرُ وأنْتَ أرْحَمُ الراحمين "

صلى صلاة العشاء بعدها وحين انتهى جذبه جاره الحاج رضا وهو يشير لركنٍ قصيٍ فارغ من المسجد. تحركا نحوه وحين بلغاه سأله الشيخ رضا:

-كيف حال أمك اليوم

-لا يبدو أنها ستتحسن..أشعر أننى أفقدها فى كل لحظة تمضى دون أن أجد حلًا ما لها..

ربت الحاج رضا على كتفه وقال:

-لهذا أحدثك الآن.. ولهذا طلبت من الشيخ عبدالباسط عوض أن يوافينا هاهنا الآن..بالمناسبة هل سمعت عنه؟

لم يكن يعرفه لكنه خشى أن يكون كالاخرين. يدعى العلم بالأمر وهو دجال أو نصاب أو جاهل. لكن الشيخ رضا عاجله بما يطمئن قلبه:

-لا تقلق. إنه ليس دجالًا هذه المرة كالشيخ كريم هذا. إنه رجل صالح بحق ويقوم بتلك الأمور بلا مقابل أبدًا, إنه فقط يبتغى وجه الله بما يقوم به. انتظر حتى تراه وستدرك ما أقوله..

تنهد عماد بيأس وهز كتفيه, وغمغم بصوتٍ لم يسمعه الحاج رضا :

-أتمنى هذا..

نهضا بعدها ليؤدّيا ركعتى السنة وحين انتهيا كان الشيخ المُسِن فى إنتظارهما.. كانْ عجوزًا امتلأ وجهه بالتجاعيد التى تشى بعمره الذى جاوز السبعين حتمًا. كانت لحيته بيضاء كالثلج بلا سوء, وكذلك كان شعر رأسه القصير. وفتر ثغره عن ابتسامة عذبة بدت وكأنما تلازم وجهه ولا تفارقه..كان يرتدى جلبابًا أبيضًا طويلًا و قد لَفَّ رأسه ب (شال) أبيض. حَيَّاه الحاج رضا ثم طلب من عماد أن يخبر الشيخ بما حدث لأمه.

راح عماد يقص حكايته, والرجل يستمع إليه بإهتمام. ولم يقاطعه أبدًا.

انتهى عماد فران الصمت للحظات قبل أن يبدأ الرجل حديثه. كان يتحدث الآن بوجه غير الذى جاء به وقد تعكر مزاجه :

-لا أدرى ما الذى ينبغى على قوله لكن الأمر لكن الأمر خطير. إن ما فَعَلَته أمك مع ذلك الأفاق المدعو كريم وفرقته النصابة أو هؤلاء الأطفال المهرجين ميمى ووحيد لا يقدر عليه إلا عفاريت الجان أو بعض المردة مجتمعين. الأمر أكبر من أن يقوم به فرد واحد من الجان أو غيره.

وصمت ولاحظ عماد أن كفه الممسكة بعكازه لا تكف عن الإرتعاش وأن الأخرى بها بعض الضمور. وقال الحاج رضا بحيرة:

-وما الفرق بين الجان والعفاريت يا مولانا.

-كلهم أصل واحد لكنهم مراتب مختلفة, فكلهم فى أصله جان..لكن الجان لو توحش واشتدت قوته, صار عِفْرِيتًا, ولو غلبه شره وازداد فجورًا فهو شيطان..

ارتجف جسد عماد, وغمغم بإحباط:

-أيعنى هذا أنه لا أمل فى خلاصها من ذلك العذاب.

عادت الإبتسامة لوجه الشيخ عبد الباسط..أرادها مُطَمْئِنَةً أكثر منها حقيقية..وقال مجيبًا:

-لم أذكر فى حديثى أبدًا أنه لا أمل..لكنى أعتقد مما قصصته أن الأمر أكثر قوة من قدراتى..لقد تجاوزت السبعين من عمرى ووهنت صحتى, ولن أحتمل أن يحدث معى ما حدث مع الآخرين لو تغلب أولئك الملاعين علىّ.. سامحنى على كلامى هذا, إثارة كهذه لن أقوى عليها. إن قلبى أضعف من أن يحتملها.



هنا تحدث الشيخ رضا فقال:

-والحل يا شيخ عبدالباسط..لابد أن هناك حلًا ما..لن نترك المرأة هكذا دون أن نفعل شيئًا من أجلها..

-ومن قال أننا سنفعل..إننى فقط أرى أن نستعين برجلٍ أخر، أعتقد أنه قد يكون أكثر فائدة منى هذه المرة

-أيعنى هذا أنك لم تشاركنا فى الأمر

قالها الشيخ رضا معترضًا وأجاب الشيخ عبدالباسط بلوم:

-ياحاج رضا..أنا لم أعلن انسحابى من الأمر..سوف أشارك فى الأمر بالطبع ولن أترككم..كل ما عنيته أننى أريد مساعدة أخرى..شخص آخر نستطيع معًا أن نواجه شرًا كهذا..

سأله عماد بحذر وقد تسرب اليأس لنفسه ثانية :

-هل تقصد أن تستعين بشيخٍ آخر؟..

هَزَّ الرجل رأسه نافيًا وأجاب:

ليس شيخًا هذه المرة. بل هو طبيب. طبيب نفسى عجوز لو شئت الدقة

رمقاه بعيون مملوءة بالدهشة والذهول. لكنه أكمل وهو يستعد للنهوض:

-دعونا لا نضيع الوقت ولنذهب إليه الآن. إنه يعيش فى فيلته بالمقطم. هيا بنا.

*****

يحمل المقطم فى المساء مشاهدًا مخيفة تثير الكثير من الهواجس فى النفوس..كانت السماء مُكْفَهِرَّة مثقلة بسحبها الرمادية الثقيلة وراحت رياح صحراء المقطم الباردة تزأر فى كل مكان حولهم مستمتعة بفرض سيطرتها على الخلاء والظلام. تجاوزوا بسيارتهم منطقة المقابر بكآبتها وبرودها، واتخذ سائق التاكسى الذى يستقلونه طريقًا جانبيًا، ومضى وقت ليس بالطويل قبل أن تلوح من بعيد أضواء الفيلا المنعزلة فى الصحراء. توقف التاكسى أمام الباب الحديدى المزخرف فترجل الشيخ عبدالباسط من السيارة وتحرك على عكازه ببطء نحو الباب وضغط زرًا على الجدار القائم بجواره..لحظات وارتفع صوت ذو رنين معدنى متسائل. فأجاب بهدوء:

-الشيخ عبدالباسط العوضى.

لحظات وهرع من الباب الذى فتح شيخ طاعن فى السن. كان يعرج قليلًا لكن صوته حمل ترحيبًا حقيقًا:

-مرحبًا يا مولانا الشيخ..مرحبًا بك.

-أهلا بك يا إسماعيل.. كيف حالك أيها العجوز؟

-بخير لكنه الروماتيزم اللعين والبرد. ادعو لى يا مولانا بالشفاء.

-شفاك الله أيها العجوز. لابد أن الدكتور محمد بالداخل..لا أظنه يغادر الفيلا فى هذا الصقيع.

- وهل تعتقد أنه يبالى؟. لو أراد الخروج وسط عاصفة ثلجية لفعل بلا تردد. أنت تعلمه خير منى يا مولانا. لكنه بالفعل بالداخل منذ الصباح ولم يغادر الفيلا اليوم.

-حسنًا. قدنا إليه.

وترجل الجميع من السيارة ودخلوا الحديقه التى تعوى الرياح الباردة بين جنباتها بينما انتظرهم السائق فى حجرته البواب الدافئة. كانت وداد بانتظارهم أمام باب الفيلا الداخلى وقد أخبرها البواب بقدومهم. رمقتهم بنظرة باردة مستنكرة كأنما تقول لهم مؤنبة "أن هذا ليس وقت الزيارة؟". هزت رأسها ببطء تحية للشيخ عبدالباسط, وأشارت لهم بالدخول فتبعوها. ظل الشيخ عبدالباسط محتفظًا بابتسامته وفور أن تركتهم متجهة للأعلى لتخبر الدكتور محمد بقدومهم, حتى مال عليهم هامسًا:

-لا تَدَعُوا برودها هذا يزعجكم. لقد تعودت هذا منها منذ ثلاثين عامًا. نفس النظرة المؤنبة التى تخبرك فيها دومًا ان الوقت غير مناسب للزيارة. حتى أننى لا أدرى حقًا ما هو الوقت الذى تعده مناسبًا للزيارة.

سأله الحاج رضا وعيناه تجوبان ارجاء الفيلا المبهرة التى تمتلئ بالتحف الفنية والتماثيل الجرانيتيه الفخمة واللوحات الفنية القيمة:

-وهل هى زوجته؟..

-بل هى مديرة منزله منذ أكثر من ثلاثين عامًا..

-ظننتها زوجته..إن ملابسها ونظرتها لا توحى أبدًا بأنها خادمته

هنا مال عليه الشيخ عبدالباسط ثانية مستندًا على عكازه, وقال محذرًا:

-إياك أن تنعتها بالخادمة أبدًا. إنها تكره تلك الكلمة تمامًا وتثور لو نعتها أحدٌ بها. إنها مديرة المنزل وهذا هو عملها..

هز الحاج رضا رأسه بحركة مبهمة وهو يرى أنه لا فرق بين الشيئين.. فى النهاية وظيفتها ان تخدم صاحب المكان وضيوفه..

أمَّا عماد فقد سحرته الفيلا وخلبت لُبَّهُ تمامًا. وراحت عيناه تنهل من حلاوتها وأناقتها, رأى أنها لا تختلف عن القصور والفيلات الفخمة التى يراها فى الأفلام, ووجد نفسه يقارن بينها وبين حلمه فى الحصول على شقة صغيرة فى منطقة أرقى قليلًا من الحى الذى يقطنه فابتسم بمرارة. كم هى بسيطة أحلامه لو قورنت بما يراه. وانتبه لصوت الدكتور محمد الذى كان قد جاء دون أن يشعر بقدومه:

-أرى أن الفيلا قد أسرت صديقنا الشاب كما تفعل مع الجميع فى المرة الأولى.

أحس بالخجل فنهض ومد يده بارتباك نحو الدكتور محمد ليحييه وهو يغمغم بتلقائية:

-أعتذر لفضولى. لكن المكان بالفعل مذهل..

جلس الدكتور محمد حينها ووضع ساقًا فوق ساق وغليونه فى فمه وقال ببساطة:

-لا حاجة بك للأسف. فهذا ما يقوله الجميع عنها. وهذا ما يسعدنى أن أسمعه عنها. ربما يرضى هذا غرورى.

كان الرجل أنيق ووسيم للغاية. لم يتخط العقد الخامس من عمره كما يبدو, وإن احتفظ شعره بلونه الأسود الحالك. كان يرتدى حلة رمادية كاملة من الصوف ورباطة عنق لبنية وفى يده كان هناك غليونًا مشتعلًا. شعر أنه أمام مستشرق إنجليزى أو أحد بروفيسيرات جامعاتها العريقة. أدهشه اهتمامه بأناقته واحتفاظه بملابسه الكاملة رغم أنه بمنزله, وحتمًا لا ينتظر أن يأتيه فيه أحد ما فى مثل هذا الوقت.



تحدث الدكتور محمد إليهم بعد أن رَحَّبَ بهم قائلًا ومديرة المنزل تقف بجواره:

-أعتقد أن مشروبًا ساخنًا يبدو ملائمًا لهذا الطقس البارد؟. ألا توافقوننى؟.

وافقه الجميع فأشار لمديرة منزله بإعداد الشاى من أجل الجميع فانصرفت فى صمت. التفت بعدها إلى الشيخ عبدالباسط قائلًا بشىء من المرح ليبدد التوتر البادى على ثلاثتهم:

-أرى أنك صرت تاتى إلى فيلتى المتواضعة أيها العجوز هذه الأيام أكثر مما تذهب إلى بيتك. ما رأيك لو تنتقل للحياة هنا.

-أعتقد أن لفظ العجوز تنطبق عليك يا دكتور أكثر منى..ليتنى أعلم ما الذى تتناوله لتبدو شابًا هكذا بالرغم من أنك تكبرنى بأعوام

-أكباد الأطفال الصغيرة ممزوجة بعيون العذارى. جربها وسترى كيف تستعيد شبابك.

بدا حديثًا طريفًا ضحك منه عماد والحاج رضا. يمتلك هذا الطبيب حسًا طيبًا للدعابة. فكر عماد وهو يرمقه بإعجاب. وعاد ليفكر إن كان منظره الموحى بالثقة حقيقيًا أم سينخدع به كما حدث مع الشيخ كريم..

دَوَّت فرقعة مكتومة لقطعة من الخشب تحترق فى قلب المدخنة المشتعلة, وعاد الدكتور محمد ليتحدث بهدوء بعد أن نفث بعض سحب الدخان من غليونه:

- حتمًا لم تغادروا فراشكم فى هذا الصقيع والمطر من أجل زيارة الطبيب العجوز؟. دعونى أخمن. إنه أمر يتلعق بالجان أو المس. هل أنا مُصِيب؟.

سعل الشيخ عبدالباسط ومسح فمه بمنديله القماشى وقال:

-فى الواقع إننا نأسف لإزعاجك يا دكتور فى مثل هذا الوقت المتأخر. لكن عماد يعانى من مشكلة لا مجال لتأجيلها.

هز الدكتور محمد رأسه بتفهم وقد اعتاد مثل هذه الأمور..صار نادرًا أن يأتيه أحدهم فى الصباح ليسأله المساعدة فى حل مشكلةٍ ما. كلهم يأتيه بأمور عاجلة لا تحتمل التأخير فى المساء..من حسن حظه أنه يهوى السهر وإلا اضطر لمغادرة فراشه فى كل مرة.

وعاد الشيخ عبدالباسط ليتحدث مستطردًا:

- أعتقد أن عليه أن يقص عليك حكايته بنفسه بدلًا منى كى لا يفوتنى شىء.

التفت الدكتور محمد إلى عماد وقال له باسمًا:

-إذن أخبرنا يا سيد عماد بما فى جعبتك؟. إننى أنتظر.

ومرة أخرى حكى عماد بكل شىء حدث مع أمه..أخبره بالشيخ كريم والزار السخيف الذى صنعه من أجل أمه والمحاولة البائسة لميمى ووحيد..وما فعلته أمه به هو ومنى..حاول ألا ينسى أىَّ شىء حتى لو كان صغيرًا..انتهى فابتسم الدكتور محمد وغاص فى مقعده أكثر وهو يشير إليهم كى يتناولوا أكواب الشاى الساخن التى جلبتها لهم وداد منذ لحظات, ثم قال بشىء من السخرية:

-إذن فقد قابلت الشيخ كريم.. أنا متأكد أنك لم تعتقد لوهلة أنه نصاب أو دجال. إنه يصلح بلا شك أن يكون ممثلًا. ليته فكر فى هذا. سيربح حينها أكثر مما يجنيه من النصب والاحتيال ولن يكون بحاجة لاستغلال الأبرياء.

-بالفعل لم يبدو كدجال أو نصاب. لقد صدقته.

-إنه دجال عصرى..الصورة الحديثة لكل موضة جديدة. هناك رجال الأعمال الشباب. هناك الدعاة الشباب. هناك الممثلون الشباب. فلماذا لا يكون الدجال شابًا عصريًا يرتدى حلة كاملة برباط عنق بدلًا من الجلباب المتسخ واللحية الشعثاء. ولا بأس من تقديم بعض الطقوس والجزعبلات بصورة عصرية. فمثلًا الزار الذى صنعه لأمك..كل ما فعله هو جلب بعض الأفارقه التعساء وإلباسهم ملابس حديثه ليقنع زبائنه بصدق ما يفعله..لتحمد الله أنك اكتشفت أمره فى البداية, وإلا لظل يبتز أموالك حتى أخر قرش فى جيبك دون أن يفيدك.

ثم رشف بعض الشاى من كوبه وقال:

-لكن دعنا منه, ولنعد لمشكلتنا. أعتقد أن ما يحدث صورة من صور الإستحواذ الشيطانى أو حالة مس كما نطلق عليها هنا فى مصر.. لكنها أكثر عنفًا من المعتاد. ربما كان تَلَبُّسًا مزدوجًا أو ثلاثيًا أو أكثر من هذا. لكن دعنا لا نستبق الأحداث. لنراها أولًا ثم نصدر حكمنا.

لم يفهم عماد الجملة الأخيرة..فسأله مستفسرًا:

-ما الذى تعنيه بالتلبس الثنائى أو الثلاثى..

رمق الدكتور محمد المدفأة المشتعلة وأخذ نفسًا آخرًا من غليونه وأطلقه ببطء قبل أن يجيب:

-أعنى أمرًا غير معتاد وغير مألوف..هنا يتلبس الضحية أكثر من جان فى نفس الوقت..ربما يكونوا إثنين أو ثلاثة أو حتى عشرة..لا يمكنك فى حالات كهذه أن تعلم عددهم إلا بالمواجهة المباشرة.. لكنها تحمل الكثير من

المخاطرة والصعوبة.. عليك أن تكون مؤهلًا للتعامل مع حالة كهذه وعليك أن تتأكد من إخراج الجميع وحماية من حولك من شرهم.

-وهل يمكن شفاء أمى من حالة كهذه..

سأل عماد بقلق. تبادل الشيخ رضا والدكتور محمد النظرات للحظة, بدت لعماد غير مشجعة, وأجاب الأول بخفوت:

-علينا المحاولة دائمًا يا بنى, والشفاء من عند الله. علينا ألا نيأس.

-أريد إجابة محددة يا مولانا..هل نجحتم من قبل فى علاج حالة مماثلة؟..

سأل عماد بشىءٍ من العصبية.. هذه المرة أجابه الدكتور محمد:

-لأكون صادقًا فالأمر عسير للغاية. قد ننجح فى إخراج الجان من جسدها بوسيلة ما..لكننا اعتدنا فى حالاتٍ كهذه أن يترك هذا خللًا ما فى عقل الضحية. لا أريد أن أقول أنها ستصاب بالجنون. لكن شيئًا لابد أن يتغير وينحطم فى الضحية بعد إخراج الجان..ربما كان مشاركة عدد كبير من الجان فى جسدها وحيزها الأثيرى فى وقتٍ واحد هو ما يتسبب فى هذا الأذى. إن الجسد البشرى فى النهاية هش ضعيف, وهذا أمر أكبر من قدرته على الصمود.

شعر عماد بالإختناق وقد أدرك أنه فقد أمه التى يعرفها للأبد. حاول التحدث فلم يقدر, لكن الشيخ رضا كان من تحدث:

-وماذا تقترح أن نفعله يادكتور؟..

-حتمًا لن نتركها هكذا لتؤذى نفسها أو غيرها. سوف نحاول علاجها بالطبع

قال الشيخ رضا وعيناه معلقة بعماد الذى أطرق رأسه لأسفل بيأس:

-إذن متى ترى أن نبدأ؟

-فى الغدِ بالطبع. علينا أن نبدأ معها بلا تأخير.

*****

(11)

تجاوزت الساعة الواحدة والنصف صباحًا حين عاد عماد لمنزله. دخله وهو يفكر, أىَّ مفاجاة جديدة تُعِدُهَا أمه له. كان المنزل ساكنًا, فتساءل هل سئمت أمه المفاجأت أم أنه سكون ما قبل العاصفة. دخل حجرتها فوجدها نائمة.

كان جائعًا وأحشائه تتقلص احتجاجًا, فتذكر أنه لم يتناول أى طعام منذ الصباح..تحرك نحو الثلاجة وفتحها بحثًا عن شىءٍ ما يأكله. لكنها كانت فارغة تمامًا من أى طعام وشراب, هل تناولت أمه كل الطعام الذى كان بها بما فيها من لحمٍ نىء؟. أغلقها مستسلمًا, وغالب جوعه وقرر أن ينام بلا طعام..

استلقى على فراشه وهو يحملق فى الظلام وأخذت الذكريات تتداعى لخياله. اختلطت الذكريات بطريقة عجيبة. كان بعضها يعود بأمه, وأخرى تعود منى. حتى وجد نفسه يرى أباه الراحل. أباه الذى لم تجمعهما سويًا أى ذكرى يذكرها. لقد مات وهو لم يتعد العامين من عمره, فلم يعرفه إلا من الصور الكثيرة التى يتملئ بها ألبوم الصور الذى تحتفظ به أمه..

رأى أبوه منهمكًا فى نقب الأرض. كان ينبشها ومن حينٍ لأخر, يلتفت إليه ويشير إلى الأرض بلا صوت قبل أن يعود لعمله..اقترب منه ليرى ما يفعله..وهناك اكتشف كم كانت الحفرة التى صنعها أبيه واسعة وعميقة. رأى فى قاعها رجلًا أخر يحفر هو الأخر. وبعد حين رفع رأسه لهما وأشار

لباطن الحفرة المظلم تمامًا كما صنع أباه فرأى شخصًا أخر يحفر. وفوجئ بأبيه يتكلم بصوتٍ غريب :

-إنهم أباءك.

وتَعَرَّفَ الصوت. كان هو الصوت المخيف الذى صار يخرج من حنجرة أمه. وحين تراجع للخلف بفزع, كان ثلاثة من أجداده قد صعدوا الحفرة وتوقفوا بجوار أبيه وراحوا يرددون فى وقتٍ واحد :

حرره لتتحرر..حرره لتملك..حرره لتعرف.. إنه ينتظر.

كانت أصواتهم المختلطة المزدوجة مخيفة جدًا. وذكَّرته هى الأخرى بالأصوات التى صدرت من أمه من قبل..تراجع وهو يصرخ فى وجوههم :

احرر من ؟.. لا أدرى ما تتحدثون عنه.. أخبرونى ماذا أفعل.

هنا تحركوا نحوه وتبدلت أشكالهم..استطالت أذرع أبيه وقدميه وتضخم وجهه وتفلطح أنفه واتسعت عيناه..وفى لحظات صار أبيه أخطبوطًا ضخما بأذرع طويلة, امتدت نحوه حين حاول الهرب فَكَبَّلَتْهُ وقيدته. راح يصرخ بجنون حين رأى كيف امتزج أجداده فى كيانٍ واحد تحول لثعبان أسود ضخم, زحف نحوه وهو يُخرج لسانه المشقوق ويتكلم كالفحيح:

-ستموت يا أحمق كما مات أجدادك. ستموت قريبًا.. لقد خذلت السيد.. إن أزوث لا يرحم.

راح يصرخ والأذرع اللزجة تعتصره الأن وأنفاسه تضيق..ورأى الثعبان يقفز نحو عنقه. تعالت التراتيل الغامضة. ومن الحفرة العميقة خرج ألاف المسوخ تتوسطهم نافورة من الدماء. ثم اندفع كل هؤلاء نحوه. بلغ الرعب فى نفسه مبلغه فصرخ بكل ما أوتى من قوة..

ثم استيقظ.. وأدرك وهو يلهث وقلبه ينتفض أنه كان يحلم..

وفى نفس اللحظة كان هناك من يناديه فى الصاله. وحين التفت نحو باب حجرته المغلق عليه رأى الضوء الأحمر المتسرب من أسفل الباب. خمن ما سيراه فى الصالة لو غادر حجرته. فَزَعٌ آخر وأفعال شيطانية بلا شك. قرر أن يتجاهل النداء الذى يناديه باسمه بإصرار. لكن النداء استمر

-عماد..أين أنت..النجدة يا عماد..أدركنى يا بنى.

أصغى السمع فاكتشف شيئًا هاما. النداء كان بصوت أمه الأصلى. صوتها الذى لم يسمعه منذ تحولها وتبدلها. هل أفاقت أمه مما بها؟. غلبه حنينه فخرج..

كانت تجلس قبالة حجرته تمامًا على مقعد خشبى وهى ترتدى قميص نوم قصير مفتوح لم يرها به من قبل أبدًا، وكانت تفعل شيئًا شنيعًا..كان تحمل سكينا، وراحت تمرر شفرته الحادة على جلد فخذها فتُدميه، دون أن يبدو عليها ألمٌ ما أو تُعِيرُ الدَمَ المنهمر من الجروح التى تحدثها اهتمامًا.

صرخ حين رآها وهو يندفع نحوها قائلًا بجزع:

-كُفِى عن هذا الجنون..كُفِى بالله عليكِ. هذا كثير!

لكن حاجزًا غير مرئى اصطدم به قبل أن يصل إليها فسقط أرضًا، ورغم آلامه نهض ثانية واتجه إليها وما زال يصرخ محاولًا منعها من إيذاء نفسها هاتفًا:

-كُفَى يا أمى أرجوكِ..أفيقى يا أمى وانتبهى لما تفعلينه بنفسك..أنتِ تقتلين نفسك هكذا.

ومرة أخرى اصطدم بالحاجز غير المرئى فسقط. انتقلت السكين إلى منطقة أخرى من لحم أمه لتسلخ الجلد وتفصله عن اللحم وعاد الدم ليتفجر منها ثانية وهى تقول :

-هل أخبرك بِسِرٍّ ما. إن أمك تشعر بكل ما أفعله الآن بجسدها. بل وتشعر بكل شىء منذ البداية.. إنها تصرخ وتتوجع كما لم تفعل من قبل. كم تتمنى لو ينتهى الأمر بسرعة وتموت. إنها مسكينة لتعانى كل هذا الألم. مسكينة وضعيفة لأنها ستتعذب طويلًا ولن تموت الآن. لن أجعلها تفعل.

راح عماد يصرخ بحنق وقد يأس من بلوغها بسبب هذا الحاجز الوهمى فألقى بجسده على الأرض وهو يقول:

-من أنت وما الذى تريده منها ومنى ؟..أخبرنى بما تريده وسأفعله مهما كان..لكن اتركها، وكفى ما سببته لها من أذى..اتركها أرجوك.

جاوبته ضحكة ساخرة خرجت من فمها وتوقفت السكين فى الهواء للحظة..ثم عادت لتتكلم ببطءٍ عجيب:

-البشرى يرجونا أن نتوقف ويعدنا بالكثير لو فعلنا..البشرى يسألنا ماذا نريد وكأنه لا يعرف..يبدو أن البشرى قد نسى،وربما كان يعبث بنا..

-صدقونى أنا لا أفهم لماذا يحدث هذا. من أنتم وماذا تريدون؟.

أتى الجواب عنيفًا..فقد غرست السكين حتى المقبض فى لحم فخذها الأيسر..وسمع صوتًا مخيفًا لاصطدام السكين بالعظم..وبدلًا من أن تأتى صرخة توقظ الموتى من فمها تعالت ضحكتها كأنما تستمتع بما تفعله..وعاد ليصرخ بجزع:

-كُفَى..توقفوا عليكم اللعنه..توقفوا أيها الشياطين..



أخرجت أمه السكين من فخذها وتجاهلت الدماء التى لوثت ساقها باكمله ورفعته نحو شفتيها ولعقت الدماء منه وهى تقول بصوتٍ كالفحيح:

-لذيذة هى الدماء البشرية بحق الجحيم.هل تعلم أن أبشع الألم هو ما تعانيه أمك الآن. إنها تستغيث وتصرخ الآن حتى الموت. أتريد أن تسمع ؟

غطَّى عماد أذنيه بكفيه وتَكوَّمَ حول نفسه..وفى اللحظة التالية تعالت صرخات أمه. صرخات تشى بعذابٍ لا يُحتمَل. خنقه عجزه فوجد نفسه ينتحب ويقول:

-سامحينى يا أمى. سامحينى

مدت أمه يدها نحوه مستغيثة به وهى ترجوه:

-الرحمة يا عماد..أنقذنى من هذا..اقلتنى وأرحمنى من هذا الألم

عاد عماد ليحاول الإقتراب منها..لكن الحاجز الخفى ظل موجودًا فاصطدم به.. وسمعها تقول وقد عاد الصوت الغليظ:

-لا تتعجل موتك يا فتى..دورك قادم لا محالة لو لم تتذكر..أمامك سنوات لتتذكر, وإلا فالموت لك.

-ارحموها أرجوكم. سأفعل أىَّ شىءٍ لكن ارحموها.

جاءه الرد المفزع الذى لم يتوقعه أبدًا:

-اقتل أمك!.. اقتلها وستنتهى متاعبك الحالية.

لم يشعر بنفسه إلا وهو يعدو نحو باب الشقة هاربًا..خرج قبل أن يصاب بالجنون وقد أدرك أنها تعانى لأنه موجود. لأن شيطانيها ربما يعذبونها من أجله. لا يفهم ما جريرته وما دافِعُهُم لهذا لكنه يشعر أنه المَعنِىُ بالأمر.

هبط إلى الشارع المظلم, ما زال الفجر لم يبزغ بعد. بلغ الشارع الرئيسى فتحرك فيه وقد قرر ألا يذهب إلى أىِّ مكان. سيظل هائمًا على وجهه هكذا حتى الصباح. ربما يخفف هذا ألمه ووحشته. وبعد حين اهتز محموله فى جيبه وراح يرن..تردد قبل أن يخرجه من جيبه ليرى من المتصل. كانت منى وعلى الشاشة راحت صورتها تومض. كانت هذه أول مرة تتصل به منذ حادثة بيته. حَدَّثَتْهُ بهدوءٍ لم يعتده فأدرك أنه الفراق. وبالفعل أدرك كم كان مُصِيبًا حين قالت له فى النهاية:

-أعتقد أنه لا مجال للإستمرار فى حربٍ لا طائل منها. لقد انتهى الأمر.

حاول أن يبدو صوته طبيعيًا وهو يجيب:

-أوافقك تمامًا هذه المرة. على كُلٍّ منا أن يذهب فى طريقه.

قالها وقطع الإتصال فى اللحظة التالية ثم أغلق هاتفه تمامًا. لم ينتظر حتى يعلم رد فعلها. لم ينتظر ليرى إن كانت ستبكى أم تتنهد ارتياحًا مما قاله. لقد تهدمت معابده كلها. ليحترق العالم إذن. ولدهشته وجد نفسه يدندن بأغنية قديمة سعيده.

هل فقد عقله؟.. ربما هذا ما يحدث..

*****



(12)

فرغ المصلون من صلاة العصر،واستعدوا لمغادرة المسجد وفي نفس اللحظة توقفت سيارة جاجوار سوداء رياضية بالقرب من المسجد، وبداخلها كان الدكتور محمد شاهين ينتظر الشيخ عبدالباسط والحاج رضا. بدت السيارة ملفتة للغاية بفخامتها، وراحت عشرات العيون تتلصص عليها بشيء من الإنبهار وهي تتسائل عن صاحبها. وبعد دقائق خرج الشيخ عبدالباسط من المسجد وضاقت عيناه التي أصابتهما الشيخوخة بالضعف ودارتا في المكان قبل أن تتوقف عند السيارة السوداء الفخمة فابتسم ويقول للحاج رضا:

-لقد وصل الرجل..

اتجها نحو السيارة وجلس الشيخ عبدالباسط بجوار الدكتور محمد شاهين بينما جلس الحاج رضا في المقعد الخلفي. حجبتهم السيارة المكيفة ذات المقاعد الوثيرة المريحة الدافئة عن صقيع الشتاء الذي يرتع بالخارج، وقال الشيخ عبدالباسط:

-من أين تأتي بكل هذه النقود التي تشتري بها كل هذه الأشياء الثمينة يا رجل..هل عثرت يومًا على كنزٍ ما..

تحركت السيارة على الفور نحو الطريق العام والدكتور محمد يجيبه ببساطة:

-حدث هذا أكثر من مرة وأنت تعلم هذا. مثلما تعلم أن النقود لم تمثل لي مشكلة في أيّ وقت. لقد كان داود باشا والدي رجلًا ماهرًا في جلب النقود، وصرت أنا ماهرًا في إنفاقها والتمتع بها.

همس الحاج رضا بانبهار وهو يبحث عن مصدر الرائحة الزكية التي تفعم المكان :

-هل كان والدك –رحمة الله عليه –باشا يا دكتور.

-باشا تركي أصيل، وصدقني ياحاج رضا لم تكن لتحبه لو رأيته..كنت لتهرب منه لو اقتربت منك.

بلغا حينها منزل عماد فتوقفت السيارة جواره. هبطوا من السيارة وتحرك الدكتور محمد بخفة لا تتناسب مع عمره وأخرج من حقيبة السيارة الخلفية حقيبة جلدية ضخمة وقال له الشيخ وهو يشعر بالآلام تنتشر في مفاصل ركبتيه :

-حين أراك تتحرك بمثل الخفة وتقود سيارتك بنفسك وتحمل حقيبة ثقيلة لا أستطيع تحريكها، أشعر بالبؤس على حالي..أنت أكبر مني يا رجل ومع ذلك أراك أكثر شبابًا مني بكثير. أتمنى لو تخبرني كيف تفعل هذا!!

مال نحوه الدكتور محمد وهمس في أذنه :

-أخبرتك أنها قلوب الرضع..جرّبها وستعود شابًا

-أحيانًا تجعلني أحقد عليك يا دكتور بسخريتك هذه، ولولا أنني احبك لكرهتك حتى الموت.

-لا أصدق أنك قد تكره أحدًا ما. أعتقد انك لو صادفت مصاص دماء يريد أن يرتوي من دمائك لتركته حتى يشبع.

-لكنني بعدها سوف أبحث عن وسيلة ما لقتله.



بلغوا شقة عماد, فقرع الحاج رضا الجرس. فتح عماد الباب وكان ممدوح صديقه بجواره. رَحَّبَ بهم ودعاهم للدخول, وقال الدكتور محمد, وهو يفتح حقيبته:

-أين والدتك؟.

أشار عماد لحجرتها المغلقة وقال:

-إنها بالداخل..أعتقد أنها نائمة الآن.. بالأمس آذت نفسها بشدة ولم أستطع منعها.

سأله الشيخ عبدالباسط باهتمام:

-لا حول ولا قوة إلا بالله. ماذا حدث ثانية يا بنى؟

قَصَّ عليهما عماد ما حدث..تبادلوا النظرات المشفقة, ومال ممدوح على أذن عماد وهمس بصوتٍ أقرب للبكاء:

-أنت لم تخبرنى بهذا. لقد قلتَ لى أنها تحسنت, وأن هؤلاء قادمون لتخليصها مما بها. لكنك أخفيت عنى أنها قد آذت نفسها. لقد خدعتنى.إننى خائف يا عماد, أرجوك دعنى أرحل الآن..

رمقه عماد بضيق فَكَفَّ عن تذمره. لكنه ظل خائفًا حتى تمنى لو يعدو من المكان كله.

وتعالت فجأة صرخات مخيفة من حجرة أم عماد..ارتجف الجميع, وأخرج الدكتور محمد قنينة تحوى سائلًا ما يميل لونه للزرقة, وراح ينثر بعضًا منه فى المكان.. أمسك بعدها طبشورًا أحمر, ورسم دائرة كبيرة فى منتصف الصالة وراح يزيِّنُها برسوم غامضة..

صرخت أم عماد ثانية وتسرب الضوء الأحمر من باب حجرتها ثانية, فنظروا إليه بقلق. وبعد لحظات فتحت أم عماد الباب وتوقفت أمامه وقد تلاشى اللون الأحمر, راقبتهم بعيون لا حياة فيها, قبل أن تتوقف عيناها على الدائرة التى انهمك الدكتور محمد فى إنهائها, وقالت بوحشية:

-أرى أنك قد جلبت محترفًا هذه المرة يا عماد. لكنه مازال غير كافٍ لمواجهتنا. سوف يفشل كغيره.

قالتها وعادت لتطلق ضحكاتها المفزعة,لم يُعِرْها الدكتور محمد اهتمامًا وصاح فى الشيخ عبدالباسط :

-اجعلهم خلفك يا شيخ عبدالباسط ولاتتوقف أبدًا عن تلاوة القران وآيات الطرد. ومهما حدث لا أريد أن يتدخل أحد منكم فى الأمر إلا لو طلبت ذلك..

وعادت لتحدث الدكتور محمد وقد تجاهلت الباقين, ومن حين لآخر يضطرب وجهها مع ما يتلوه الشيخ عبدالباسط من آيات القرآن الكريم بصوتٍ مرتفع, لكنها وفى كل مرة سرعان ما كانت تتمالك نفسها:

-لن ينجح الأمر يا دكتور, وسنفشل كما فشلت من قبل. هل تذكر ذلك الصبى الذى مات بين يديك وأنت تُخرِجُ أحدنا من جسده. هل أخبرتهم أنك قد فشلت وتسببت فى موت الصبى الصغير يومها.

اضطرب قلب الدكتور محمد للحظة وقد تذكر الصبى. وبينما كانت يده تنتهى مما يرسمه استعاد عقله فى لحظةٍ كل ما كان..

كان الفتى فى السادسة عشرة من عمره, حين حصل على أحد الكتب القديمة من أحد باعة الكتب المستعملة. كان الكتاب يتحدث عن الجان, وطرق تحضيرهم. جَرَّبَ الصبى بحماقة تعويذة استدعاء قوية. لكنه لم

يجلب أحد الجان حينها. بل جلب أحد الشياطين..وعلى الفور استحوذ الشيطان على جسده.

طرق أبواه حينها أبواب الكثير من الدجالين والشيوخ والقساوسة بلا جدوى. وحين لجأ إليه في النهاية كان الأمر قد انتهى، وقد بدأ جسد الصبى فى التآكل، حتى أنه فقد بعض أصابعه. علم الدكتور محمد حينها ومنذ اللحظة الأولى أنه لن ينجح فى النجاة بالصبى. لكنه أدرك أن عليه أن يعيد الشيطان لعالمه وإلا انتقل إلى جسدٍ آخر وعاث فيه فسادًا وشرًا. يومها راح يحاول بكل قوة إخراج الشيطان من جسد الصبى حتى اشتعل جسد الصبى فجأة والشيطان يغادره إلى عالمه ثانية. طالما شعر بالأسف على الصبى، لكنه أبدًا لم يَلُمْ نفسه كثيرًا. لم يكن ممكنًا إنقاذه، لكنه نجح فى حماية الآخرين من مصير مماثل.

وأفاق من ذكرياته على صوتها وهى تقول:

-هل تذكر كيف اشتعل جسد الصبى فجأة.كم كانت زهرة النار رائعة حينها. كم كانت شهية رائحة الشواء التى تصاعدت من جلد الصبى الذى مات وهو يصرخ ويستغيث من عذابٍ لا يُحْتَمَل. كل هذا حدث، وأنت تقف أمامه عاجزًا عن التدخل، وغير قادر على حماية الصبى أو رحمته مما يعانيه.. كم كنت مثيرًا للشفقة حينها.

واقشعرت الأبدان مما تقوله. الغريب أن رائحة شواء عنيفة زكمت الأنوف حينها. بدت رائحة الشواء حقيقية تمامًا فى تلك اللحظة. هل استدعتها الشياطين التى تستحوذ على جسد أم عماد لترهبهم وتثير فزعهم. شَمَّ الدكتور محمد الرائحة هو الآخر، وأدرك ما تصبو إليه تلك الشياطين. كانت ترغب فى بَثِّ الهلع فى نفوسهم لتشتيت أذهانهم، أو ربما كانت تعبث بهم..فصاح بحزم:

-إنهم يكذبون فلا تستمعوا لهم. لا شىء مما يقولوه حقيقى. حتى الرائحة التى تشمونها غير موجودة. إنها بعقولكم فقط. اياكم أن تَدَعُوهُم يثيرون فزعكم، وإلّا فشلنا جميعًا..

تحرك جسد أم عماد فى تلك اللحظة نحوه، وتوقفت عند حواف الدائرة القابع بداخلها وقالت له بصوتٍ مُخِيفٍ غليظ:

-لا تدرك أبدًا مصيرك المظلم الذى نُعِدُّهُ لك. إنَّ ما جرى لذلك الصبى لا يقارن بما سيحدث لك. الكثيرون فى عالمنا ينتظرون لحظات المرح التى ستكون معك فى نهاية عمرك حين تصير عاجزًا عن حماية نفسك. لا تعتقد أن تلك الطلاسم القوية التى تحيط نفسك بها ستحميك للأبد. واهمٌ أنت لو اعتقدت هذا. لو كنت مكانك لقتلت نفسى قبل أن تصل إليك.

-لا أعتقد أننى سأفعل ذلك يومًا ما، مثلما أؤمن أننى سوف أرسلكم جميعًا إلى الجحيم بعد قليل، لتخبروا كل المعاتيه الذين يريدون إيذائى أننى لا أعبأ بهم. أخبروهم أن يذهبوا إلى الجحيم لو لم يكونوا به بالفعل.

واقترب الشيخ عبدالباسط منه..رفع يديه فى الهواء وراح يتلو:

-" وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا * وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا، وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا"

وتقلص وجه أم عماد بشدة. وراح صوتها يتبدل بسرعة وهى تصرخ فيه:

-اصمت أيها الشيخ المأفون..كف عن هذا..سوف أمزقك من أجل هذا.. سوف أحطمك.



لكنه لم يصمت وهو يتقدم نحوها ويقرأ أياته، وهى تتراجع ووجها يحمل أقصى أيات الألم..

-"وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ، إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ"

والتصقت بالحائط. وهى تصرخ وتطالبه بالصمت. كان وجه الشيخ يحمل حزمًا لا حدود له. وصرخ فيها وهو يرفع كفه فى وجهها:

- بسم الله الذى ليس منه شىء ممتنع، وبعزة الله التى لا ترام ولا تُضام،وبسلطان الله المنيع نحتجب،وبأسمائه الحسنى كلها نعوذ من الأبالسة، ومن شر شياطين الإنس والجن، ومن شر كل مُعْلِنٍ أو مُسِرّ، ومن شر ما يخرج بالليل ويكمن بالنهار،ويكمن بالليل ويخرج بالنهار ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ ومن شر إبليس وجنوده،ومن شر كل دابة هو أخِذٌ بناصيتها إن ربى على صراطٍ مستقيم، أعوذ بما استعاذ به إبراهيم وموسى وعيسى ومن شر ما خلق وذرأ وبرأ،ومن شر إبليس وجنوده ومن شر ما يبغى.. أسألكم باسم الله أن تغادروا البدن.. اخرجوا باسم وقوه الله أو تُرْجَمُونَ وتُحْرَقُون..

-لن نخرج.. لن نخرج أبدًا

خرج الصوت من فمها غاضبًا قويًا. فعاد ليتلو القرآن ثانية..هنا التفت إلى صورة قديمة مُعَلَّقَةٌ فى الجدار..وفى اللحظة التالية اندفعت الصورة نحو الشيخ. رآها عماد فأراد أن يصرخ مُحَذِّرًا الشيخ، لكن صرخته أتت متأخرة،فأصابت الصورة رأس الشيخ العجوز فسال خيطٌ من الدماء من جبهته وصمت للحظة وهو يصرخ من الألم. وحين رفع رأسه كانت تقبض على عنقه بيدها وهى ترمقه بغضب:

-أمرناك أن تصمت أيها الغبى. ستموت من أجل هذا.

أراد أن يعود ليقرأ الأياتِ المُهْلِكَاتِ من القرآنِ الكريم لكن لسانه انعقد فى حلقه. بدا وكان الشلل قد أصابه، وقَرَّبَت وجهها منه وقالت:

-إن حنجرتك الآن بيدى ولن تنطق ثانية..لقد انتهى الأمر..

هنا أتى دور الدكتور محمد شاهين ليتدخل. كان كل ما يرغب فيه هو تشتيت انتباهها ليُكْمِلَ عمله. حملت تلك الدائرة التى رسمها الكثير من الخواص السحرية، أهمها قدرتها على حبس كائنات الظلام بداخلها والسيطرة عليهم بصورة قوية. وما أن انتهى منها حتى خرج منها وبدأ يتلو باللاتينية تعويذة قوية:

URITUR TENEBRIS LUX ET SOLVITUR PER MALUM IUS VERBUM IN VIRTUTE, ET ANTIQUA MYSTERIA INCANTATIONIBUS OSTENDENTES IUBEO OBSEQUENDO; TEMPUS TACENDI, ET SALUS EST, ET HOC EST ULTIMUM TEMPUS VETUS ET FORTIS NON INNOXIA VERBA, UT IRRITUM FACEREM, ET QUOD MALA EST, QUI FUGIT, ET VENI: UT SERVUM, UT VENIRET SERVUM, UT VENIRET IN BELLUINUM

هنا صرخت أم عماد وراح جسدها ينتفض. تركت عنق الشيخ عبدالباسط، الذى لهث بشدة قبل أن يُعَاوِدَ تلاوة أيات القرآن الكريم وقد استرد صوته. تذبذب النور فى المصابيح، واهتزت الجدران للحظة قبل أن تتحرك أم عماد نحو الدائرة رغما عنها. ظل الدكتور محمد يردد تعويذته القوية بلا توقف والشيخ عبدالباسط يُعَاوِنَهُ بتلاوة القرآن والعزائم.وفى النهاية توقفت فى منتصف الدائرة فصمت الجميع بترقب. كانت هى أول

من تكلم. خرجت من حنجرتها عشرات الأصوات المختلطة تتحدث بغضبٍ لا حدود له ومقت:

-حتى هذا لن ينجح.. سوف تفشلون فى النهاية.. لا أحد يتغلب علينا أبدًا.

*****

(13)

جذب الدكتور محمد شاهين أحد المقاعد الخشبيه بالصالة وجعله ملاصقًا لدائرته التى صنعها ثم جلس عليه وقال بهدوء:

-إنه وقت الإعترافات. دعينى أخبركم أننى أنتظر أن أملأ مجلدات من الإعترافات.. أريد أن أعلم كل شيءٍ عنكم. ولماذا تؤذونها وتهاجمونها. أنتظر أن تتحدثوا، أو أترككم للتعفن فى هذه الدائرة للأبد.

راحت أم عماد تدور بشيءٍ من الجنون فى قلب الدائرة. عيونها اكتسبت قسوة غريبة وخلجاتها تَقَلَّصَت بشدة، كأنما تعانى من شيءٍ خَفِيّ لا يراه أحد. مضى وقتٌ طويل من الصمت لم يقطعة الا الزمجرات الغاضبة التى تطلقها الكائنات التى تستحوذ على جسد أم عماد. تململ الدكتور محمد شاهين وهو يشغل غليونه الذى أخرجه من جيبه وجذب أنفاسًا سريعة منه راح يطلقها من فمه قبل أن يعاود حديثه:

-إذًا فمازلتم على إصراركم بالصمت. لو كنتم تعلموننى جيدًا لأدركتم أن هذا لا يقلقنى. أمامنا الوقت كله والملل ليس من صفاتى التى أفتخر بها. يمكننى أن أنتظركم الدهر كله.. لكن ماذا عنكم. ستجوعون وستزيد الدائرة من معاناتكم. ستشعرون ببردٍ رهيب ولن تفلح قواكم فى ردعه. إنها دائرة لوسيفر. سيدكم الأثير، إنه من أنشأها للسيطرة عليكم وتأديبكم.

أعلم كم تعانون الآن كما أعلم كيف يمكننى أن أرحمكم منها. والآن هل حان وقت الحديث.

-ماذا تريد ؟..

كانت هذه هى الكلمات الأولى..وابتسم الدكتور محمد بانتصار وقال:

-أعتقد أن السؤال الصحيح من أنتم وماذا تريدون؟..

-إننا هنا كثيرون..كثيرون للغاية..أكثر من أن تُحْصِى عددنا..

كانت الإجابة بأصوات كثيرة مختلطة..كأنما رَغِبَ كُلُّ شيطانٍ بداخل الجسد الضعيف فى إثبات وجوده بالتحدث..ارتجف عماد وهو يرمق أمه بإشفاق، والتصق به ممدوح برعب وهو يغالب رعبه، وحرك الشيخ عبدالباسط رأسه بأسف. لن تنجو المسكينة أبدًا من عملية طردٍ كهذه. سيكون هناك أذى كبير لروحها وجسدها

وعاد الدكتور محمد ليتحدث بهدوءه وغليونه لا يُفَارِقُ شفتيه:

-هذا لا يدهشنى. لكن ماذا عن سؤالى الآخر..ماذا تريدون منها؟..

ارتفعت سبابتها اليمنى وهى تشير لعماد ومرة أخرى أجابت الأصوات جميعًا:

-إسأله. إنه يعلم.

التفتت الأعين كلها إلى عماد الذى أطلَّت منه نظرة ارتباك وحيرة حقيقة، وغمغم وهو يتلفت بينهم :

-إننى لا أعلم أىَّ شىء..

عادت نظرات الدكتور محمد إلى أم عماد وقال:



- الفتى يخبرنا أنه لايعلم أىَّ شىء، وربما يعلم ويريد أن يخفى علينا.. لماذا لا تخبرونا بما يعلمه ويخفيه أو بما يجهله ليعلم ماذا تريدون؟

راحت تدور بلا توقف داخل حواف الدائرة بجنون، وهى تصدر همهمات غامضة متلاحقة سريعة. وبعد لحظات تحدثت دون أن تتوقف عن الدوران:

-إذن فالإنسىُ قَدْ نَسِىَ. كان عليه أن يبحث. كان عليه أن يعلم. كان عليه أن يجد السيد وإلا فالهلاك مصيره.

لم تكن الإجابة مفيدة أو مترابطة. لذا سألها الشيخ عبدالباسط:

-وما الذى عليه أن يبحث عنه وأن يعلمه..ومن هو السيد الذى عليه أن يجده؟..

توقفت عن الدوران وتحركت نحوه. تشممت الهواء من حوله قبل أن ترسم ابتسامة مُخِيفَةً على شفتيها..وتقول:

-الشر بداخلك يرتع لكنك لا تشعر به. ساقاك تؤلمانك ولا تقدران على حملك. أنت تفكر أنها الشيخوخة. لكنها أمرٌ آخر. أمرٌ مُخِيفٌ يروقنا لأنك ستعانى كثيرًا. سوف تتعفن حيًّا أيها العجوز. سوف تتألم حتى تتمنى الموت.

توتر الشيخ عبدالباسط. لقد تعود فى جلسات طرد الجان واستجوابهم على أكاذيب تلقى على مسامعه لإثارة فزعة. ذات مرة حَدَّثَهُ جِنِّىٌّ كان يستحوذ على جسد فتاة صغيرة، عن إصابة ابنه فى نفس اللحظة فى حادث سيارة. وراح الجِنِّىَ يصف له كيف مرت السيارة من فوقه، وكيف راحت تدهس جسده وما الذى جرى لعظامه. لم يكن هناك من وسيلة كى يتحقق من كلام الجِنِّىَ. أنهى يومها تلك الجلسة فى عُجَالَة، وهو لا يطيق

الإنتظار للإطمئنان على ابنه. لكن ابنه كان سليمًا لم يُصِبْهُ سوء.كان الجِنِّىُ يكذب ليشتته ويدفعه لإنهاء الجلسة. تعلم منذ ذلك الوقت أن الجان كثيرًا ما يكذبون، وخاصة الأشرار منهم فلم يعد يكترث بما يلقونه على مسامعه من أخبارٍ سيئة..

لكنه لا يدرى لماذا شعر أن الأمر اليوم مختلف. وغالب هواجسه وهتف:

-لا شأن لكم بى وأجيبوا سؤالى؟

-أنت لا تُصَدِّقُ ما نخبرك به. تظننا نخدعك. لكننا لا نفعل الآن لأننا سعداء. لقد حاربتنا طويلًا وها هى النهاية التى تروق لنا قد أتت. سوف نكون بجوارك دائمًا كى نراك تتألم فنبتهج. سوف نستمتع بعذابك حتى النهاية.

تابع الدكتور محمد ما يدور بينهما باهتمام..وراح يتفقد جسد الشيخ عبدالباسط بعينه..لاحظ الإرتعاشة البسيطة التى تحدث فى كفيه.لاحظ هُزَالَهُ ونُحُولَهُ الذى يفوق ما اعتاده. لاحظ الشحوب الذى يكسو وجهه. هل كان كل هذا موجودًا من قبل ولم يلحظه، أم أنه يتوهم ذلك الآن بعد ما ذكره هؤلاء الشياطين. لو صدقوا فهم يعنون شيئًا واحدًا عليه أن يتحقق منه فور انتهاء تلك الجلسة. شيئًا مُرِيعًا بحق. ربما صَدَقَ هؤلاء الشياطين هذه المرة وقد شعروا بما لا نعلمه..

وقال مقاطعًا حوارهم هذا كى لا يطول وكى لا يشتت انتباهم:

-أعتقد أنك لم تمنحنا الإجابة التى نرجوها، هل يعنى هذا أن نبحث عن عقابٍ ما لتلك الإجابات التى نعدها خاطئة.

التفتت اليه أم عماد وخرج من فمها الصوتُ الغليظُ متحديًا:

-لن تستطيع أن تؤذينا أيها الأحمق.



أخرج ببساطة قنينة بها سائل ورديُ الشكلِ من جيبه. راحت عينا أم عماد تدور فى محجريها بجنون. وضع الدكتور محمد القنينة فى فمه وتلا تعويذة، قبل أن يقذف جسد أم عماد ببعضٍ من سائلها. فى اللحظة التالية تعالى صراخ هائل من فمها وراحت تقفز بجنون، كأنما يحرقها السائل، وقد تصاعد من جسدها بخار وردى ذو رائحة نفاذة. ومن بين آلامها هتفت :

-كفى. كفى. سوف نشويك حيًا أيها العجوز الحقير. سوف نسلخك حيًا قبل أن نشويك..

لم يبالى بتهديدها. والقى ثانية ببعض السائل وكما حدث فى المرة الأولى تعالت الصرخات والأبخرة من جسدها لكن الشياطين التى تسكنها لم تهدد هذه المرة وقد اكتفت بما حدث لها ورمقته بكراهيةٍ لا حَدَّ لها. ومال عماد نحو الشيخ عبدالباسط الذى عاد ليقف بجواره وقال بقلق وهو يخشى أن يؤذى هذا السائل أمه:

-ماهذا السائل الذى يلقيه الدكتور محمد ولماذا يصدر هذا البخار الوردى؟..

-إنه ماء زمزم المقدس مخلوط به بعض البخور والمواد الأخرى. إنه يؤذيهم بشدة ويحرق أجسادهم؟

-وماذا عن أمى؟. ألن يؤذيها؟

-مطلقا. إنه مجرد ماء بالنسبة لها. لاتقلق. إننا نعلم مانفعله.

صمت بشك وتابع ما يقوم به الدكتور محمد الذى كان يقول:

-أعتقد أننى بانتظار الإجابة الصحيحة الآن. من يكون أول من يفعل منكم؟

جاوبوه بمقتٍ وغضب :

-لقد أخبرناك كل شىء..الإجابة لا نحملها نحن..عليه أن يفعل هو.. عليه أن يتذكر أو يبحث عنها. عليه أن يجد السيد الذى ينتظره ويحرره..

-وماذا لو لم يفعل. ماذا ستفعلون حينها.

-سيدفع الثمن..كل عائلته سيدفعون الثمن..السيد لا يرحم..السيد لا ينسى..السيد ينتظر.

-ومن هو هذا السيد الذى يفعل كل هذا؟.. من يكون؟!.

من جديد صمتت، وبدا عليها عدم اللامبالاة..عاد الدكتور محمد يرفع القنينة التى تحوى الماء الوردى أمام بصرها فقالت الشياطين التى تسكنها:

-افعلها ثانية وسوف نقتلها. إنه أمرٌ يسير. جَرِّب وسوف ترى

-إنها مَيِّتَةٌ بالفعل..مَيِّتَةٌ منذ اللحظة الأولى التى تكالبتم فيها على جسدها. ربما من الأفضل لها أن تموت الآن بدلًا من أن تعانى طوال الوقت كل هذا العذاب الذى لا يُطَاقَ وأنتم داخلها..

ارتجف وجهها قبل أن تلتفت إلى عماد لتقول بصوتها الغليظ:

-هل جلبتهم كى يقتلوا أمك..هل تعلم أنهم سيفعلون هذا؟..

ارتجف عماد حينها وهو يخشى أن ينتهى الأمر بشىءٍ كهذا لكن الشيخ عبدالباسط همس فى أذنه:

-لا تهتم بما تسمعه. الدكتور محمد لن يؤذى أمك أبدًا.



لكنها عادت تتكلم مرة أخرى. هذه المرة تحدثت بصوتها الحقيقى.كانت تتأوه وتتألم وقالت بإعياء مُستجْدِيَة:

-لا أريد أن أموت يا عماد. لا تدعهم يقتلوننى. أنجدنى يا بنى. أريد أن أحيا. أريد أن أعيش. أبعدهم عنى وحررنى.

قبض الشيخ عبدالباسط على يده المرتجفة بقوة مُحَاوِلًا الشَّدَّ من أزره وطمأنته. كان جسد عماد حينها يرتعد وهو يبكى شاعرًا بالعجز عن اتخاذ قرارٍ ما وسمع الشيخ عبدالباسط يعاود الحديث إليه قائلًا:

-لا تُصَدِّق ما تسمعه. ليست أمك التى تتحدث. إنهم الملاعين الذين يسيطرون عليها. إنهم يرغبون فى أن تتخذ قرارًا أحمقًا وقد شعروا بالمحاصرة. لا تنجدهم يا بنى أرجوك..

-لكنها أمى..

قالها باكيًا,ورَدَّ عليه الشيخ عبدالباسط بحزم:

-ونحن نحاول مساعدتها..ثق بنا..

وقال الدكتور محمد فى تلك اللحظة وهو يعيد القنينة إلى جيبه :

-لقد اقتنعت الآن بأنه لا جدوى من إيذائكم بهذا الماء. لا فائدة بالفعل من هذا .

قالها وهو يتحرك وعينا أم عماد تتابعه بحذر..واستطرد بعدها مبتسمًا:

-سوف نبدأ فى طقوس إحراقكم وأنتم بجسدها..أعتقد ان هذا هو القرار الحكيم للتخلص من شروركم هذه..

صرخت حينها فى وجهه:

-لن تفعل..ستقتلها لو فعلت..

-أخبرتكم أنها مَيِّتَةٌ بالفعل, ولا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها..لقد انتهت, وحان الوقت كى تنتهوا أنتم أيضًا..

وبينما راحت تتحرك فى الدائرة بجنون وهى تصرخ "لن تفعل " التفت إلى الشيخ عبدالباسط وقال له :

-هل أنت مستعد يا شيخ عبدالباسط ؟..

تقدم الشيخ عبدالباسط نحوه وقال ببساطة:

-دائمًا مستعد..دعنا نبدأ.

وضع كَفَّهُ فى كف الدكتور محمد..لكنهم قالوا فى تلك اللحظة:

-لن تنجحوا أيها الحمقى..ربما لا نستطيع أن نمنعكم لكن هؤلاء يستطيعون

وقبل أن يسأل الدكتور محمد عن من هم..جاءته الإجابة.. أظلمت الصالة فجاة وعاد اللون الأحمر ليكسو المكان..ومن كُلِّ مكانٍ بجدران الصالة راحت الظلال المخيفة تراقص وتتحرك وتتداخل..ظلال حقيقة مخيفة تملك أعينا مشتعلة..دَبَّ الرعب فى النفوس وراح الدكتور محمد يتلو فى توتر تعاويذه كى يصرف هذا الجيش الشيطانِىّ. وأخذ الشيخ عبدالباسط يردد عزائمه وهو يتراجع فى ذعر. تحرك الحاج رضا حول نفسه برعب وقد عقد لسانه فلم يتكلم بينما راح ممدوح يصرخ بلا توقف وهو يبعد بيده أعداءًا وهمية. لكن عماد لم يتحرك. لم يشعر بالخوف ككل مرة. لقد عاش هذا من قبل. والآن قد سئم ما يحدث وتمنى لو ينتهى الأمر بموته لينتهى من هذا الجحيم..

تعالت الصرخات وفى اللحظة التالية اندفع جسد ممدوح زاحفًا على الارض نحو الدائرة المصنوعة من الطباشير. ومُتَأخِرًا أدرك الدكتور محمد ما حدث. لقد قطعت الدائرة السحرية التى ضنعها. لقد تحررت أم عماد ومعها شياطينها..

خرجت من الدائرة وهى ترمقهم بظفر. تحركت نحوهم وهى ترمق الدائرة التى حبستها منذ قليل بازدراء قبل أن ترفع كفها عاليًا وراحت تتلو تعويذة ما. ازدادت الظلال جنونًا فى حركتها وبدأت فى التجسد أمام الجدران. فقد الحاج رضا وعيه وقد سبقه ممدوح. اجتاحت آلام حادة صدر الشيخ عبدالباسط وقد أعلن قلبه أن ما يجرى الآن يفوق احتماله كثيرًا..تلفت الدكتور محمد حوله بقلق وقد أدرك أن الأمور خرجت من بين يديه وراح يفكر بيأس فى حلٍ ما لإيقاف كل هذا. بينما راح عماد يتابع ما يجرى بذهول كانما لا يعينيه كل مايدور أمامه..

اندفعت الظلال المرعبة نحوهم. فبدا وكأنها النهاية. وصَفَّقَت أم عماد بكفها, فاشتعل ضوءٌ مبهر فى المكان كله للحظات ثم اختفى. وحين عادت لعينى عماد قدرته على الرؤية مرة أخرى وجد الشقة خالية من حوله. ولا وجود للدكتور محمد شاهين أو للشيخ عبدالباسط أو ممدوح أو الحاج رضا. لم يسأل نفسه حينها أين ذهبوا. لم يكن ممكنًا فى الواقع أن يفعل. فأمامه كانت أمه تستند على باب حجرتها ترمقه بهدوء. وكانت يدها اليمنى التى تستند بها على باب الحجرة مشتعلة. وشَمَّ أنفهُ رائحة الشياط القوية لجلدٍ يحترق..

*****

(14)

ظلت عينا عماد معلقتان باليد المشتعلة لأمه ببلادة غير مفهومة لبعض الوقت. كان يرى زهرة النار المتوهجة والضباب الرمادى المتصاعد منها ورائحة الشواء الخانقة التى تنبعث منها ونظرة السخرية واللامبالاة التى ترتسم على شفتى أمه وكأنما ما يحترق ليس كفها. لكنه عاد لعقله بعد لحظات وقد شعر أنه فى طريقه للجنون. تَقَلَّصَت معدته وتصاعد الحِمْضُ الحارِقُ إلى حلقه وازداد إحساسه بالدُوَار. قبل أن يبدأ فى القىء العنيف. هوى بعدها نحو الأرض فى إعياءٍ وبدأ يبكى, وسمعها من خلفه تقول :

-يالك من ضعيفٍ بائس!

لم يُجِبْ وعادت معدته للقىء. رأى فى هلع السائل الدموى الأحمر ينبثق من فمه بغزارة, فأيقن أنه الموت وواصلت أمه ضحكاتها وهى تقول:

-يبدو أنه الموت هذه المرة. لكننا سنكون بانتظارك بعدها.

لم يعبأ بما تقوله ورفع رأسه فرأى اليد المحترقة التى تأكل لحمها وبرزت أوتارها وعظامها. مازال الدخان يتصاعد منها وما زالت رائحة الجلد المحترقة قوية.. شعر بالشفقة على أمه فتمالك نفسه وصرخ:

-رباه. ما الذى فعلتموه بأمى أيها الملاعين. لقد قتلتموها.

-أنت من أردت هذا.. أنت من يتسبب فى إيذائها لا نحن

-أنا لم أفعل شيئًا. أنتم من فعل كل شىء

تحركت أمه نحوه. كان وجهها جامدًا وبدت عيناها ميتتان كما لم يرهما من قبل. هل تكون أمه قد ماتت بالفعل فى تلك اللحظة وأن من يحرك جسدها هم الشياطين.

صار وجهها مُلاصِقًا لوجهه وخرج من فمها الصوت المختلط :

-حرر السيد أيها البشرى تنتهى آلامك.حرره لتنتهى لعنتك.

-وكيف أحرره وأنا لا أعرفه. أخبرونى عنه

هنا عاد الجنون فجأة وظهر الضوء الأحمر الرهيب. امتلأت الجدران بالظلال..لم تتحدث أمه لكن الهمهمات والهمسات المبهمة أتت من كُلِّ مكانٍ.. بدت الشقة وقد امتلأت بغتة بالشياطين..وسمع أصواتًا غاضبة تصرخ فى أذنه دون أن يرى قائلها :

-حرر السيد تنتهى اللعنات. حرره تتحرر.

راحت أشباحٌ مخيفة تظهر وتختفى بسرعة هائلة أمام عينيه. وراحت عشرات العيون المشتعلة تظهر فى فضاء الشقة وهى ترمقه غاضبة..

حاول أن يهرب لكنه دار بعينيه فى كُلِّ مكان دون أن يرى باب الشقة. لقد اختفى الباب فعلم أنه صار حبيسًا مع تلك الشياطين. وبرُعْبٍ رأى ما يتجسد على الجدار. رأى الراس الضخم الذى تَجَسَّدَ فجأة وعلى جانبيه قرنان صغيران وفى منتصف جبهته عينٌ ضخمة مشتعلة فى غضب. وبعد حين برز ثعبانٌ من نار وصنع دائرة من اللهب حول الرأس.

ومن كُلِّ مكانٍ حوله تعالت الهمسات المرتجفة التى تردد فى صوتٍ رتيب :

-أزوث.. أزوث.. أزوث!!!

راح يتلفت فى جنون وقلبه يخفق فى عنف, قبل أن يبدأ الرأس الشيطانى المشتعل حديثه. انحسرت الشفتان عن ظلامٍ سَرْمَدِيّ لا نهاية له وخرج صوتٌ قادمٌ من مغارات الجحيم الخفية. كان صوتًا رهيبًا مريعًا بصورة لا حَدَّ لها, وسمعه يقول:

-حان الوقت لتحررنى أيها الإنسىّ. إن أزوث ينتظر.

واكتسحه الدُوَار فأغمض عينية وهو يحيطهما بكفيه كانما لا يريد أن يرى شيئًا مما يدور حوله. تَكَوَّمَ على الأرض فى وضع جنينى, وهو يبكى فَزَعًا. وبعد لحظاتٍ انتبه إلى الصمت الذى أَظَلَّ المكان, فتح عينه بحذرٍ فعلم أن الشياطين قد غادرت وبقيت أمه. رمقها وهى ترمقه بجمودٍ دون أن يَلُوحُ على مُحَيَّاهَا أىّ أثر للحياة. لكن شفتها تحركتا بعد برهة وخرج من فمها صوتٌ جافٌ يقول :

-أنت التالى أيها البشرى. لا تنس هذا!

وللمرة الأولى رأى السكين الضخم المُعَلَّق بقوى خفية فى الهواء خلف عنق أمه. أدرك عماد حينها ما سوف يحدث فحاول أن يثب ليبعد أمه عن السكين, لكنه كان متأخرًا. و رأى بألم كيف اندفع السكين فى سرعة رهيبة نحو عنقها وكيف غاص فى عنق أمه من الخلف حتى مقبضه. راح يصرخ فى يأسٍ وهو يحتضن جسد أمه الذى راح ينتفض بعنف والدم ينهمر من عنقها المذبوح بغزارة..

-أمى..ليس أمى عليكم اللعنة. أمى. أمى!

ولدهشته فتحت عيناها ومن فَمٍ سال منه خيطٌ من الدماء قالت بوهن :

-إنهم أجدادك!

الفصل الخامس

أزوث

(1)

اندفعت ابتسام بلا تردد نحو حجرة أمها. لم تُبالِ بالضوء الأحمر المخيف المريب الذى كان ينبعث منها. لم تهتم برهبتها وفزعها من الذكريات المرتبطة بتلك الحجرة, ولم تذكر غير خشيتها على ابنها. كانت لتواجه شياطين الجحيم نفسه لو واجه ابنها مكروهٌ ما. وحين دلفت الحجرة رأت الهول, فصرخت.

كان الطفل فى منتصف الحجرة المتوهجة يقف بجمود وعيناه معلقة بالجدار الذى يواجهه فى جمود.. وببطءٍ رفعت عينها عن ابنها ونظرت للجدار. وشهقت بفزع حين رأت ما به وعادت لتصرخ.

كان هناك ثعبان من لهب يلتف حول نفسه على الجدار فى صورة دائرة تعلوها رأسه, وفى منتصفه انطبعت جمجمة نارية تضطرم عينها بلهب شيطانى وعلى جانبيها انتصب قرنان متوهجان..

تسمرت بمكانها أمام الرمز المخيف وقد أنساها فزعها طفلها المتصلب بجوارها هو الآخر, ثم تناهى إليها صوتٌ مألوفٌ يأتى من خلفها. كان صوت أمها الراحلة فلم تصدق أذنيها وقد تعرفته فى اللحظة الأولى. وحين استدارت للخلف اصطدم بصرها بأمها وهى تستند إلى الجدار بِكَفٍ مشتعل, وترمقها بنظرة زجاجية لا حياة فيها. حبست أنفاسها وقلبها يدق كالطبول. ومن بعيد لاحت غيبوبة مخيفة تسرع نحو عقلها.

توقف الزمن للحظات مرت كالدهر, وفى اللحظة التالية تبدلت عينا أمها وصارتا حمراوين ناريتين وهى تبتسم. ولم يكن ممكنًا أن تتمالك ابتسام نفسها أكثر من هذا فصرخت كما لم تفعل من قبل. وفى اللحظة التالية اندفع نحوها شبح أمها. اخترق جسدها وغاص فيه حتى اختفى. هنا بترت

صرختها وتجمدت بمكانها للحظة قبل أن تهوى على الأرض كقالبٍ من الصخر بلا حراك.

وعلى باب الحجرة كان هناك عماد. جذبته صرخة أخته فَهَبَّ من فراشة وهرع نحوها. جاء فى نفس اللحظة التى اختفى شبح أمه فى جسد أخته. أراد أن يتحرك نحو أخته المترنحة ليحميها من السقوط, لكنه انتبه إلى الطفل المتصلب فى منتصف الحجرة دون أن يبدو عليه التأثر بما يدور حوله. وارتفع بصره بقلق إلى حيث ينظر الطفل,ورأى الشعار الشيطانى المتوهج على الجدار.

هنا تحدث الصغير فجأة ومن فمه خرج صوتٌ غليظٌ لا يمكن لحنجرته الضعيفة أن تخرجه:

-اقترب الوقت أيها البشرى. السيد ينتظر. حرره,أو تفقدها وتموت. حرر أزوث. إنه ينتظر.

كان هذا أكثر مما يحتمل فاندفع نحو الطفل فَهَزَّهُ بعُنفٍ ليفيق ثم احتضنه وهو يبكى. استجاب الطفل لهَزَّاتِهِ فأفاق وقد عادت الحياة لعينيه ثانية, وتلاشت منها تلك النظرة الجامدة. دارت عيناه فى الحجرة بحِيْرَةٍ, قبل أن يرى جسد أمه الراقد بجواره فصرخ وهو يتخلص من ذراعى خاله لينفع إليها, وراح يناديها باكيًا لكنها هذه المرة لم تُجبْه

*****

(2)

-لقد مات الشيخ عبدالباسط منذ أعوام, رحمه الله لقد أصيب بسرطان البروستاتا بعد حبسك بشهور ولم تستمر معاناته مع المرض الخبيث طويلًا فمات. لكن ما الذى دعاك لتذكره الآن يا بنى؟

قالها الحاج رضا بدهشة، وهو يرمق عماد وممدوح بعينين محتقنتين منتفختين.. كانت أنفاسه سريعة متلاحقة كأنما يخوض سباقًا عنيفًا. كان كبده فى أسوأ حالٍ فى هذه اللحظة، وكانت كليتيه فى طريقهما للنهاية مثل كبده. كان هذا الرجل الطيب يحيا أيامه الأخيرة على ظهر هذه الأرض..

وقال له عماد متجاهلًا أفكاره السوداء تلك:

- الأمر يتكرر ثانية يا حاج رضا. هذه المرة هى ابتسام.

أدرك الحاج رضا ما الذى يقصده عماد. أخبره عماد ماحدث بإيجاز. فتململ الرجل فى جلسته محاولًا إتخاذ أفضل وضع ممكن يريح بطنه المنتفخة بالماء والزلال وهتف بجزع:

-إذًا علينا أن نفعل شيئًا ما بسرعة. لن ننتظر حتى يسوء الأمر.

قالها وسعل بقوة ثم عاد ليقول بصوتٍ ضعيف:

-لا تقلق يابنى. سوف نجد حَلًا ما إن شاء الله.

راقبهما ممدوح وقد تملكه الرعب وعقله لا يَكُفُ عن استعادة الرعب الذى عاشه من قبل أعوامٍ سبع،تذكر ما حدث معه والشيخ وحيد والشيخ ميمى وكيف كاد أن يموت من الرعب حينها..ما لا يعلمانه أن الكوابيس المزعجة مازالت تأتيه من حينٍ لآخر مُذَكِرَةً إياهُ بتلك الحادثة العصيبة..لم يرغب فى أن يترك صديقه يواجه أمرًا كهذا بمفرده لكنه كذلك لا يستطيع أن يشترك فى هذا الأمر ثانية..وخاصة بعد ما رآه يحدث مع ابتسام منذ قليل..لن يشترك فى الأمر حتمًا..لذا قال ببطءٍ وهو يرنو بعينيه لأسفل:

-لن أشترك فى هذا الأمر. أرجو ألا تغضب منى يا عماد. الأمر فوق طاقتى ولهذا أردت أن تعلم منذ البداية أننى لست معك.

أراد الحاج رضا أن يعترض عليه لكن عماد أسرع يقول وهو ينتزع من شفتيه ابتسامة فاترة:

-لا ألومك على هذا يا ممدوح، لست مُجْبَرًا على خوض الأمر ثانية.

ران الصمت للحظات وأبعد عماد بصره عن ممدوح كى لا يُزِيدُ إحراجه بينما قال الحاج رضا محاولًا تغيير دفة الحديث :

-وكيف حال ابتسام الآن..

-مازال عقها فى عالمٍ آخر غير عالمنا. لقد عَهِدْتُ برعاية الطفل لأم محسن.

-حسنًا فعلت. أبعِدِ الطفل تمامًا عن المكان كى لا يصيبه مكروه هو الآخر.

قالها الحاج رضا وصمت الجميع ثانية قبل أن يتذكر ممدوح فجأة شخصًا ما قفز إلى مُخَيِّلَتِهِ فجأةً فقال بسرعة وهو يضرب جبهته بباطن يدة:

-يا إلهى كيف نسيته!..لقد نسينا جميعًا ذلك الطبيب النفسى..أعتقد أنه كان يدعى محمد شاهين كما أذكر.

تهلل وجه الحاج رضا، الذى قال من فوره:

-الدكتور محمد شاهين.. نعم يا بنى. كيف فاتنى هذا. إنه رجلنا الذى نبحث عنه!..

أظلم وجه عماد، وهتف باعتراض:

-هذا آخر من ألجأ له. لقد خذلنى فى المرة الأولى. لن ألجأ إليه أبدًا. لقد تسبب بشهادته الكاذبة اللعينة فى إدانتى.

وضاقت أنفاسة فنهض، وأولاهما ظهره، وأكمل فى هياج:

-ألا تتذكران ما فعله بى..لقد اتهمنى بالجنون فى المحكمة..لقد تسبب فى إيداعى مستشفى الأمراض العقلية بشهادته تلك..كيف يمكننى أن أثق به بعد ذلك. إننى لا أنساه أبدًا وأتمنى لو ألقاه يومًا لأنتقم منه على ما فعله بى. كان الأمر ليتغير كثيرًا لو أخبر المحكمة بالحقيقة بدلًا من اتهامى بالجنون.

حاول الحاج رضا تهدئته وقال:

-ربما أخطأ حينها، لكننا الآن فى حاجة إليه..لقد مات الشيخ عبدالباسط الذى كنا نثق فيه وقد كان الرجل يثق فى ذلك الطبيب كثيرًا كما أخبرنا. لذا أرى أن تدع حنقك منه الآن جانبًا، ونسأله عن مساعدته فى الأمر. إن حياة أختك أهم بكثير من حنقك هذا.

لم يَبدُ على عماد أنه اقتنع بما قيل له، وقال عابسًا:

-وماذا فعل فى المرة الماضية..لقد فشل كالأخرين..إنه لم يساعدنا حينها بأى شيء.

-لكنه حاول واجتهد، بل وكاد أن ينجح لولا أن الأمور تطورت بسرعة. يا بنى استمع إلىّ. اذهب لهذا الرجل واطلب مساعدته. لا تدع عنادك يعمى بصرك عن واجبك. أختك تحتاج للمساعدة وربما كان قادرًا على تقديمها لها فلماذا لا نلجأ إليه إذن ولنُنَحّى حقدنا عليه جانبًا.

نظر عماد إلى ممدوح مستنجدًا، لكنه فوجئ به يقول:

-لا تنتظر أن أخالف الحاج رضا فى رأيه، فلا وقت لدينا لنتعثر فى أحد الدجالين والأفاقين ثانية. يمكننى أن أصحبك إليه لو شئت. لكن عليك أن تذهب إليه.

رمقهما عماد بِجَبْرَةٍ وحنقه من الدكتور محمد شاهين يشتعل فى أعماقه وقد عادت جذوته للإلتهاب ثانية. لكنه بالفعل لم يدرى أىَّ حَلٍ غيره.

فى النهاية أطرق رأسه مستسلمًا وقال:

-حسنًا. سوف ألجأ إليه.

ثم أكمل فى أعماقه بحنق:

-لكن هذا لايعنى أبدًا أنى صفحت عنه !.

*****

(3)

جلس الدكتور محمد شاهين على أريكة خشبية فى منتصف حديقة فيلته وراح يرمق شاردًا الأفق بعيونٍ ضامرة مربضة. راح يدخن بهدوء غليونه ويطلق بخواء سحابات غير منتظمة من الدخان. كان يفكر بيأسٍ فى نهايته.

عما قريب سينتهى كل هذا الصخب الذى عاشه ويموت. عما قريب ستنتهى رحلة طويلة من المغامرة والبحث والإثارة والدهشة والفضول. عما قريب ستأتى النهاية التى لا ريب فيها.. إنها لمستها الأولى والأخيرة التى وهبتها له، وهديتها المخيفة التى لا تُرد. سوف يدفع ثمن مقاومته لها ورفضه إياها غاليًا.. سوف يدفع عمره كله.

كانت رومية. الجثة الفاتنة التى عادت للحياة قبل أعوام. وما أدراك كم هو سحرها وحلاوتها وجاذبيتها وكذلك كم هى قسوتها ووحشيتها وتفرد انتقامها. لقد عادت لتنتقم. ومنحته لمستها الباردة محملة بلعنة الموت الذى لا فرار منه. لقد حكمت عليه بالإعدام، وصار التنفيذ حتميًا.

ينتبه إلى وداد مديرة منزله وهو تعدو نحوه خلال الحديقة دون أن تلتزم برصيفها وهى تطأ بقدمها عشبها المهذب. رأى غضبها فابتسم بفتور وقد أدرك سببه. لقد عاد لتدخين غليونه بينما هى تُصِرُ على اتباع نصائح الأطباء له بالإقلاع عن التدخين.. إنها لا تريد أن تصدق أنه لا يعانى من مرضٍ ما..إنها لعنة يا فتاتى الصغيرة..لعنة صَبَّتْهَا فوق رأسه فاتنة القدماء روميه..

وصلت إليه وصرخت فى وجهه بعصبية تضاعفت عما اعتاده منها:

-لا أدرى لماذا لا تنتحر بمسدسك مادمت ترغب فى الموت سريعًا هكذا. افعلها يا دكتور وأعدك ألا أمنعك. على الأقل ستموت بسرعة, ولن أتعذب طويلًا برؤيتك وأنت تتحلل أمامى ببطءٍ هكذا.

تظاهر بعدم الفهم وقال مُدَاعِبًا:

-مازِلْتِ رقيقة جدًا, وبارعة فى اختيار كلماتك كما عهدتك يا وداد. أتحلل ببطء. أهكذا تصفين ما أعانية؟!. يا لرقتك وعذوبتك.

-ومازِلْتَ عنيدًا جدًا كما اعتدتك..هلا أخبرتنى لماذا عدت للتدخين ثانية. ألم تعدنى أن تقلع عنه.

-وهل توقفت يومًا عنه لأعود إليه. كما أننى لا أذكر أننى وعدتك. هل فعلت حقًا؟.

زفرت بحنق ويأس. وأشاحت بوجهها بعيدًا كى تخفى عبراتها عنه, لكنه لاحظها. قليلة هى المرات التى كانت تبكى أمامه. ثم قالت له بصوتٍ واهن وهى تجلس بجواره:

-تعلم أنه من العسير أن أحتمل فراقك. هذا يفوق تفكيرى وقد اعتقدت منذ زمن أننى أشيخ أسرع منك بكثير وأننى سأموت قبلك, وكان هذا يريحنى

كثيرًا. طالما تمنيت أن أغادر العالم قبلك كى لا أكتوى يومًا بفراقك. الآن تَبَدَلَ الأمر,وها أنا أراك أمامى تحتضر. إن أبشع كوابيسى يتحقق الآن أمام بصرى..يتحقق ولا أستطيع أن أفعل شيئًا.

وتجفف أنفها بمنديل ورقى فى يدها وتكمل:

-دكتور محمد.أرجوك عِشْ من أجلى أطول وقتٍ ممكن. توقف عن قتل نفسك بالتدخين, وأفعل أىَّ شىءٍ قد يطيل بقاءك معى قليلًا. هذا طلب صغير للغاية يستحق أن تحققه من أجلى. إنه طلبى الأخير الذى أتمناه منك.

كان يعلم حقيقة مشاعرها نحوه.. وبعد خمس وثلاثين عامًا من عملها لدية كمديرة لفيلته, مازالت تحبه وما زالت تخاف عليه كما فعلت دائمًا.. وها هى الآن تخشى موته وتُغَالِبُ نفسها كى لا تنهار أمامه..

المشكلة أنه لن يترك التدخين أبدًا. سيموت وغليونه فى فمه لو استطاع. فبعد كل تلك الأعوام الطويلة من ملازمته صار جزءًا منه لا يمكنه فراقه. لذا قال بهدوء وهو يربت على كتفها بيدٍ ضامرة سقيمة:

-ولماذا لا تصدقين يا عزيزتى أن التدخين لا شأن له أبدًا بما أعانيه,إنه لن ينفعنى ولن يضرنى كذلك. لا تطالبينى بالإمتناع عن أمرٍ أحبه فى أيامى الأخيرة. من حقى أن أستمتع بما أحب قبل أن أموت.

-لكن الأطباء طالبوك بالكَفِّ عنه.

-أذكر أننى مازلت طبيبا أنا الآخر, ورأيى كطبيب أن التدخين لا ضير منه فى مرضى هذا. الأمر أعقد بكثيرٍ من سحب الدخان, وما قد تسببه من أمراض هذه المرة. إنها لعنة يا عزيزتى. لعنة !!. هل تدركين هذا؟.

ترمقه بشكٍ قبل أن تفقد رباط جأشها ثانية ويرتفع صوتها وهى تقول بتحدٍ:

-هل تعنى بكلامك هذا أنك لن تمتنع عن التدخين؟

-أعدك ألا أفعل أمامك. هذا أكثر ما يمكننى تقديمه.

-إذا سأتركك. أنت تعلم أننى سأفعل. لو ظللت تدخن هكذا فلن أمكث بالفيلا ثانية واحدة. إنها كلمتى الأخيرة.. عَجِّلْ بموتك كما تشاء لكن ليس أمام بصرى. لن أكون ها هنا أبدًا حين تموت.

قالتها وابتعدت بغضب، لكنها وبعد أمتارٍ قليلة، توقفت أمام إسماعيل بواب الفيلا العجوز الذى تقدم نحوها ببطءٍ، وقال:

-هناك شابان يرغبان فى رؤية الدكتور. إنهما يُلِحَّانِ فى التحدث إليه

-من يكونان وماذا يريدان؟.. ولماذا لم تخبرهما أن الدكتور مريض، ولا يقابل أىّ أحد. اذهب واطلب منهما الإنصراف.

سمع الدكتور محمد الحوار فقال وهو يلتفت إليهما:

-ألم يخبرانك ما اسمهما، ولماذا يرغبان فى مقابلتى؟..

-لقد أخبرنى أحدهم أن اسمه عماد، قال إنك تعرفه منذ أعوام.

تذكر عماد على الفور. إذن مازالت ذاكرته على حالها حادة يقظة كما كانت دومًا. إنها ميزته الكبرى التى لم تذهب بها لعنته هذه، وبينما هَمَّتْ وداد بأن تطالب البواب العجوز ثانية بإبعادهم، أسرع ليقول للبواب العجوز:

-عماد !!. إذن فقد أطلقوا سراحه. قُدْهُ إلىّ يا إسماعيل. سوف أقابله بالطبع. من الرائع أن ألقى هذا الفتى ثانية قبل موتى.

تحرك البواب العجوز ببطء نحو الباب، بينما انتظرت وداد بجواره متحفزة وقد صمتت على مضض..وبعد دقيقتين كان عماد أمامهما مع ممدوح الذى تمالك نفسه بصعوبة، وعيناه معلقة بانبهار بالحديقة الوارفة التى يسير فيها..وما أن وقع بصر عماد على الدكتور محمد حتى اتسعت عيناه بذهول. فلم يكن هذا أبدًا الرجل الذى رآه منذ أعوامٍ سبع. بدا وكأنه إنسانٌ آخر، رجل تَقَوَّضَ جسده وتهدم.. مستحيل أن تفعل سنواتٌ سبع فى شخصٍ ما كل هذه التغيرات.. لقد صار عجوزًا بشدة وكأنما اقترب عمره من الأعوام المائة.. أيكون مريضًا هو الآخر مثل الحاج رضا؟..

وبادره الدكتور محمد مُرَحِّبًا بودٍ ودفء:

- يبدو أنه مُقَدَّرٌ لى أن أراك ثانية يا صديقى القديم.. صَدِّقْنِى يا عماد، تمنيت أن يحدث هذا قبل أن أموت. ما زالت أدين لك بتفسيرٍ أخير.

فى تلك اللحظة ذهب عن عماد كل الحنق والغضب والكراهية مرة واحدة،بعد أن رآه هكذا. الآن لا يشعر فى أعماقه بشىءٍ غير الإشفاق نحوه. حَكَّ أنفه وهو يقول مرتبكًا:

-كيف حالك يا دكتور محمد. هل أنت بخير؟.

كان سؤالًا لا معنى له، وقاطعتهما وداد وقالت بصرامة لعماد وممدوح:

-أعتقد أيها الشاب أنك لاحظت أن صحة الدكتور ليس فى أفضل حالاتها.. لهذا أرجوا منكما ألا تطيلا الزيارة أو تُزهِقَا الدكتور أو تزعجانه.

انزعج الدكتور محمد من كلماتها, وهو يرى كيف احتقن وجه ممدوح بخجل, وكيف ازداد ارتباك عماد, فقال لها مُحْتَدًا:

- لايصح أبدًا أن يقال هذا لضيوفى يا وداد. من فضلك اتركينا الآن بمفردنا, ولا تنسى أن تُعِدّى لنا عصيرًا طازجًا.

كتمت اعتراضها وغيظها بأعماقها, ورمقت الشابين بحزمٍ كأنما تُذَكِرهُمَا بما طالبتهما به, وانصرفت. هنا قال عماد ثانية ولم يجلس بعد:

-أخشى أن تكون السيدة مُصِيْبَةٌ فيما قالته..لا مبرر أبدًا أن نرهقك. أعتقد أنه علىَّ أن أنصرف الآن.

-اجلس يارجل ولا تتحدث بهذا الهراء. أنا بخير حالٍ كما ترى. دعك من كلام النساء وأخبرنى, من هذا الوسيم الذى يرافقك؟.

ابتسم الإثنان رغمًا عنهما لدعابته وقد نعت ممدوح بالوسامة التى يفتقدها بشدة, وأسرع عماد يقدم له صديقه:

-إنه صديقى ممدوح, لقد كان معنا من قبل لو كنت تذكر..يبدو أنك قد نسيته.

رفع الدكتور محمد رأسه للفضاء,محاولًا التذكر قبل أن يبتسم وقد تذكره:

-نعم..نعم..أذكره بالطبع, ربما لم أتعرفه منذ البداية لأنه قد ازداد بدانة. كيف حالك يا ممدوح. أرى أن حديقتى قد أعجبتك..

-إنها رائعة للغاية يا دكتور. لم أرَ فى حياتى شيئًا كهذا. لكن ماذا تدعو تلك الزهرة الحمراء هناك.

-إنها زهرة "الأضاليا" إنها مكسيكية الموطن.. ستروقك كثيرًا لو نظرت إليها عن قرب..اذهب إليها لتراها. يمكنك كذلك أن تتجول بالحديقة كما تشاء لو أردت..هناك عشرات الزهور الجميلة التى ستعجبك حتمًا.

وأدرك ممدوح على الفور ما يصبو إليه الدكتور محمد.. لابد أنه يرغب فى تبادل حديث خاص مع عماد. لذا تنحنح بحرج وهو ينهض مرتبكًا وتمتم:

-إن هذا ما أتمناه بالفعل..سوف أذهب لأرى كل زهرة فى الحديقة.

راقباه حتى ابتعد, قبل أن يعاود الدكتور محمد حديثه بعد أن أطلق من فمه سحابة خفيفة من الدخان:

-والآن أنتظر أن تخبرنى كم أنت حانق علىَّ بعد شهادتى الزائفة ضدك فى المحكمة.. بالطبع لا ألومك على مشاعرك تلك, لو كنت مكانك لفعلت.

-صدقنى ليس الأمر الآن كما تعتقد.. ربما كان من قبل, لكننى فى هذه اللحظة لا أحمل نحوك أىَّ ضغينة. لقد انتهى الأمر.

-وهل حدث هذا لأنك أشفقت على العجوز الذى أهلكه السقم والعجز حين رأيته بعد كل هذه الأعوام..

-أقسم أنه لا شأن بمرضك بما أشعر به.. ولو كان حديثك هذا مقدمة لاعتذارٍ تعتقد أننى بانتظاره أو أحتاجه فلا تفعل أرجوك..لقد انتهى الأمر بالفعل.. ولست هنا من أجل هذا.

تراجع الدكتور محمد برأسه للخلف وعيناه لا تفارقان وجه عماد, كأنما يقرأ من خلاله ما يُكِنُّهُ فى أعماقه, وقال باسمًا:



-ومن أخبرك أننى أرغب فى تقديم اعتذارٍ ما.. هذا شئ لم يدور بخلدى قط.. لكننى أرى أنه من حقك أن تفهم الآن لماذا اتهمتك بالجنون ولم أخبر القضاة بالحقيقة.

هزَّ عماد رأسه رافضًا الفكرة وقال على الفور:

-أرجوك لاتفعل يادكتور.. أخبرتك أن الأمر قد انتهى فلا تزعج نفسك بتبريرٍ قد يُغيِيك. إننى...

هنا بان الغضب على وجه الدكتور محمد وقاطعه قائلًا:

-اسمعنى يا بنى وكُفَّ عن إحساسك السخيف بالشفقة نحوى.. إننى لم أمت بعد، ولست عاجزًا عن تنظيف نفسى من فضلاتى لتفعل.. مازلت قادرًا على العناية بنفسى والوقوف على قدمى، وحتى أفشل فى هذا، لا أحب أن أرى نظرة الشفقة تلك فى عين أحدٍ ما.

ارتبك عماد وقد تصاعد الخجل فى أعماقه فهرب ببصره نحو ممدوح الذى راح يتجول فى الحديقة بلاهدف، بينما عاود الدكتور محمد حديثه قائلًا:

-أرجو أن تعى كلماتى هذه..لقد كنت مظلومًا حين اتهمك الجميع بقتل أمك.. أعلم جيدًا أنك لم تكن لتقدم على أمرٍ كهذا مهما حدث.. لم تكن لتفعلها قط حتى لو هاجمتك ورغبت فى قتلك.. هذا أعلمه لأننى أعرفك ولأننى طبيب نفسى وظيفتى أن أُقيِّمَ الظروف والدوافع النفسية لمن أمامى.. إننى أدرك هذا جيدا، لكن ماذا عن القاضى؟!.. هل تعتقد أنه كان ليصدق أى حديث أخبره فيه أن أمك كانت مسكونة بالجان، وأننى أعتقد أن الجان أو الشياطين هم من قتلها وليس أنت.. هل تعتقد أن القاضى كان ليصدق أمر كهذا؟.

عاود عماد عناده ورفضه لما حدث. عاد حنقه وغضبه القديم ليتأجج فى نفسه وعاد البركان فى جوفه ليثور، فهتف معترضا:

-كان عليك أن تخبرهم الحقيقة يا دكتور، كان عليك أن تساعدنى بتأيد ما قلته..كما كان عليك أن تجتهد كى تثبت براءتى ما دمت تدرك أننى لم أفعل.

-وهل تعتقد أن هذا كان ليفلح.. هل كان معك شهود، رأوا ما حدث بينك وبين أمك.. بالطبع لا.. إذا ماذا تنتظر من القاضى الذى يحكم بالأدلة والبراهين أن يفعل.. هل تعتقد أنه كان ليصدق شهادتى القائمة على سرد أمور عجيبة مليئة بالأحداث الخارقة، والتى ربما رفضها عقله تمامًا. كنت لاؤذيك لو فعلت. بل كنت لأشكك فى مصداقيتى نفسها لو فعلت

-وهل تعتقد أنك لم تؤذنى فعلًا يا دكتور بما فعلته.. لقد قضيت أعوامًا سبع بمستشفى الأمراض العقلية.. لقد صرت مجنونًا فى أعين الجميع.. لقد فقدت من أُحِبُّ بسببٍ هذا.. ولقد ضاع مستقبلى، ولم يعد هناك من يقبلنى فى عملٍ ما.. هل هناك إيذاء حقًا أكثر من هذا؟

تأمله الدكتور محمد بهدوء. كان يدرك ما يعتمل بداخله من حنق، وارتعشت يداه للحظة قبل أن يجيبه:

-كل هذا كان ليحدث على كل حال..لو أننى شهدت بما حدث، وأخبرت القاضى بالحقيقية، ورفض تصديقى ولم يأخذ بشهادتى، ماذا كنت تنتظر.. بالطبع كان ليحبسك وربما كانت عقوبتك السجن المؤبد مثلًا.. حينها كنت لتقبع خلف القضبان أعوامًا لن تحصها بين القتلة والمجرمين لتتحلل نفسك خلالها وتتعفن روحك، وحين تغادر السجن بعدها ستكتشف أنه لا شىء قد بقى لك لتعيش من أجله. ربما ترى أننى قد أخطأت لكننى أؤمن أننى لم أفعل. لقد فعلت الصواب يا بنى حين بَدَّلْتُ

الحقيقة، فعلت هذا لأننى أردت أن أساعدك ولم يكن أمامى سبيلٌ آخر غير هذا..

لم يبد على وجه عماد الإقتناع، وإن تَعَجَّبَ من نفسه حين شعر بأن حنقه راح يَخفُتُ تدريجيًا فى أعماقه..وأكمل الدكتور محمد حديثه وهو يغمض عينيه وهو يستعيد من ثنايا ذاكرته ذكرى بعيدة:

-لقد واجهت أمرًا مُشَابِهًا لما حدث لك منذ أعوام بعيدة. حادثة تشبه كثيرًا ما لاقيته.. فى تلك المرة احترق منزلٌ ومات كل من فيه.. الضحايا كانوا ثمانية بينهم أطفال، والمتهمة شابة ممسوسة كنت أقوم بعلاجها..كانت فى هذا الوقت قد شُفِيَت من مَسِّهَا، لتجد نفسها متهمة بالقتل.. متهمة بقتل أسرتها جميعًا وهى لم تفعل، حاولت الدفاع عنها بإخبار المحكمة بالحقيقية، فلم يصدقنى أحد حينها، ليحكم عليها القاضى بالإعدام فى البداية، ثم خُفِّفَ الحكم فى الإستئناف للسجن المؤبد. لكن هذا لم يغير من الأمر شىء. لقد ماتت الفتاة بعد أعوامٍ فى السجن. ماتت بعد أن أصابها اكتئاب شنيع لم تشفى منه. إننى لا أبالغ لو أخبرتك أنه كان ينتظرك مصيرًا كهذا. فَكِّر قليلًا بعقلك فى ما أقوله ودع غضبك جانبًا وستدرك أننى لم أبغِ إلا مساعدتك.

وصمتا وقد عادت وداد حاملة عصير البرتقال الطازج. قَدَّمَت كوبين إليهما ثم بحثت بعينها عن ممدوح، حتى وجدته فى ركنٍ بعيدٍ مُنحَنِيًا فوق نبتة من نباتات الحديقة يفحصه باهتمام.. وقالت بشك:

-ما الذى يفعله هذا هناك..بل ولماذا ذهب إلى هناك؟.

-ربما كان يرغب فى قضاء حاجته.

داعبها الدكتور محمد، فتقلصت ملامحها جزعًا ووثبت منتفضة، وصرخت وهى تهرع نحوه حاملة كوب عصيره:

-سأؤدبه لو كان يفعل. لا يفعل هذا أبدًا إلا الحيوانات.

وضحك الإثنان لبعض الوقت وهم يشاهدانها تندفع بغضب نحو ممدوح، قبل أن يرتشف الدكتور محمد بعض شرابه ويقول لعماد :

-لماذا جئتنى ثانية يا عماد ؟..

ارتشف عماد ثلاثة أرباع كوبه مرة واحدة كأنما يدفع بهذا بعضًا من توتره، قبل أن يحكى له ما حدث مع أخته ابتسام. استمع إليه الدكتور محمد باهتمام وقلق، وحين انتهى عماد من كلامه، قال له بتوتر حقيقى:

-هل تعلم يا عماد..كنت أخشى أن يحدث هذا ثانية. بل لنقل أننى كنت أنتظر أن يحدث.

قال له عماد بدهشة:

-ولماذا اعتقدت هذا.. المفترض أن هذا الأمر كان مع أمى فقط، والمفترض أنه قد انتهى بموتها.

-ولماذا أصيبت به أمك من البداية.. وكيف احتل جسدها كل هذا العدد المخيف من الجان فى وقتٍ واحد ولماذا فعلوا.. صَدِّقنى لقد أدركت منذ الوهلة الأولى التى زرتك فيها أن أمك قد انتهت.. كان من المستحيل أن ينجو بشرى ما من استحواذ شيطانى كهذا. لقد كان الأمر كله مربك ملىء بالألغاز.

-وهل لديك تفسير لما حدث؟

صمت الدكتور محمد للحظة وتَطَلَّعَ إلى الشمس الغاربة وقد صبغت الكون بصُفرَتِهَا المُقبِضَة قبل أن يقول بهدوء :

- انتقام شيطانى ياعماد..انتقام ملعون يطارد عائلتك كلها.

(4)

مضى بعض الوقت من الذهول قبل أن يفيق عماد من هول الصدمة. انتقام شيطانى. كان هذا أكبر من أن يتخيل وقوعه مخنوق فهتف وهو غير مصدق:

-انتقام شيطانى! أىُ قولٍ هذا يا دكتور؟..

-يؤسفنى أن أخبرك أن هذا الإحتمال هو الأكثر قبولًا لدىّ..إن تفكيرى هذا ليس وليد اللحظة. لقد كان الأمر كذلك منذ واجهنا الأمر سويًا فى المرة الأولى.

- وما شأن الشياطين بنا لِتَصُبَّ على رؤوسنا لعناتها السوداء.

هز الدكتور محمد رأسه ببطء, وفرد أصابعه التى راحت تؤلمه بشدة, فلاحظ بعض التسلخات الجلدية الحديثة بين أصابعه, كانت أصابعه تتآكل من جذورها, رمقها متوجعًا, قبل أن يضمها ثانية محتملًا الألم العنيف, ويقول:

-وهل يهم هنا ما تعتقده أو ما ترفضه؟..أنا أرى ما يحدث معك أكبر من أن يكون مجرد استحواذ شيطانى أو مَسّ أرضى..لو كان الأمر كذلك لما واجَهَت أمك كل هذا العنف..إن ما قامت به من أشياء فظيعة, لايستطيع فعله إلا مردة الجان وشياطينهم وبعض سحرة الجان الكبار..وهؤلاء لن يضيعوا وقتهم فى مجرد استحواذ على جسد أحد البشر. إنهم لا يفعلون أمرًا كهذا إلا لسبب قوى, وغالبًا ما يكون الإنتقام هو هدفهم.

-ولماذا يرغبون فى الإنتقام منا..نحن لا صلة لنا بهم ولا نهتم بتلك الأمور ولا نطرق أبواب الدجالين أو السحرة أو غيرهم..فلماذا يختاروننا دون باقى البشر ليفعلوا.

لم يجبه الدكتور محمد من فوره, وراح يدخن غليونه ببطء فى نفس الوقت الذى عاد فيه ممدوح, فأشار اليه أن يجلس فجلس بهدوء..ومضى بعض الوقت من الصمت قبل أن يقول الدكتور محمد:

-هناك أشياء قمت بها لا تعلمها. فبعد سجنك كان فضولى عاتيًا لمعرفة حقيقة ما حدث لك..حاولت أن أتسلل إلى شقتك لكنى فشلت..جربت أن أتصل بأختك لكنها رفضت الحديث إلىّ, بل وأغلقت الهاتف فى وجهى حين أخبرتها أننى كنت أعرفك..

وضحك بوهن كأنما راقه الأمر حينها, وأكمل:

-بالطبع تفهمت لماذا فعلت هذا..لقد كانت حانقة عليك وحَمَّلَتْكَ مسئولية موت أمكما..لكننى كنت بحاجة لأن أفهم..وقابلت الشيخ عبدالباسط حينها, وجَرَّبْنَا أن نستدعى أحد الجان لنستعين به فى معرفة ما حدث لكنه لم يعد لنا وعلمنا أنه اختطف وقتل..علمنا هذا بعدها فكان هذا كافيًا لأن نتوقف عن المحاوله. أدركنا أن الأمر أكبر من قدراتنا على تتبعه فتوقفنا.

وصمت مرة أخرى وعماد يرمقه فى ذهول, قبل أن يردد:

-أتعنى أن جنيًا قد مات لمجرد أنكم طلبتم منه معرفة ما حدث.

-هذا ماحدث بالفعل وهو أمر ليس بالهين أبدًا لو علمت أن الجان لا يعيشون فرادى..إنهم قبائل وعشائر كثيرة وكلهم يرتبطون بأواصر قوية من القرابة والدم..ولو تم الإعتداء على جِنّىٍ لَهَبَّت عشيرته وأهله لنجدته من فوره والثأر له, حتى لو اشتعلت الحروب من أجل هذا.. ومع هذا مات الجِنّىّ ولم تثر قبيلته أو حتى تبحث عن ثأره..هذا يعنى أنها شعرت أنها أضعف من أن تنهض بثأره وأن من قام بقتله قد يبطش بهم ولا قِبَلَ لهم بهم..بالمناسبة هل تعلم كيف مات الشيخ عبدالباسط؟

-.أعتقد أنه السرطان..لقد أخبرنى الحاج رضا بهذا.

-أجل. لقد مات بسرطان البروستاتا. ولو كنت قوى الذاكرة لعلمت أن تلك الكائنات التى استحوذت على جسد أمك قد علمت هذا وقد كان المرض فى بدايته. هذا يعنى قدرتهم على معرفة المرض الخفى المستتر فى الأجساد, وتلك مقدرة لا يملكها كل الجان..القوىُ فقط منهم هو من يفعل.

تذكر عماد ما قاله الشيطان على لسان أمه للشيخ عبدالباسط..وابتلع ريقه بصعوبة ورمق الدكتور محمد الذى تجعد وجهه وتقلص وهو يدارى آلامًا لا تُطاق تعصف بجسده وتنهشه.. وبعد لحظات سأله عماد :

-ولماذ قد يرغب هؤلاء فى الإنتقام منا ؟..ألديك اقتراحٌ ما؟.

-ماذا تعرف عن أسرتك يا عماد..أجدادك من الناحيتين..ماذا كانوا يفعلون وهل اشتغل أحدهم بالسحر مثلًا, أو حاول يومًا الإتصال بعالم الجان؟

-إننى لا أعلم الكثير عن أجدادى من ناحية أبى, فجدى لأبى مات حين كان أبى طفلًا, وكذلك فعل أبى..لقد مات وأنا فى الثانية من عمرى. أما جدى لأمى فقد كان عاملًا بأحد مصانع الغزل والنسيج, وأبوه كما أذكر كان فلاحًا. لا أعتقد أن هناك ما يريب فيهم أبدًا.

-مازلت أعتقد أن هذا الإنتقام يتعلق بأحد الأجداد..هذه ديدن الأمور هنا.. يتصل الجد بالقوى الشريرة..ثم تكون لعنة تلزم أبنائه بعدها..لذا أرى أن عليك أن تبحث وتفتش جيدًا عن أسرتك, وأن تعلم كل ما يمكنك معرفته عن حياتهم. ربما يقودنا هذا للوصول لشىءٍ ما.

ومرة واحدة طفا على سطح عقل عماد أمرٌ ما قد نسيه طويلًا. وتذكر ما قالته أمه وهى تحتضر.هل كان الحل أمامه طوال الوقت وهو لا

يدرى..راحت كلماتها الأخيرة قبل أن تفارق الحياة تدوى فى أذنه. "إنهم أجدادك".

رباه !!. لماذا نسى هذا كل هذا الوقت,والتفت إلى الدكتور محمد وأخبره بما تذكره..انتبه الدكتور محمد لكلماته وغمغم باهتمام:

-هذا يؤكد ظنونى ويحسم الأمر, علينا التنقيب فى تاريخ عائلتك. هل تعلم منشأ أجدادك

-أعتقد أنها قسط اللبن. إنها إحدى قرى محافظة القليوبية, وقد أخبرتنى أمى يومًا أن أجدادى أتوا منها. هل تعتقد أن نبدأ البحث من هناك؟

-لا بأس أن نبدأ من هناك

صمت عماد للحظة مفكرًا فى الأمر قبل أن يتحدث ممدوح الذى عاد فى أمرٍ قد نسيه الجميع:

-وماذا عن ابتسام..ماذا تنوى أن تفعلوا معها..هل ستذهبوا إلى تلك القرية وتتركوها هنا بمفردها.

لكن الدكتور محمد ابتسم وقال على الفور :

-سوف أتولى أنا أمرها..لقد أتيت تسألنى المساعدة من أجلها والآن سوف أفعل.

تذكّرَ عماد وممدوح المواجهة السابقة العنيفة التى كانت مع أم عماد ونظرا إلى جسد الدكتور محمد الضعيف, وتبادلا النظرات الصامتة التى تصرخ بما يدور فى أعماقهم "أيستطيع الدكتور وهو فى مرضه هذا مواجهة أمرٍ كهذا؟",لكن الدكتور محمد صاح فيهم بغضبٍ حقيقىَ:



-أخبرتك ياعماد ألا تُجْهِدَ عقلك بالتفكير بشأنى..أنا لم أصبح عاجزًا بعد, ومازلت قادرًا على القيام بالأمر..كُفَّ عن نظراتك السخيفة تلك ولا تقلق بشأنى..هذه المرة أدرك جيدًا ما أواجهه, وأعتقد أننى أستطيع حماية نفسى وحمايتكم بصورة كبيرة. فقط ثقا بى هذه المرة.

قال عماد على الفور كأنه يعتذر:

-إننى أثق بك بالفعل يا دكتور

-هذا ما أنتظر أن أسمعه. والآن دعونى أُحْضِرُ أولًا بعض الأغراض اللازمة, قبل أن نذهب سويًا إلى بيتك لنرى ما يمكننا عمله..بالمناسبة هل يتقن أحدكم القيادة أم أطلب السائق.

أجابه ممدوح :

-إننى أستطيع القيادة, أحمل رخصة قيادة منذ أعوام.

-حسنًا. انتظرانى هاهنا, لن أتأخر.

وتحرك بحماس كأنما عادت لجسده حيويته كلها, وما أن غاب عن بصرهما, حتى قال ممدوح بتوتر :

-إننى لا أشعر بالراحة..ألا ترى كيف يبدو الرجل..إنه ميت تقريبًا.

-ليس أمامنا إلا أن نتبعه. ألم نأت إلى هنا من أجل هذا؟!

وقبل أن يُعَقِّبَ ممدوح, ارتفع فجأة الرنين المميز لهاتف عماد المحمول.. أخرجه من جيبه ونظر فيه.. كانت منى من تتصل. كانت المرة الأولى التى تفعلها منذ طالبته بالإبتعاد عنها. وأتاه صوتها باكيًا:

-النجدة يا عماد. إفعل شيئًا ما أرجوك. لم أعد أحتمل تلك الحياة. لم أعد أحتمل المزيد.

تناسى كل ما يمر به, وتذكر حبيبته, فهتف بقلق:

-ماذا هناك يا منى؟. هل آذاكِ ثانية؟

-إنه يحبسنى ويعذبنى. تعال لترى ما فعله بجسدى. إنه يحرقنى بالنار. إنه يقتلنى ببطء. افعل بالله عليك أىَّ شىء وإلا قتلت نفسى.إننى أفكر فى الإنتحار طوال الوقت.

-إياكِ أن تفعلى. سوف أقتله لو حدث مكروهٌ لكِ.

-دعنا نهرب سويًا من كل هذا الجحيم..دعنا نبدأ من جديد فى مكانٍ بعيد.

ذُهل من كلماتها وقبل أن يرد عليها, رأى الدكتور محمد يتقدم نحوهم حاملًا حقيبة صغيرة وخلفه مديرة بيته تعدو خلفه وتصرخ فى جنون معترضة على ما يفعله..هنا قال لها مُنْهِيًا اتصاله:

-سأفكر فى الأمر يا حبيبتى..أعدك أن أفعل ما ترغبين فيه فاطمئنى. أنا مضطر للذهاب الآن وسوف أُحَدِّثُكِ فيما بعد. إلى اللقاء

قالها وأنهى الإتصال وقد صار الدكتور محمد أمامه وابتسم قائلًا كأنما يستمتع بالأمر أو كأنما هو موشك على القيام برحلة خلوية:

-إننى مستعد يا شباب, دعونا نبدأ المرح.

وبينما يتحركون نحو السيارة كانت وداد تصرخ من خلفهم:

-لقد فقدت عقلك حتمًا. حين تعود لن أكون هنا, سوف أرحل الآن قبل أن أجنّ. أقسم أنني سوف أفعل, وسترى !



(5)

راح عماد الصغير يلهو فى الصالة, ومن داخل حجرتها راحت سوسن تُطِلُّ على الطفل من حينٍ لآخر لتطمئن عليه كما أوصتها أمها. راقها الأمر كثيرًا, فالطفل قد صار وسيلة اتصال جديدة بعماد, وقد صار لقائها به صعبًا بعد أن أتت أخته لتقيم معه. ما الذى أتى بتلك الأخت الباردة الصارمة لتعيش الآن معه؟. طالما فكرت بحنق..

كانت على وشك أن تحصل على مأربها منه, لولا مجيء تلك الأخت المعقدة. لا تعلم لماذا انجذبت نحوه هكذا, ولا تدرى لماذا تثور مشاعرها هكذا حين تراه. لم تكن أبدًا سهلة المنال رغم جرأتها, وقد تودد إليها العشرات من قبل, فلم تلتفت إليهم أو تلقى إليهم بالًا. ربما لأنها ترى أغلبهم مراهقين أو أطفالًا لا يحركون شعرة بمشاعرها ولا يثيرونها..

لكن عماد كان مختلفًا..عماد الذى طالما داعبها وهى طفلة. لكن الصغيرة قد كبرت, وصارت أنثى جميلة, تنتظر فارسها. لا تدرى لماذا جذبتها صلعته الخفيفة وذقنه الطويلة الشعثاء وجسده النحيل..كانت أحيانًا تقارن بين هيئته الرثة وهيئة معجبيها من الشباب المتأنقين, فتتساءل هل هى طبيعية, أم أن بسلوكها هذا شذوذًا كما أخبرتها منال صديقتها المقربة, حين حكت لها مكنون نفسها..

لكنها لا تبالى ولا تهتم إن كانت شاذة أم كانت طبيعية. إن عماد هو الرجل الكامل الآن فى حياتها ولن تدعه أبدًا. تتبعت أخباره القديمة وعلمت بعلاقته مع منى من قبل. منى الجميلة التى تزوجها محمد عصام البلطجى. وكثيرًا ما تقف أمام مرآتها لتقارن بين ملامحها وفتنتها وجمال منى. وتسأل نفسها هل يشعر بها يومًا, أم أن باله مازال مُعَلَّقًا بامرأة من ماضيه تأبى أن تفارقه..

تعلمت أن الرجل تحركه مشاعره وغرائزه, وقد تأتى الغرائز بالمشاعر فيما بعد. وصارت تتعمد مغازلته وإثارته بمفاتنها. لكنه راح يقاوم وهو يحاول أن يصرفها عنه محاولًا التجلد. لكن عيناه المتأججتان بالشهوة كانتا تفضحه. وعلمت أنها مسألة وقت لا أكثر وستهاوى مقاومته وسيستسلم لها ليركع بين قدميها,حينها تدرك جيدًا كيف ستجذبه من عنقه ليخطبها من أمها ويتزوجها..

يدور عماد الصغير حول طاولة تتوسط الصالة مُقَلِّدًا صوت القطار, ومعه ابتسمت وهى تتذكر ما جرى بينها وبين عماد فى المرة الأخيرة منذ أيام.. تلك المرة التى أكدت لها أنها قد شارفت النجاح وأن أميرها فى طريقه للخضوع لسلطانها. راقبت أخته حتى خرجت فى ذلك اليوم بعد صلاة المغرب حاملة طفلها. وخمَّنَت من ملابسها الكاملة وتأنقها أنها ستتأخر بالخارج. كانت هذه هى فرصتها التى تَحَيَّنَتْهَا لأسابيع. بَدَّلَت ملابسها وارتدت بيبى دول وردى اشترته منذ شهور وارتدت فوقه روبًا طويلًا مفتوح لا يُخفى ما أسفله. طرقت بابه. ففتح لها الباب فتسربت للداخل على الفور دون أن تمنحه وقتًا للإعتراض. وتوقف هو امام الباب بتوتر ليجعله مفتوحًا وهتف بها مُتَحَاشِيًا النظر إليها:

-سوسن بالله عليك لا تفعلى. أنا بمفردى وابتسام بالخارج, ولايليق أبدًا أن تكونى بشقتى بملابسٍ كهذه.

لكنها اقتربت منه كعادتها وهى تتأود فى مشيتها فَشَمَّ عبيرها المثير وقالت هامسة وهى تدفع بقدمها العارية الباب المفتوح:

-أردت الإطمئنان عليك وقد صرت تهرب منى..

-إننى بخير حالٍ كما ترين. هلا ذهبتى إذن؟.

لكنها التصقت به بشدة ولاحظت عيناه المشتعلتان اللتين راحتا تبتعدان عن جسدها الملتهب بصعوبة، وقد تهدجت أنفاسه، وقالت له:

-ما رأيك فى ما أرتديه..هل يروقك ؟..

-إنه جميل. جميل جدًا. والآن هل يمكنك أن تغادرى وتتركينى..أخشى أن تأتى ابتسام فتجدك هكذا؟. لا أعتقد أن رَدَّ فعلها حينها سَيَسُرك.

-لا يهمنى ما تفعله..لتأتى الآن لتدرك كم أحبك..لكنها لن تاتى. أعلم أنها لن تفعل قبل ساعاتٍ من الآن..

شعرت بمحاولته الفاشلة ليكون حازمًا، ويداه تحاولان إبعاد جسدها الملتصق به فى محاولات ضعيفة فى الواقع، فتبتسم بداخلها وهو يقول:

-سوف أخبر أمك لو لم تغادرين الآن

-لايهمنى..أخبرها وسأقول لها أننى احبك.

-من فضلك هذا يكفى يا سوسن..اتركينى

لكنها واصلت اقترابها رغمًا عنه حتى قَبَّلَتْهُ..فلم يُبْعِد رأسه..وبعد لحظات كان هو من يمارس الجنون مع شفتيها..مضى الوقت سريعًا ثم أبعد رأسه عنها وقد احتقن وجهه بشدةْ وتلاحقت أنفاسه وقال بصوتٍ مخنوقٍ مُثار:

-هذا يكفى.عودى لمنزلك الآن..هيا اذهبى

كان هذا يكفيها بالفعل..قرأت فى قبلته الكثير والكثير وقد تهاوت حصونه.. فى المرة القادمة لن تكون هناك حواجز وسوف يهرع إلى أُمَّهَا.

لم تكن تعرف الذى حدث لابتسام..لكن أمها قبل أن تترك البيت طالبتها ألا تذهب إلى شقة عماد وألا تدع الطفل يفعل..اشتعل فضولها فنادت

الطفل وداعبته وأعطته بعض الحلوى وهى تسأله عن أمه. وتكلم الطفل مسحورًا بالحلوى.

-ماما مريضة. الطبيب قال هذا. هل أُخْبِرُكِ بسرٍ يا طانط. هناك امرأة عجوز مخيفة هاجمتها وضربتها. إننى أخاف من تلك المرأة العجوز يا طانط. إننى لا أحبها وخالو عماد أخبرنى أنه سوف يقتلها.

كلماته العجيبة لم تطفىء فضولها. هنا قررت أن تفعل شيئًا مجنونًا.. سوف تدخل الشقة لترى ما هناك..أمها لن تأتى الآن، وعماد بالخارج والطفل يمرح فى الشقة..لتفعل هذا، ولن يشعر بها أحد..

جلبت مفتاح الشقة الذى مازال بحوزة أمها وذهبت إلى هناك..فتحت الشقة فطالعها الظلام. جَرَّبَت أن تُشْعِلَ أضوائها فلم يشتعل المصباح الكهربائى. ظننت أنه مَسّ كهربائى. أخرجت محمولها من جيبها وأضاءت مصباحه وعلى ضوئه رأت الصالة الساكنه. تحركت بحذر نحو حجرة ابتسام المفتوحة وما أن صَوَّبَت ضوء المحمول نحو الفراش حتى واجهها وجه ابتسام المتصلب وعيناها الجامدتان المحملقتان فى الفراغ.

كادت أن تصرخ لولا أنها تمالكت نفسها بصعوبة. كان عليها أن تتراجع لكنها أحجمت وقد غلبها فضولها، وعادت بحذر لتدخل الحجرة وصوبت الضوء نحو الفراش الذى رقدت عليه ابتسام بسكون، بعيون مفتوحة ترمق الفراغ فى خواء. أنفاسها الضعيفة وصدرها الذى يعلو ويهبط أنبأها أنها مازالت حية.. لكن لماذا تنام هكذا ولماذا لا تتحرك؟. هل يكون مرضٌ ما قد ألمَّ بها. من يدرى؟.

تراجعت للخلف بحذر وكادت أن تغادر الشقة لولا أن لاحظت الضوء الأحمر الذى ينبعث من حجرة عماد. تَحَرَّكَت نحوها لترى من أين ينبعث وفى أعماقها تصاعد نذير يأمرها بالتوقف وأن تهرب من المكان. لكن

عنادها وأد هذا الصوت المُحَذِر، وتقدمت للحجرة غير عابئة بوساوسها. دلفت الحجرة المضاءة بالضوء الشيطانى الذى ذاب ضوء محمولها فيه. كانت عيناها تبحث فى المكان عن مصدرِ الضوءِ المجهول حين فوُجئت بباب الحجرة يُغْلَق من خلفها..

هنا كانت نهاية عنادها ورباطة جأشها وبداية هلعها. اندفعت نحو الباب محاولة فتحه لكنه أبى أن يستجيب لها. راحت تدقه بعنف وهى تصرخ مستنجدة وقد تضاعف هلعها حَدَّ الموت. ومن الفراغ انبعثت الهمسات. وأمام بصرها الزائغ برزت الظلال من الجدران. ظلال مخيفة مُقْبِضَة أثارت هلعها لأقصى حد، فراحت تصرخ وقد عجزت قدماها عن حملها فهوت أرضًا.

وتجسدت الظلال أمام عينها البندقيتين الحلوتين. وكان أكثر ما يفزعها عيونهم الحمراء الصغيرة. كانوا شياطين بلا شك. وتقدموا نحوها من خلفهم برزت أم عماد وهى ترمقها بعيونٍ جامدة. مازالت تذكرها ومازالت تذكر كيف تبدو..

لكن لماذا تتوهج عيناها هكذا وما هذا الشىءُ المشتعل الذى تحمله فى كفها..وصرخت فى عنف وفزع صرختها الأخيرة حين رأت سوطًا ناريًا من الجحيم تحمله يشق الفراغ ويهوى عليها. كانت هذه هى صرختها الأخيرة وكان السوط المشتعل هو أخر ما انطبع على شبكية عينها البندقيتين اللتين طالما حَيَّرَت الشباب وأجَّجَت أشواقهم.

وحين هوى رأسها أرضًا وتدحرج بعيدًا عن جسدها الذى راح ينتفض بعنف، ظَلَّ السوطُ مرسومًا على مقلتيها لزمنٍ طويل.كان يكفى أن ترى عيناها حينها لترى السوط رابضًا فيهما.

لكن أحدًا لم يكن هناك ليفعل.

(6)

لاحظ عماد أن باب الشقة كان مواربًا حين دلف الشقه. أضاء المصباح الكهربائى فرأى أن كل شىء فى مكانه. حجرته مغلقة وحجرة أخته فى أخر الممر مفتوحة كما هى وغرفة أمه خلفه مغلقة هى الأخرى. لم يعِرِ الأمرَ اهتمامًا وتوقع أنه ربما نسى التأكد من إحكام إغلاقه حين خرج..

دخل الدكتور محمد شاهين خلفه وهو يستعيدُ ذكرياته السابقة فى المكان وفى النهاية دلف ممدوح باب الشقة بتوتر متوقعًا كارثةً ما..هذا ماحدث من قبل وهذا ما سوف يحدث الأن..إن الكوارث فى هذا البيت لا تتوقف أبدًا..

وتحرك عماد نحو حجرة أخته وقاد الدكتور محمد إليها قائلًا:

-من هنا يا دكتور.

تبعه الدكتور محمد بمفرده. مازالت كما هى فى سباتها أو غيبوبتها العميقة لا تتحرك بالرغم من عيونها المفتوحة على اتساعهما مُحَدِّقَةً فى الفراغ.. اقترب منها الدكتور محمد وأمسك كفها ليتفقد نبضها ثم أخرج كشافًا صغيرًا من جيبه تفحص به مقلتيها قبل أن يغمغم :

-مازالت فى البداية..أعتقد أن الإستحواذ لم يكتمل بعد..هذا يعنى أن نسرع فما زال هناك أمل.

رفع بعدها حقيبته من الأرض وفتحها وأخرج مِحْقَنًا به سائل شفاف ودفعه فى أوردتها..نظر إليه عماد متساءلًا فأجابه:

-لاتقلق.إنه مهدئ..لا أرغب فى أن أراها بيننا فجأة لتثير المزيد من الفوضى ونحن نفحص المكان.



هز عماد رأسه بتفهم وقال وهو يتحرك خلفه خارج الحجرة :

-والآن ماذا سوف نفعل؟..

-كما اتفقنا..سنفحص المكان جيدًا..سنفتش كل جزء فى الشقة وأثاثها.. سننتزع حَشيَةَ الأرائك والأسرة..سنتفقد الجدران..علينا أن نتأكد أنه لا شىء فى المكان مخبأ, ربما قادنا هذا لشىءٍ ما.

وغمغم ممدوح وهو يتلفت فى المكان المزمع تدميره وقال :

-وأين تقترح أن نبدأ يا دكتور ؟.

-حجرة أم عماد بالطبع. لقد بدأ كل هذا بها منذ البداية.

وتحركوا نحو الحجرة ودلفوها. وأضاء عماد مصابيحها الكهربائية قبل أن يتوقف ثلاثتهم فى منتصفها. كان الفراش أمامهم وعلى يمينهم خزانة خشبية قديمة لها أربعة أبواب ترتفع عن الأرض قليلًا, وقد زَيَّنَتْهَا نُقُوشٌ وزخارف فقدت الكثير من أجزائها, وعلى يسارهم كانت هناك أريكة للجلوس..

وقال الدكتور محمد لهم :

-ابحث أنت يا ممدوح فى هذه الأريكة..اقلبها وابحث فى خشبها وأخرج حشوتها لو احتجت. تأكد أنها لاتحوى أىَّ شئ. وتول أنت ياعماد أمر الفراش وسأهتم أنا بالخزانة..

اتجه إلى الخزانه. والتى كان سطحها مُغطًى بأكمله بالغبار الكثيف, وحين فتحها لاحظ خيوط العنكبوت المنتشرة بين الملابس المُكَوَّمَة بلا ترتيب بداخلها..بدا جليًا أنها ظلت مغلقة هكذا لأعوامٍ طِوَال دون أن يقربها أحد. بدأ فى إخراج الملابس منها وراح يلقيها, فى أحد الأركان الفارغة.

سيتفقدها لاحقًا ربما احتوت على ما يريب. أخرج كل شىء بالخزانة وراح يتامل الأرفف الخشبية الفارغة.كان الخشب قديمًا تآكلت بعض حوافه وإن ظَلّ محتفظًا بقوته..وبظهر يده راح يطرقه طرقاتٍ خفيفة بحثًا عن فجوة ما قد تكون أسفله أو خزانة ما خفية..

لكن الخشب كان مصمتًا تمامًا..فابتعد عنه وجلب كرسى خشبى موجود بجوار الأريكة وضعه بجوار الخزانة ثم صعد فوقه لتفتيش سطحها. كان هناك الكثير من الغبار والأتربة وبعض الملابس القديمة وكتابين قديمين. أمسكهما ومسح غلافهما المغبر وقرأ عناوينهما. الأول كان رواية قديمة لنجيب محفوظ بعنوان السُكَّرِيَة والكتاب الأخر كان غريبًا. كان كتاب سحر يعرفه جيدًا. تأمل غلافه الجلدى السميك وقرأ عنوانه "مرشد الإنسان إلى رؤية الجان".

الكتاب قديم وطبعته الوحيدة قديمة تعود لعشرينيات القرن الماضى.. قرأه من قبل بالطبع ويعلم أنه ليس بالكتاب المفيد كثيرًا,لكن لماذا اقتناه والدى عماد ومن فعل فيهما؟..ولماذ قد يرغبون فى رؤية الجان..أمسك الكتاب بِكَفِّهُ الأيسر وبالأيمن راح يطرق سطح الخِزَانة بحثًا عن شىءٍ بداخلها..كان سطحها رقيقًا وبدا انه لايحوى شيئًا ما.

أما ممدوح فلم يجد أىَّ شىءٍ بالأريكة وأخرج من جيبة مطواة صغيرة يحملها للدفاع عن نفسه لو هاجمه أحد, وقام بشق باطن حشية الأريكة وراح يبعثر القطن الخارج منها. وكانت الأريكة بريئة تمامًا مما نسب لها من شكوك فتوقف عن عمله, وهو ينظر إليها وعلى شفتيه ابتسامة رضا عن النفس..لقد أنهى عمله..

بينما انهمك عماد فى تفتيش الفراش النحاسى العتيق. رفع مرتبته القطنية وفحص أسفلها. كان هناك الكثير من الأوراق المُغَلَّفَة بأكياس

بلاستيكية على أرفف السرير الخشبية. فَضَّ الكيس الأول. لم يكن يحوى غير بعض فواتير الكهرباء والمياه. ابتسم بمرارة وهو يُعِيدُ تلك الأوراق لمكانها وقد تذكر كيف كانت أمه حريصة على الإحتفاظ بتلك الفواتير. فتح كيسًا ورديًا اخرًا..وجد به بعض الوثائق والعقود. عقد إيجار البيت وعقد زواج أخته وفى نهايته وجد عقد زواج أمه بأبيه. أعاد تلك الأوراق الأخرى كسابقتها ثم جذب الكيس الأخير وأخرج الأوراق التى به. فى البداية كانت شهادة وفاة أبيه. لم يرها من قبل. طالعها فعلم أن أباه كان فى الثانية والثلاثين من عمره حين مات. رأى سبب الوفاة فشعر بالذهول. كان سبب الوفاة: الإنتحار شنقًا"..

والده مات منتحرًا !... لم يعلم هذا من قبل أبدًا..

لماذا انتحر أباه ولماذا أخفت أمه هذا عنه ؟. وبإعياءٍ ألقى الأوراق وهتف فى الدكتور محمد بصوتٍ قريب من البكاء

-دكتور محمد هل يمكنك أن ترى هذا ؟..

*****

(7)

والتقط الدكتور محمد الأوراق التى ناولها إياه عماد.. طالعها بسرعة، وأدرك لماذ امتقع وجه عماد هكذا..

كانت باسم "سالم محمد سليم" وكان مدونًا بها أن سبب الوفاة الإنتحار شنقًا.. ومما يراه مرتسمًا من ذهول ودهشة واستنكار على وجه عماد أدرك أنه لم يكن يعلم شيئًا كهذا. إنها مفاجأة حزينة قاسية. وقَلَّبَ الأوراق..الورقة التى تلتها كانت شهادة وفاة هى الأخرى. الإسم كان محمد سليم عبدالتواب. وكان قد مات فى عام 1957. ولدهشته لاحظ أنه قد

مات فى الثانية والثلاثين من عمره هو الاخر. وحين انتقلت عيناه للخانة المدون فيها سبب الوفاة تضاعفت دهشته. كان قد مات بالحرق انتحارًا. ودون أن يَعْقِّب انتقل إلى الورقة التالية. شهادة وفاة أخرى، أكثر قِدَمًا واصفرارًا، كانت باسم سليم عبدالتواب المنياوى. لكن المخيف فيها إن المتوفى كان هو الاخر مات فى الثانية والثلاثين من عمره بالإنتحار غرقًا.

انتهت شهادات الوفاة. إذًا فوالد عماد وجده وجد والده ماتوا جميعًا مُنْتَحِرِين. كما ماتوا جميعًا فى الثانية والثلاثين من عمرهم. من المستحيل أن يكون كل هذا مصادفة

إنها لعنه بلا شك.. وتحول بصره إلى عماد. مازال واجمًا فى ذهوله..فقال بوهن وهو يُحَرِّكُ أصابعه وقد عادت تؤلمه:

-إذًا فلم تكن تعلم !

-أخبرتنى أمى مِرَارًا أنه مات فى حادثة سير..الغريب أننى لم أسأل نفسى يومًا لماذا ترفض إعطائى شهادة وفاة والدى، ولم أهتم بالأمر حينها.

مَدَّ الدكتور محمد يده الممسكة بالأوراق نحو عماد وأكمل :

-وحتمًا لم تكن تعلم أن أجدادك قد ماتوا بطريقة مماثلة فى نفس عمر أبيك.. لقد ماتوا جميعًا فى الثانية والثلاثين من عمرهم.

قرأ عماد شهادات الوفاة الثلاث بسرعة ثم رفع رأسه عن وجه أكثر امتقاعًا وقال غير مصدق لما قرأه:

-هذا مستحيل.. كلهم ماتوا انتحارًا.. ما الذى يحدث بالضبط.

-كم عمرك يا عماد الآن؟..

-ساكمل الثانية والثلاثين بعد أسبوع من الآن.

- هذا يعنى أنه لم يعد أمامنا الكثير من الوقت..علينا أن نتحرك بسرعة.

-ماذا تقول يا دكتور ؟..لست أفهمك

-ما الذى لاتفهمه ياعماد..إنها لعنة تسرى فى عائلتك يا رجل..لعنة سوداء رهيبة تجرى فى دمائك ودماء أجدادك وقد دفعتهم للإنتحار فى الثانية والثلاثين من عمرهم..أنت التالى يا رجل بعد أسبوع من الآن.. لقد حان دورك.. هل فهمت.

ارتجف عماد وتجمد فى مكانه برعبٍ وذهول..بينما رمقه ممدوح فى خوف لكن الدكتور محمد هتف بهم لينتزعهم من جمودهم:

-بالله عليكما كُفَّا عن هذا الفزع ودعونا نواصل عملنا..هل وجدتم شيئًا آخر؟

أجاب ممدوح وعماد بالنفى فتأمل الفِرَاشَ وقال

-وماذا عن قوائم الفِرَاش المعدنية هل فتشتها؟

-كلا..ما الذى يمكنه أن يكون بداخلها ؟..

-الكثير يا رجل..إنها مُجَوَّفَةٌ من الداخل والكثيرون فيما مضى كانوا يخبئون أغراضهم الثمينة بها..هيا انزعها لنرى ما بها.

تعاون عماد وممدوح على خلع القوائم النحاسية..ووجدوا بداخل القائم الثانى لُفَافَة صفراء مطوية بعناية، ومفتَاحًا نحاسيًا ضخمًا به نقوش عجيبة..التقط الدكتور محمد تلك الاشياء وتفحص المفتاح ثم ناوله لعماد وأخبره أن يحتفظ به فى جيبه، ثم تفحص الورقة التى لُوِّثَت بالدم وفتحها بحرص قبل أن يُخرِجَ دبوسًا مطويًا بداخلها وطالع ما بها من خطوط وطلاسم وقد أدرك كُنْهَ ما حدث الآن. فتهالك على الكرسى الخشبى

وقد شعر بالإعياء بغتة فراح يلهث. هدأ صدره بعدها فقال مُوَجِّهًا كلامه لهما وهو يُلَوِّحُ أمام بصرهما بالورقة الصفراء والضرس البشرى :

- إنها تلك التعويذة اللعينة منذ البداية..لقد فهمت لماذا أصابت اللعنة أمك فى البداية.

وتبادل ممدوح وعماد النظرات الحيرى ولم يُعَقِّبَا وأكمل الدكتور حديثه:

-فى الغالب كانت هناك اللعنة التى أصابت أجدادك..كانوا يموتون انتحارًا حين يبلغون الثانية والثلاثين من عمرهم. حتمًا أدرك أحدهم ما يواجهه، وراح يبحث عن حلٍ يحميه ويحمى أسرته..لكنه كما يلوح لى أدرك صعوبة تغيير مصيره فعَمِلَ على البحث عَمَّا يحمى به أسرته وأبنائه من شر تلك اللعنة. ويبدو أنه صادف حينها ساحرًا حقيقيًا من حسن حظه فصنع له هذه التعويذة. إنها تعويذة حماية تُبعِدُ الشياطين والمردة عن الأسرة وتحميهم. تعويذة قوية لا يُبْطِلُهَا إلا الدم..

وأغمض عينيه وهو يرى بعين الخيال ما جرى، وغمغم:

-أستطيع الآن أن أتخيل ما حدث.لقد عثرت أمك على هذه التعويذة بطريقةٍ ما. ورقة مطوية غريبة ومُرِيبَة داخل القائم. تُمْسِكُهَا لتفتحها ولا تعلم شيئًا عن الدبوس المطوى بداخلها. إنه قواعد لعبة السحر. الحياة والموت معًا. الخير والشر فى ورقة واحدة. التعويذه قوية تصلح للحماية وبداخلها ما يفسدها. هنا يثقب الدبوس أنامل والدتك. يُدْمِيهَا ويسيل منها الدم فتتشربه التعويذة بنهم لِيُبْطِلَ تأثيرها. وتنطلق شياطين الجحيم التى حجبتهم التعويذة عنكم للإنتقام فلا تجد غير أمك فتتلبسها. كان من المفترض ألا يحدث هذا لولا أنها قد عثرت على التعويذة وحاولت فتحها,إنه قدرها. قدرها وقدرك يا عماد.

بدت الدموع فى الانهمار من مقلتى عماد وقد تذكر أمه وعقله يتخيل ما حدث..هل عانت أمه طويلًا من جراء لعنة لا شأن لها بها..لقد فقدت حياتها جراء ذنب لم ترتكبه أو حتى تعلم وجوده, كم هى مخيفة تلك اللعنة التى ذهبت بأبائه وأجداده وأمه وفى طريقها للفتك به وأخته..أىُ لعنةٍ سوداء هذه وأىُ شرٍ يستتر خلفها ومن من أجداده قد أتى بها؟..

هنا كانت أخته على باب الحجرة تنظر إليهم, وهى تبتسم ابتسامة شيطانية, وقد عقدت ذراعيها على صدرها. التفتوا إليها بقلق, وغمغم ممدوح برعب ومثانته تتقلص أسفل بطنه توترًا:

-لقد استيقظت..ألم تحقنوها بمنوم

-لا شىء يوقفنا أيها الأحمق..ألم تخبرهم بهذا يا دكتور محمد ؟..

-لا حاجة بى كى أخبرهم..فها أنتِ هنا لتخبرينا بنفسك عن قدراتك.

- هذه المرة نحن سعداء بلقاءك..وهل يمكننا ألا نفعل ونحن نراك تتحلل أمامنا هكذا. أنت تعانى وتحاول التماسك يا رجل,لكن شياطين الجحيم كلها ترقص ابتهاجًا لآلامك هذه. صدقنى لن يتخلف أحدنا عن لحظة مماتك يا دكتو..ستَرانا حتمًا وسترى كيف سنحتفل بك.

ابتسم الدكتور محمد بلا مبالاة, وقال ببساطة:

-من يدرى,ربما شهدت أنا نهايتك قبلها,فحتى أموت لن أتوقف عن تتعبكم وإهلاككم.

أطلقت الشياطين من فم ابتسام ضحكة ساخرة صاخبة ارتجفت لها الجدران قبل أن تقول بسخرية:

-لن تعيش طويلًا لتفهم من أنا. ولو أدركت من نحن لعلمت أنه لا قِبَلَ لك بنا. أعلم أنك قد رسمت على كتفى عماد وذلك البدين تعويذة وطلسمًا لتحميهم من شرورى. لكن تأثيرها لن يدوم للأبد.

وتصلَّبت ملامحها وتحَجَّرَت عيناها وخرجت منها جملة واحدة :

-أخبره أن يحرر السيد أو يهلك كأبائه !

-ومن هو السيد وكيف نحرره

-عليه أن يعثر على الإجابات بنفسه..عليه أن يعلم سر أجداده..عليه أن يعثر على كتاب الدم..

وتأملها الجميع فى دهشة.. كتاب الدم؟!!!.

لم يسمع أيهم بشىءٍ من هذا من قبل..حتى الدكتور محمد لا يعرفه.. وألقى الدكتور محمد عليها تساؤله:

-كتاب الدم..أىُ كتابٍ هذا؟

تجاهلت سؤاله وقالت لعماد بصوتها الغليظ الجديد:

-هناك مفاجأة تنتظرك بحجرتك يا عماد؟!. اذهب لتراها.

وتبادل الجميع النظرات وبدا القلق على وجه الدكتور محمد وقد توقع الكارثة المقبلين عليها حتى أنه ردد فى أعماقه:

-ربنا يستر !!

اندفعوا نحو حجرة عماد. وكان أول ما صادفهم رائحة الدماء المعدنية المربعة..وحين أضاء عماد ضوئها, رأوا جميعًا أبشع كوابيسهم حتى ان ممدوح لم يتمالك نفسه فسقط مغشيًا عليه..

فعلى الجدار وفى مواجهة الباب كان رأس سوسن المقطوع ملتصقًا به وعلى وجهها حفرت أبشع أيات الفزع والألم. وعلى الجدار الآخر التصق جسدها عاريًا تمامًا وقد امتلأ عن آخره بطلاسم شيطانية حُفِرَت فيه بالنار، وحول جسدها رَسَمَت الدماء الرمز المخيف. ثعبان يصنع دائرة بجسده ورأسه منتصب وفى المنتصف جمجمة نارية بقرنين على جانبى الرأس..

ومن خلف الجميع قال الشيطان على لسان ابتسام:

-أتمنى أن تروقكم هديتى هذه

*****

(8)

كان عليهم أن يتحركوا بسرعة. لو اكتشفت جريمة القتل هذه، فسينتهى كل شىء.. سوف يُقْبَض على عماد مرة آخرى، ومهما قدَّمُوا حينها من أدلة تنفى تورطه فى الجريمة، فلن يصدقه أحد..إنها الجريمة الثانية التى تتم فى بيته بل وفى حجرته هذه المرة..حقنوا ابتسام جرعة أخرى من المُخَدِّر فهمدت حركتها وراحت فى سُبَاتٍ عميق حملها ممدوح وهبط إلى الشارع حيث أرقدها فى المقعد الخلفى لسيارة الدكتور محمد شاهين السوداء. بينما كان على عماد مهمة ثقيلة للغاية. عليه أن يأتى بالطفل من عند أم محسن. لا يدرى كيف ستتلاقى العينان وهو يعلم أن جثة ابنتها التى كانت تملأ العالم صخبًا وحياة قبل ساعات ترقد الآن داخل حجرتة وقد انفصل رأسها عن جسدها فى مِيتَةٍ بشعة..لكنه لم يكن ليترك الطفل خلفه أبدًا وهو لا يدرى ما هو مُقْدِمٌ عليه..وطرق الباب فخرجت إليه يسبقها عماد الصغير الذى ما أن رآه حتى أسرع نحوه ليحتضن ساقه فى سعادة

رفعه عماد نحوه وقَبَّلَهُ ودعته أم محسن للدخول.لكنه اعتذر بلطفٍ وهو يهم بالانصراف كى لا يطول حديثه معها وهو بالكاد يُمْسِكُ نفسه..لكنها سألته السؤال الذى تمنى ألا يسمعه منها :

-هل رأيت سوسن اليوم يا عماد..لقد عدت ولم أجدها..هل قابلتك اليوم.

أجابها باقتضاب وهو يتحاشى عينيها:

-ربما ذهبت للقاء إحدى صديقاتها.

ثم هرول مبتعدًا بصورة أدهشتها. لكنها تناست على الفور أمره وهى تفكر فى ابنتها التى لا تعلم أين ذهبت وهى تتوعدها فى أعماقها بالعقاب هذه المرة.

وفى السيارة قال الدكتور محمد لَهُمْ:

-سنبيت الليل فى عيادتى.. إنها فى مصر الجديدة. وفى الصباح سنتجة للبحث عن قرية "قسط اللبن " ربما وجدنا الإجابات هناك..

وفى الصباح عاد الدكتور محمد ليحقن ابتسام بحقنه أخرى مهدئة.قبل أن يتجهوا نحو محافظة القليوبية فى رحلة بحثهم عن القرية المطلوبة..تَطَلَّبَ الأمر بعض الإتصالات ليعلم الدكتور محمد مكان القرية تقريبًا وراح يرشد ممدوح الذى يقود السيارة إلى مكان القرية..

و فى الطريق إلى القريم صمت الجميع ولم يَكُفَّ عقل عماد عن التفكير فى حاله. يدرك أن أمره هذه المرة قد انتهى. إنه لم يقتل أمه فى المرة الأولى. ومع هذا قضى سبع سنوات من عمره حبيس مستشفى الأمراض العقلية. هذه المرة لن يكون هناك مصحة عقلية. ولن يصدقه أحدٌ أبدًا لو ظل يصرخ طوال الوقت أنه لم يقتل سوسن. من سيصدقه لو اتهم الجان أو الشياطين بارتكاب الجريمة. لقد انتهى أمره بالفعل. بل سينتهى الأمر قبل

هذا بكثير. فلو كانت اللعنة صحيحة كما قال الدكتور محمد فسوف يقضى نحبه بعد أيام..

سوف ينتحر!!!. لا يدرى أىَّ قوةٍ تلك التى ستدفعه لقتل نفسه ليموت كافرًا. لكن أباه وأجداده قد فعلوها من قبل,فما الذى يمنع أن يفعل؟..

فَكَّرَ فى نوع الإنتحار الذى قد يقوم به..لقد مات جده الأكبر غرقًا والثانى حرقًا وأبوه شنقًا..كل مرة تتغير الطريقة,فما الذى يخبئه هؤلاء الشياطين له؟..

وارتجف جسده وهو يتخيل أن يقوم بذبح نفسه..أبشع ميتة تخيلها طوال عمره.. لا مهرب أمامه إلا أن يُنْهِىَ اللعنة التى لايعرفها ولايدرى سببها ولا من بدأها؟..هل ينجح فى هذا؟..وهل يصل للحل فى الوقت المناسب؟. كان يشك بقوة. فحتى لو أفلح الأمر وزالت اللعنة, فلن يُجْدِىَ الأمر.. ستقبض عليه الشرطة ولو بعد حين وسيساق هذه المرة لحبل المشنقة.

لقد فقد طوق نجاته للأبد. لكن ماذا عن أخته وابنها, عليه ألا يستسلم لمصيره المظلم هذا.وعليه أن يبحث عن أملٍ ما لهما.ووجد نفسه بدهشة يُفَكِّرُ فى فعل أشياء لا يتخيلها. لقد انتهى أمره والإعدام مصيره هذه المرة بلا شك, فلماذا لا يساعد من أحبهم؟.. لماذا لا يتخلص من ابن زوج ابتسام الذى سرق مالها ومال ابنها وحرمهم من ميراثهم. لماذا لايقتل محمد عصام زوج منى حبيبته ليهبها حريتها.لماذا لا يقتل ذلك المسمى "حكيم", الممرض السادى الذى تسبب فى إذلاله مع المرضى وقتل عم مدبولى.

إنه رجل ميت!. فلماذا لا يتصرف كرجل ميت؟!. ماذا يخشاه كى لا يفعل؟

ووصلوا القرية.كان آذان الظهر يرتفع فى تلك اللحظة. طالبهم الدكتور محمد بالبقاء فى السيارة ذات الزجاج الفاميه الأسود والذى يحجبهم عن الخارج وخرج منها ليسأل أهل القرية. أوقف رجلًا يرتدى جلبابًا, وسأله

مباشرة عن عائلة المنياوى. رفع الرجل رأسه نحو السماء وفكر للحظة قبل أن يخبره أنه لا توجد عائلة فى القرية بأكملها باسم المنياوى..

تركه ليجرب حظه مع آخر اختاره عجوزًا هذه المرة. سأله عن عائلة المنياوى فرفع الرجل رأسه بتوتر, وردد بدهشة وحذر:

-عائلة المنياوى. لم يعد بالبلدة أحد منهم منذ زمنٍ بعيد. لماذا تسأل عنهم الآن؟

-أجمع بعض المعلومات عنهم, وقد علمت أنهم قد سكنوا البلدة من قبل؟.

وسعل العجوز وهو يعتدل فى وقفته, ثم قال بشىءٍ من الضيق:

-لن تجد الكثير ها هنا ممن يتذكرهم..لقد غادروا البلدة منذ زمنٍ بعيد.. أنا نفسى لم أشهدهم,لكننى سمعت عنهم..لم يبق منهم بالقرية إلا بيتٌ كبيرٌ مهجورٌ لم يعد أحدٌ يقربه, يقولون أنه مسكون بالعفاريت..كلام يقال منذ دهور, ولا يدرى أحد إن كان صحيحًا أم أنها إشاعات.

وبرقت عينا الدكتور محمد وهو يشعر أنه قد اقترب. إذن فقد كان هناك عائلة بالقرية تدعى المنياوى ومازال لهم بيت مهجور تحوم حوله الخرافات.. أيكون هذا البيت هو البداية؟. دارت هذه الأفكار فى رأسه بسرعة, قبل أن يسأل العجوز بحماس:

-وما الذى تعرفه يا حاج عن عائلة المنياوى.

-لم أعد أتذكر!. ولا أريد أن أتذكر.

قالها الشيخ بحدة, وهو يشيح بكفه فى الهواء, قبل أن يهم بالحركة مبتعدًا..كان رد فعله هذا مفاجئة للدكتور محمد, لكنه تمالك نفسه وأسرع يسأله وهو يتحرك بجواره :

-إذن من يمكنه أن يَدُلّنا ويخبرنا بعض الأشياء عن تلك العائلة؟. أعتذر لإلحاحى، لكن الأمر هامٌ وخطير.

-وما أدرانى ؟..لقد غادروا القرية منذ عهودٍ بعيدة.. لقد كانوا ملعونين. لو كنت مُصِرًا فاذهب إلى العمدة. سوف يخبرك بكل شىء.

عاد الدكتور محمد بحماس للسيارة وما أن دخلها حتى قال لهم باسمًا:

-يبدو أننا نقترب. لقد كانت هنا عائلة تدعى المنياوى رحلت منذ قرن عن المكان وقد دارت حولهم الإشاعات. سوف نذهب الآن لعمدة القرية, ربما أخبرنا بالمزيد.

*****

(9)

بعد دقائق بلغوا دوار العمدة. توقفت السيارة أمامه فى باحة واسعة, فترجلوا منها بعد أن قرروا ترك ابتسام فيها وعدم اصطحابها معهم, كى لا تُثِيرُ الشكوك حولهم.

كان الدوار عتيقًا قديمًا بأعمدته الدائرية المرتفعة المطلية بلونٍ أبيض أذهب الزمن بريقه والحوائط التى زال عن أغلب سطحها طلائها, كان هناك من يجلس فى باحة البيت الأمامية.كان رجلًا فى العِقْد السادس من عمره يرتدى جلبابًا بلديًا وقد غزا الصلع رأسه فلم يترك فيه إلا بعض الشعيرات على جانبيه. ونهض الرجل حين رآهم وما أن اقتربوا منه حتى صاح بهم مُرَحِّبًا:

-أهلًا وسهلًا بكم. أنا الحاج محمود عبدربه عمدة القرية. أهلًا بكم فى منزلى المتواضع.

حَيّاهُ الدكتور محمد وقَدَّمَ له الجميع ثم قال:

-أعدك ألا نُعَطِّلَكَ كثيرًا. إنها بضع أسئلة فقط حول شأنٍ ما, ثم نرحل على الفور.

-مرحبًا بكم.

جلسوا قبل أن يلحق بهم من خارج البيت شابًا فى مقتبل عمره وسيم المُحَيَّا, يبدو على وجهه الود والطيبة, يصحبه شيخ عجوز.. وقدمهما العمدة لهم قائلًا:

-المهندس شريف..زوج ابنتى..والحاج غنيم..شيخ البلدة.

تبادلوا التحيات, وتكلم الدكتور محمد شاهين:

-إننا هنا لنسأل عن عائلة غادرت البلدة منذ عهدٍ بعيد..لكننا نأمل أنكم مازلتم تذكرونها

ضَيَّقَ الحاج محمود عينيه وقال:

أىُ عائلة تقصد يا دكتور.

-إنها عائلة المنياوى.

بدا التوتر فجأة على وجه العمدة وشيخ البلد وهما يتبادلان النظرات المُتَرَقِّبَة. بينما انتبه شريف لهم وقد شاب وجهه هو الأخر بعض الإنفعال, وقال الحاج غنيم:

-ولماذا تسألون عنهم؟..لقد تركوا البلد منذ عهدٍ بعيد وقد نسيهم الجميع.

-حتمًا هناك سبب قوى يا حاج غنيم لسؤالنا..ألا تعتقد هذا؟



أجابه الدكتور محمد مبتسمًا..فقال الحاج محمود له:

-بالطبع يا دكتور..بالطبع..لا تؤاخذنا على دهشتنا من السؤال..فما تسألنا عنه شيء لا أحد يذكره الآن أو يُحِبُّ حتى تذكره. لقد كانت عائلة المنياوى إحدى عائلات القرية بالفعل. لم تكن كبيرة لأنها ليست من أهالى القرية فى الأساس بل نزح المنياوى الكبير للقرية تاركًا الصعيد قبلها بعقود، وحين مات ترك سبعة أبناء كَوَّنُوا عائلة المنياوى بالقرية..

كان عماد يُصْغِى لكل حرف باهتمام وهو ينتظر أن يعرف كُلَّ شىءٍ عن تاريخ عائلته التى جهلها طوال عمره..بينما غمغم الدكتور محمد بحذر:

-وحتمًا غادروا القرية لأمرٍ خطيرٍ قد حدث.

مرة أخرى تبادل الحاج محمود والحاج مدبولى النظرات التى تحمل الكثير وأجاب شريف هذه المرة باسمًا وعيناه من حينٍ لآخر تتفحص عماد جليًا:

-هذا صحيح يا دكتور..لقد كانت هذه رغبة القرية أجمعها حينها.. فما جرى من أهوالٍ فى القرية سببها أحد أفراد تلك العائلة أصاب الجميع فى القرية فى ذلك الوقت بالفزع والجنون، وكان أقل تلك الأفعال جنونًا هو إجبار أفراد العائلة على ترك القرية..ما يقال أن الكثيرون كادوا أن يفتكوا بكل فردٍ فى تلك العائلة ويقتلونهم شر قتلة، لكن بعض الحكماء حالوا دون حدوث هذا فى الوقت المناسب. واكتفوا بإخراجهم من القرية

خَيَّمَ الصمت بعدها للحظة، قبل أن يسأله عماد بتوتر:

-معذرة يا أستاذ شريف. ولكن كيف عرفت هذا وقد مضى على الأمرِ قرنٌ كامل كما اخبرتمونا.

احتفظ شريف بابتسامته الودودة وقال وهو يرمقه بنظرةٍ نافذة:

-إننى أعيش فى هذه القرية وأعلم عنها الكثير بالطبع. لا أعتقد أن معرفتى بالأمر تستحق الكثير من الدهشة.

هنا تدخل الدكتور محمد فى الحديث قائلًا:

-هذا صحيح يا بنى..لكن ما تلك الأحداث التى حدثت بالقرية والتى أدت لطرد العائلة من القرية؟..

وقال الحاج محمود :

-أعتقد أننى خير من يَقُصُّ عليكم ما حدث. لقد كان جدى الأكبر عمدة القرية حينها وأشرف حينها على التحقيق فى الأمر. وأخبر أبناءه وأحفاده بتفاصيل ما جرى، وقد علمت القصة من جدى. لذا دعونى أخبركم بما أعرفه.

*****

(10)

كان ذهول عبدالتواب فى القطار لا حد له، وهو لا يدرى هل مازال فى منامه يحلم، أم أن من يجلس بجواره هو بغيته حقًا.. أيكون ذلك الشاب العصرى الذى يجلس بجواره الآن هو الشيخ الأسود حقًا؟..

رمق هيئته وملابسه الإفرنجية التى لا تنتمى أبدًا لعالم الشيوخ، ونظر بحيرة إلى بشرته البيضاء التى لا يشوبها السواد. أيكون الشيخ الأسود ليس شيخا ولا أسودًا؟!

تركه الشيخ الأسود قليلًا لتأملاته ودهشته وهو يراقب حيرة عبدالتواب ونفسه ممزقة بين رغبته فى التصديق، وخوفه من خداعٍ قد يقع فريسة

له، وما زال الشيخ عبدالله المنياوى يلاحقه حتمًا، ولن يعدم وسيلة يخدعه بها ليصل إليه.

وبعد حين يتحدث الشيخ الأسود ويقول هادئًا:

-لست من أتباع الشيخ عبدالله المنياوى، لن نلتقى أنا وهو أبدًا. إننا ضدان فاطمئن.

قل له عبدالتواب متشككًا:

-أراك صغيرًا، ولا تبدو كالشيوخ.

-إنه لقب لا أكثر. كما أننى لست صغيرًا كما تعتقد. يمكننى أن أبدو فى عمر جدك لو شئت. ويمكننى أن أصير طفلًا يحبو.

- أنت أيضًا لست أسودًا.

-وهل أخبرك أحد ما أن الشيخ الأسود زنجىٌ مثلًا؟..إن لونى لم يكن أبدًا أسودًا فى يومٍ من الأيام..لكن ما أقوم به، يكون أحيانًا أكثر سوادًا من الظلام نفسه.

لم تكن تلك هى الإجابات التى ينتظرها، ظل قلبه يضطرب. تأكد أن الكتاب مازال مخفيًا بين طيات ملابسه.. وقال بعدها بلوم:

-وأين كنت كل هذا؟. لقد بحثت عنك شهورًا طِوَالًا فلماذا لم أجدك؟. إن كل بقعة فى ثرى هذا البلد شاهد على بحثى الذى لم ينقطع عنك.

-أنا من كان عليه أن يجدك، لا أنت.

-ولماذا لم تفعل؟.. ولماذا تركتنى أبحث طوال الوقت ما دام عليك أن تعثر علىّ؟.

-كان عليك أن تبحث..كان عليك أن نرى مثابرتك، وتؤكد لنا إصرارك على الأمر..كان عليك أن تثبت أنك تستحق الجائزة الكبرى.

نظر عبدالتواب من نافذة القطار إلى الموجودات التى تنسحب بسرعة البرق بجوار القطار.مازال لا يصدق ولا يدرى ماذا بعد. و ويقول له الشيخ الأسود دون أن يبتسم:

-أغمض عينيك.

يرمقه بدهشة لطلبه العجيب، ويضع كفه على الكتاب المتوارى فى طيات ملابسه ويقبض عليه، وأمام النظرة الصارمة يغمض عينيه.

شعر بالسكون الذى يحيط به..تلاشت هزات القطار واختفت أصوات احتكاك عجلاته بالقضبان، وصمتت الضوضاء. كل هذا تبدد فجأة ففتح عينيه. وبذهول نظر إلى المكان الذى انتقل إليه فى لحظة واحدة. كان فى حجرة بسيطة بها فراش وحيد صغير، ووسائد وبسط تنتشر على الأرض وفى منتصف الحجرة كانت هناك بلورة ضخمة وموقد يرتفع منه البخور والدخان..ومن خلف الموقد المشتعل رأى الشيخ الأسود وقد تبدل شكله. لم يعد شابًا كما كان بالقطار، بل صار عجوزًا بلحية بيضاء ناصعة من غير سوء. كان يرتدى جلبابًا رمادى واسع الأكمام لكن عينيه النافذتين ظلّتا كما هما. وشعر عبدالتواب بالرعب وتلفت حوله وهو يفكر هل تم اختطافه. وخاطبه الشيخ الأسود ولم يدعه لأفكاره:

-دع خوفك يا عبدالتواب واجلس. أنا بالفعل الشيخ الأسود ولست أخدعك. لقد بحثت عَنّا طويلًا وبذلت فى طلبنا الجهد، فاستحققت أن نجدك لننهى ضلالك.

جلس عبدالتواب. وتصاعد البخور كثيفًا وعاد الشيخ الأسود لحديثه وهو يمد يده نحوه:

-أعطنى الكتاب.

أخرج عبدالتواب الكتاب من طيات ملابسه بتردد قبل أن يسلمه إياه. وبيدٍ مُتَلَهِّفَة قبض الشيخ على الكتاب. يرمقه بعيونٍ جاحظة، وأنفاسٍ متلاحقة، كعشيقٍ وجد معشوقته بعد فراقٍ طويل. ثم راح ينشد ترانيم غامضة وقد برزت على الجدارن من حوله عشرات الظلال، كشياطينٍ أتت لتشهد ما يدور..ومضى زمنٌ ثقيلٌ طويل، لم يجسر فيه عبدالتواب على التفوه. وهو يراقب. ثم رفع الشيخ الأسود الكتاب وابتسم وهو يقول:

-مازلت لا تدرى ماذا تملك. ماذا تظن هذا الكتاب يا عبد التواب ؟

-إنه كتاب سحر وتعاويذ وطلاسم.

-مخطىءٌ أنت كالآخرين يا عبد التواب..كتب الدم لم تكن أبدًا كتب سحر وشعوذة،إنها حتى لا تحوى إلا تعويذة واحدة، إنها تلك التى جَرَّبْتَهَا..لابد أن تكون قد قمت بها والا ما كنت لتصل إلىّ، هل قَدَّمْتَ قربانًا بشريًا للكتاب؟

-قدمت قربانين، أفلح أولهما ولم أحظى من الثانى بشىء.

ابتسم الشيخ الأسود قبل أن يقول وهو يُطْعِمُ وحش النار الراقدة أمامه المزيد من البخور فجاوبته النيران بالمزيد من الدخان والرائحة الذكية:

-وماذا كانت التعويذة الأولى.

-صرت قادرًا على رؤية أهلى..

-لكنها لا تقوم بهذا فقط، لقد كانت ليراك سيد الظلام ويرشدك فى مسعاك.

تذكر الشيخ الرحالة، هل يعنى بقوله هذا أن من زاره كان الشيطان نفسه، ارتجف جسده وبعد حين عاد ليسأل:

-إذن ماذا يكون هذا الكتاب؟.. وما سره الذى أجهله؟

يتأمل الشيخ الأسود الكتاب الذى بين يديه مرة أخرى،ويتنهد طويلًا قبل أن يقول:

- إنه كتاب العهود..ميثاق بين الكتاب وبين سادته من الشياطين وفى مقدمتهم أزوث المبجل. هذا الكتاب لم يكتبه بشرى، لقد كتبه سيد الظلام بنفسه منذ الأزل، إن من يحوزه ويعرف سره ويقوم بعهده يحوز على قوة الشياطين نفسها. لن تبيع روحك للشيطان ولن يكون ميثاقًا مؤقتًا بينك وبين الشيطان يعطيك فيه بعض النعم، قبل أن يأتى بعد حين ليطالبك بالثمن،هذا لن يحدث هنا. إن الميثاق دائم وسيظل قائمًا بينك وبين أزوث وأعوانه طوال عمركِ قبل أن يورث الميثاق لأبنائك وأحفادك. ولن يَنْقُضُ الميثاق إلا فقدانك للكتاب، أو عدم وفائك بالعهد.

-ومن يكون أزوث.

-سيد الكتاب وسيدك. إنه أحد الشياطين القدماء. أحد أتباع بعلزبول الأب المُخْلِصِين. إنه سلاحه البتار فى وجه أعدائه. إنه من سيمنحك القوة.

وتمتلىءُ عينا عبدالتواب بجشع القوة، ويقول بصوتٍ مُفْعمَ بالإثارة :

-وماذا علىّ أن أُقَدِّمَ فى مقابل كل هذا؟..ما الثمن الذى علىّ أن أدفعه.

-ما قَدَّمْتَهُ من قبل. الطاعة والقرابين البشرية والدم. هذا ما يرضيه بشدة.



تواثب قلبه طربًا، لا يعنيه القرابين البشرية، ولا يهمه أن يقتل البشر أجمع، من أجل شهواته..لقد فعلها من قبل،وسيفعلها مِرَارًا لو تَطَلَّبَ الأمر..لو كان هذا هو ثمن القوة له ولأحفاده فسوف يفعله..وقال بصوتٍ كالفحيح :

-وكيف يتم العهد؟..أخبرنى بما عَلَىَّ أن أفعله.

يبتسم الشيخ الأسود ويتمتم :

-أيعنى هذا أنك مستعد للوفاء به.

-وهل يمكن للمرء أن يرفض أمرًا كهذا. إننى مستعد للقيام بما هو أكثر من هذا كى يتم الميثاق.

-إنها صفقة رابحة أيها الشاب لو شئت رأيى. قليلون من حظوا بتلك الفرصة عبر هذا الزمن الطويل وأنت آخرهم. اقترب منى وأعطنى كَفَّكَ الأيسر وأغمِض عينيك ولا تفتحهما أبدًا حتى أنتهى.

مَدَّ عبدالتواب يده اليسرى له فقبضت عليها أصابع خشنة قوية، أغمض عينيه ودون أن يصدر الشيخ الأسود صوتًا من فمه سمع عبدالتواب ورأى فى شىءٍ أقرب للحلم ما عليه أن يفعله. رأى كل شىءٍ وحفظ التعاويذ التى عليه أن يرددها، قبل أن يشعر بالصمت والظلام مرة أخرى..هل انتهى الشيخ الأسود. تذكر تحذيره ألا يفتح عينيه أبدًا فنادى عليه بصوتٍ خافت:

-هل انتهى الأمر.

لا إجابة. فتح عينيه ببطءٍ ليعود الضياء وتعود الضوضاء. تلفت حوله بدهشة وقد أدرك أنه عاد للقطار مرة آخرى، لكن الشيخ الأسود لم يكن بجواره هذه المرة. كانت هناك امرأة مُتَّشِحَة بالسواد يبدو عليها الهرَم

تجلس إلى جواره، وقد مال رأسها على صدرها نائمة. تحسس الكتاب بين ثنايا ملابسه فشعر بوجوده ففكر "هل كان ما رآه حلمًا؟. رفع كَفَّهُ اليسرى وهنا تأكد أن ما رآه لم يكن حلمًا..لقد التقى بالشيخ حقًا..ولقد ترك له الشيخ تلك العلامة المحترقة بكف يده فوق إصبعه الأكبر..

ثعبان نارى يلتف حول نفسه ورأسه مرتفع لأعلى، وفى منتصفه جمجمة يعلوها قرنان.

ولوقتٍ طويل ظل يرمق هذا الرمز المنقوش على جلده ولا يصدق ما حدث.

*****

(11)

دخل القريه مستترًا بالظلام، وتوجه إلى داره وقد أدرك مقصده وغايته،سيقدم القرابين وسيقيم العهد مع (أزوث)..رمق السماء فالتمعت النجوم أمام بصره وبرقت كأنما تُبَارِك مسعاه. تحرك فى الشوارع الخالية وقد جاوز الوقت منتصف الليل ولاحظ بدهشة الذُعرَ الذى يبدو على الكلاب الضالة حين يقترب منها. لماذا ترمقه بكل هذا الذعر ولماذا تفر هاربة من أمامه. هل شعرت هى الأخرى بخطره الآن، وهل أدركت بغريزتها القوة التى يحملها الآن بين جنباته..واصل طريقه وانتبه لقِطٍ أصابه الذُعرَ حين اقترب منه، فتقوس ظهره وراح يطلق فى وجهه مُواءًا غامضًا غريبًا ثم فرَّ من أمامه مبتعدًا، بينما انحرف هو نحو الشارع الذى به بيته. ومن الوهلة الأولى اضطرب قلبه وقد شعر بأنه ليس وحده الآن، لقد تعكر صفو وحدته. كان هناك من ينتظره. بل كان هناك الكثيرون منهم..



لا يراهم لكنه شعر بهم. نظر إلى شجرة التوت المقابلة لداره ورأى بين الأغصان المتشابكة المظلمة العيون التى تبرق بلا ضوء ينعكس عليها.. عيون ينبعث بريقها من عالمٍ غير عالمنا. ليست هذه عيون بشرية ولا حتى عيون حيوانات أو طيور يعرفها. هذه عيون لاتنتمى أبدًا لعالم البشر. رمقها بوجل وتوقف على مَقْرُبَةٍ من داره وفكر فى التراجع والهرب. لكن إلى أين يذهب وكيف يمكنه الهرب من أشياء كهذه وقد رأته وحتمًا ستدركه لو حاول الإبتعاد. علم أنهم فى الغالب من أتباع الشيخ عبدالله. إنهم بلا شك بعض الجان من أعوانه ولابد أنهم هنا بانتظاره. تلفت حوله فى حيرة وعقله يفكر بلا توقف عن حلٍ ما وهو يخشى أن يفقد الكتاب الآن وقد شارف على بلوغ مأربه ومبتغاه..

ثم تحرك بحذرٍ وببطءٍ نحو داره مُحاولًا تجاهلهم. رأى القط المنتصب فوق سور الدار وعيناه تتوهجان بلونٍ أحمر مخيف. رفع رأسه نحو السقف فرأى الثعبان الذى يزحف على الجدار ورأسه يرمقه بثبات. اقترب من الدار فتضاعفت العيون المتوهجة داخل أغصان الشجرة فجأة وكأنما يستدعى بعضها البعض فى انتظار المعركة التالية.. يتحسس الكتاب ثانية ملتمسًا منه العون وهو يخترق الباب الخشبى الصغير الذى يحيط بحديقة داره. هنا تعالت همساتٌ غريبة مخيفة وصفيرٌ حادٌ من كل مكان وتحرك القط نحوه. تلاحقت أنفاسه وتلفت حوله بجنون وقد صار كالفأر الواقع فى مصيدة لا فكاك منها. كان كل ما يهمه الآن ألا يفقد الكتاب..وبعيون مذعورة يرى ما يحدث..

واستطال القط فجأة وتضخم جسده..وبرز من بين أغصان شجرة التوت عشرات الكيانات المخيفة. اهتزت الأرض تحت قدميه مرتجفة هى الأخرى كأنما تشاركه ذعره. وفكر بالتراجع مُحَاوِلًا الهرب وهو يتلفت بذعر بحثًا عن مهربٍ ما. لكن القِطَ تحرك نحو الباب الذى دلفه منذ قليل ليسد

عليه طريق الهرب. نظر إلى السور المنخفض الحجرى لكن كياناتٍ لا يدرك كنهها صارت تعلوه الآن. تحرك نحو باب الدار ليرى أن ذلك الثعبان قد صار أمامه وسَدَّ طريقه للأمام.. وتلتقط أذنه صوتًا غير بشريّ من العدم:

-الثأر من الإنسىّ.. الثأر من من اللص القاتل..

تصاعد الذعر فى نفسه, وترنحت قدماه وهو يبحث بلاجدوى عن مخرجٍ لمأزقه هذا. وبينما تقترب منه الكائنات المخيفة بثباتٍ وعيونها تتوهج بغضب انكمش حول نفسه وقبض على كتابه بقوة وهو لا يُصَدِّقُ أن تنتهى رحلته الآن بالفشل وهو على أبواب النجاح. هنا بَسَطَ القط نحوه وقد تحول لهيئة بشرية يدًا مِخْلَبِيَّةً, وهو يقول بصوتٍ لم تنفرج شفتاه لتخرجه:

الكتاب أيها الإنسىُّ..أعطنى كتاب الدم.

تشبث بكتابه بذعر وقد قرر أن يموت قبل أن يعطيهم إياه. وهو يمد يده فى جيوبه كى يقبض على الكتاب. هنا تعثرت أنامله باللفافة التى أعطتها جواهر العرافة له فتذكرها..وبأملٍ جديد فى النجاة وإصرارٍ لا حَدَّ له أخرجها بسرعة وهو يصرخ فى وجوه الكائنات التى تقترب منه بشجاعة لا يعلم مصدرها:

-ابتعدوا عنى!!..لن تحصلوا على الكتاب أبدًا. ابتعدوا من هنا.

وبسرعة فَضَّ الخيط حول اللفافة وبعثر محتوياتها التى تشبه الغبار فى وجوه الجان من حوله. هنا تعالت الصرخات وحَلَّتِ الفوضى. شاهد كيف تَمَزَّقَ جَسَدُ القِطِ فجأة مُخَلِّفًا خلفه خيطًا من دخانٍ تبدد فى نسيم الليل. وبينما حاول الثعبان الهرب اشتعلت النار بجسده فجأة. فراح يطلق صفيرًا مخيفًا قبل أن تهمد حركته ويتلاشى. أما تلك الكائنات التى اعتلت الشجرة فقد راحت تلاحقها كائناتٌ أخرى مخيفة كالدخان ومن حين لآخر

كان ضوءٌ أحمر كاللهب يتوهج فجأة ويتلاشى معه أحد الكائنات. كانت معركة لا يعرف جنودها لكنها انتهت بانتصاره.. لقد أنقذته جواهر بسحرها كما وعدته. ثم دخل الدار المُظْلِمَة وأغلق الباب خلفه وقال مُحَدِّثًا ظلام البيت وسكونه:

-لقد عدت.

وأطلق ضحكة شيطانية صاخبة.

*****

(12)

كانت القرابين هى ما يحتاجه الآن وقد أعَدَّ العُدَّة الآن فى قبو داره. فخرج من بيته وهو يعرف مبتغاه. أسرة من أبٍ وأمٍ وطفل ورضيع. هذا قربانه الأول لاستدعاء شياطين الظلام ليقوموا هم بالباق.

وكان هناك رجب. ذلك الغريب الفقير الذى أتى للقرية منذ أعوام فتزوج بها وسكن فى بيتٍ طينى يشبة الكوخ على أطرافها. علم أن لديه طفلٌ صغير وآخر رضيع، ولا صعوبة هناك فى أن يدعوه لداره بحجة إطعامه.. وتلقى رجب الدعوة بترحاب وسار وزوجته وطفليه خلف عبدالتواب. دخلوا البيت فأشار إليهم عبدالتواب بترحابٍ نحو الطعام المصفوف على الطاولة الخشبية. كان هناك الكثير من اللحم والدجاج الذى لا يتذوقه رجب وأهله إلا فى الأعياد والمناسبات.وأصَرَّ عبدالتواب أن يتناولوا منه كما يشاءون وهو يُلِحُّ عليهم ألا يتركوا شيئًا من الطعام. راح الأب يُطْعِمُ الإبن الذى يرتدى أسمالًا مُبَقَّعَة بالية بعض الدجاج وبيده الأخرى يقذف للزوجة البدينة قطعاً من اللحم وهو يطالبها أن تاكل. لم يلحظوا العينين اللتين تراقبهم بنشوة وتبرقان كلما أكثروا من الطعام..ولم يلتفتوا للرائحة

اللاذعة الغريبة التى يعبق بها الطعام. كان مُخَدِّرًا قويًا وكانوا ليتعرفونه لو لم يذهب الطعام بعقولهم.

وبعد قليل غلبهم النعاس للمرة الأخيرة وظَلَّ الرضيعُ يَقِظًا يصرخ. وحملهم عبدالتواب نحو القبو. كانت الشموع السوداء فى كل مكان ترسل لهبًا وظِلَالًا شيطانية، والطلاسم والدوائر والنجوم الخماسية تغمر كل شِبْرٍ فى المكان. أخرج الكتاب ووضعه فى منتصف نجمة خماسية تتوسط القبو وفى كُلِّ ذِرَاعٍ من أذرعها أشعل شمعة سوداء مُطْلِقَةً دخانًا نافذ الرائحة.. وضع الأسرة كاملة داخل النجمة ثم رفع الرضيع الذى يصرخ بلا تردد فوق الكتاب وأغمض عينيه وهو يردد تعاويذ شيطانية لَقَّنَهُ إياها الشيخ الأسود. وحين انتهى ودون أن يبالى بالرضيع الذى يصرخ، هوى على عنقه بخنجَرٍ مُطَلْسَم. لم يصرخ الطفل وجسده الضئيل ينتفض فى يد عبدالتواب الذى برقت عيناه فى نشوة والدم الغزير ينهمر نحو الكتاب. وصرخ بجنون والكتاب يتشرب كل نقطة من الدماء كمصاص دماءٍ نَهِمٍ:

-أزوث..أزوث..حان وقتك سيدى فانهض..أزوث المبجل. إن عبدك ينتظرا

ألقى جسد الطفل وقد فرغ جسده من الدماء واندفع نحو الأجساد الناعسة للأبد. وقام الخنجر بعمله فى الأعناق. وفاضت الدماء واختلطت بالتعاويذ الشيطانية وارتجف الجدران وهى تردد معه بلا انقطاع من حناجر ظلالٍ خفية:

أزوث..أزوث..أزوث.

ابتعد عن الأجساد المذبوحة المنتفضة فى احتياج صامت وراقب الشياطين التى ملأت المكان. رأى المارد الذى رآه من قبل وحوله الكثير ممن يشبهونه تمامًا من المردة. وراح الكل يردد بلا توقف فردد هو الآخر معهم فى نشوة :



-أزوث..أزوث..

تداخلت الظلال ولهب الشموع السوداء فى رقصة رعب مُمِيتةٍ وارتجَّت الجدران حتى أوشكت على السقوط قبل أن تنطلق الشياطين لتقوم بعملها.

وأمام الترعة تحركت صابحة ومفيدة حاملتين جرار الماء الممتلئة عائدتين لبيتهما، وهما تطلقان ضحكاتٍ خافتة من حينٍ لآخر، ويراقبان بلا مبالاة أشعة الفجر الأولى التى تولد فى الأفق. لكن أشعة الفجر الوليد أتت ومعها شىءٌ لم يلحظاه فى البداية لكنهما حين شعرا به فوقهما ارتجفا فسقطت الجِرَارُ الفُخَّارِيَّة على الأرض مُهَشَّمَة وانسكب الماء منها..وهما يصرخان صرخاتٍ توقظ الموتى وقبل أن يندفع نحوهما كائنٌ غامضٌ مخيفٌ ذو أجنحة ضخمة ثم حملهما بمخالب قدميه وطار بهما مختفيًا فى الفضاء والظلام.

ومن مكانٍ خَفِيّ بين أعواد الذرة السامقة يبلل فرج نفسه رعبًا، وهو يرتجف بذعر وقد رأى ما حدث قبل أن يُهَرْوِلَ نحو القرية صارخًا طلبًا للنجدة..

وفوق سطح بيت الحاج داوود عبدالمؤمن وأمام الفرن الطينى جلست زوجته جمالات وهى تطرح أقراص العجين داخل الأتون الملتهب، ومن خلفها جلست ابنتها، تُعِدُّ العجين وتُشَكِّلُهُ، قبل أن تناولها إياه، بينما راح ياسر الصغير يمرح على مقربة منهما ممتطيًا عود ذرة جاف كأنه حصان. وبينما ترتفع الشمس فى الأفق رويدًا رويدًا راح عامود الخبز هو الآخر يرتفع وعينا جمالات ترمقه برضا وهى تحث ابنتها على الإسراع. لكنها وحين تعود بعينها نحو الفرن وهى تهم بإلقاء قُرْصٍ آخر من العجين داخله ترى الوجه النارى الذى يبرز من فتحة الأتون وهو يتجه نحوها.. تصرخ برعب

وتجاوبها ابنتها فى جنون لكن دخانًا أسودًا يحيط بهم فجأة للحظات قبل أن ينقشع بغتة والمكان خالٍ منهم. هنا يبرز رأس الحاج داوود وهو يصعد السطح ليرى لماذا تستغيث زوجته وابنته. وهو يحمل فى يده عصا غليظة ليدافع بها عنهما. لكنه لا يرى إلا الخبز الذى راح يحترق داخل الفرن وعامود الخبز الناضج وحلة العجين النصف ممتلئة ولا شىء آخر. ويصرخ وهو يكتشف أن زوجته وابنته وابنه قد اختفوا فجأة فيتجمع الجيران..

فى نفس الوقت تحرك إسماعيل عبدالهادى فى الطريق الترابى وهو يفرك عينيه بكسل بكفة الخشن وهو يحمل على ذراعة الأخرى فأسه. بينما سار خلفه محمد رزق، وعبدالفتاح البسيونى، ورضا البسيونى تتبعهم جميعًا مواشيهم وبعض الماعز التى تمرح حولهم. إنه الصباح حيث العمل مبكرًا فى الأرض قبل صهد الظهيرة. كانوا يسيرون بصمت قبل أن يروا ما يعترض طريقهم. كانوا ثلاثة مردة سود ضخام الجسد، يَرْبُوَ الواحدُ منهم على المترين طولًا وقد تسربلوا بالظلام. هل هؤلاء غيلان أم وحوش. فكروا جميعًا وقد اضطرب الحيوانات وراحت تعدو الماعز هاربة. فَكَّرَ الأربعة فى الجرى. لكن المردة كانوا أسرع واندفعوا نحوهم وبلغوهم فى لمح البصر والتقط كل منهم أحدهم ثم اختفى به وبصرخاته البائسة اليائسة. فى جوف الأرض.لم ينجو إلا رضا الذى ظل يعدو ويصرخ حتى وصل إلى القرية المذعورة، ليخبرهم -بعقلٍ ذهب به الذعر- بما حدث..

وخلف أحد الدور كان سلامة ينتظر جميلة. التى أتت إليه متدثرة بالظلام فضمها فى نشوة لترفع ثوبها لينال من جسدها المزيد.لكن عيون قطط نارية برزت بغته أمامها فأرعبتها لتصرخ وهى تلقى ثوبها، وحين خرج سكان البيوت التى تحيطهم، لتتبع الصرخات الفزعة ونجدة أصحابها، شاهد الكل كيف اختفى سلامة وجميلة فجأة أمام بصرهم.



وفى مقابر القرية لم يكن هناك إلا الشيخ عبدالواحد الحانوتى.. كما كان هناك الرعب والهول. راحت عشرات الأشباح تدور بلا انقطاع حول القبور وصفير رفيع وصرخات مخيفة تدوى فى باحات القبور، قبل أن يرى الشيخ عبدالواحد بعينيه ما يخرج من فتحات القبور المغلقة. أجساد ميتة بالية تتشح بأكفانها يعرف أصحابها وقد عادت لحركتها بعد سكون الموت، وظلال وكيانات شيطانية تدور حولها وهى تردد أنشودتها الشيطانية. كانوا خمسة موتى من أحصاهم قبل أن ينكمش فى حجرته برعب ويغلق الباب والنافذة على نفسه، ولسانه لا يَكُفُّ عن قراءة القران. لقد أتت الساعة بلا شك وها هم الموتى يخرجون من قبورهم..

كانت القرية فى رعبٍ والفجر لم يغادرها بعد والمشاعل فى كل يدٍ والخوف فى القلوب قد بلغ الحلقوم، ولا أحد يدرى كيف صارت القرية مرتعًا للشياطين فجأة. وبلا هدى راح الموكب الضخم من أهالى القرية الخائفين يتحرك فى الشوارع بحثًا عمن فقدوا، والشائعات والأحاديث لا تنتهى وهم فى ضلالهم يعمهون..

من يبدد حيرتهم ومن يفسر لهم ما خفى عنهم ومن يقودهم فى بحثهم؟. هذا ما راحوا يفكرون فيه حتى برز شيخٌ جليلٌ اعترض موكبهم فجأة وأشار لهم أن يتوقفوا. أطاعوه بعجب وهم لايعرفونه فقال لهم بصوتٍ غاضب:

-من أراد ان يعرف من أخرج الشياطين من جحيمها، ومن اختطف أبنائكم فليتبعنى.

صرخ صوتٌ من بين الجموع :

-ومن أنت. وكيف تعرف من فعل كل هذا؟.

-أدعى الشيخ عبدالله المنياوى..لا أحد منكم قد سمع عنى لكنى اعرف عدوكم وأعلم لماذا فعل هذا. لكن لا وقت لهذا الجدال، ودعونا ننقذ الأبناء قبل أن يتخلص منهم ويُطلِقُ شيطانه الأكبر.

لم تحرك أمامهم فتبعوه وهم يرون بعجبٍ كيف اتجه إلى بيت عبدالتواب المنياوى قبل أن يشير إليه ويصيح فيهم:

-انظروا..هل ترون الشياطين..هل ترونهم.

ورأى الجميع الشياطين التى تحيط بالدار وتحوم حوله واضحة مع ضوء الصباح الأول.. كان منهم من يخترق الجدران ومن يخرج منها، فتوقف الجمع فى رُعْبٍ ولا أحد يدرى ماذا يفعلون..

وبالداخل كان القبو الآن يَعُجُّ بالجنون، وقد حضرت شياطين الجحيم لتشهد ما يدور. إن فجر أزوث موشك على البزوغ ثانية. وكانت الرائحة لا تطاق.

اصطفت جثثٌ خَمْس فى قلب كل ذراع من أذرع النجمة الخماسية الكبرى. وفى النجمة الخماسية التى بداخلها خمسة أحياء مُقَيَّدُونَ كُلٌّ فى ذراع من أذرع النجمة يرقبون ما يدور حولهم فى فزعٍ مُمِيتٍ وفى النجمة الخماسية الأخيرة خمسة أحياء أخرون مقيدون أيضًا، وفى منتصف كل هؤلاء يرقد الكتاب مفتوحًا من منتصفه وتتراقص فوقه الظلال المخيفة..

كانت الطقوس الآن قد اكتملت..خمسة موتى وعشرة أحياء وردد عبدالتواب التعاويذ الشيطانية ترددها خلفه الشياطين فى إيقاع مميت:

أزوث..أزوث..أزوث.

لم اندفع نحو الأحياء وعمل خنجره المطلسم فى أعناقهم. ولم يبال بالنظرات المذعورة المستغيثة التى تسأله النجدة والرحمة. وانهمرت

الدماء من أعناق عَشر، واندفعت بقوى شيطانية نحو الكتاب الذى تَشَرَّبَهَا كاملة فى نَهَمٍ رهيب وراح عبدالتواب يردد :

-عد ثانية أزوث المبجل.. لقد قدمت قرابينك وذبحت عبيدك كى تُبعث ثانية. إن عبدك الضعيف بانتظارك كى يتم العهد.

ومن بين صفحات الكتاب خرج الظل الرهيب الذى لم يَجْسُر على التطلع إليه..

وفى الخارج لم يجسر أحدٌ على التقدم نحو البيت وهو يرى كل هؤلاء الشياطين. لكن الشيخ عبدالله لم يعبأ بما يراه، وهو يردد عزائم مبهمة ويضم كفيه ثم يفتحهما ليقذف أشياء خفية فى وجه الشياطين لتختفى على الفور. رأوه يتقدم داخل الدار فتشجع بعضهم وتبعه. سار نحو القبو مباشرة كأنما يعرف هدفه ثم فتح بابه. كان القبو الآن فى جنونٍ وأزوث يقيم العهد فى تلك اللحظة مع عبدالتواب. كان ما رآه الجميع حينها كابوسًا لا يُحْتَمَل ودون أن يشعر أحدهم بنفسه ألقى بالمشعل الذى بيده نحو القبو. هنا جاء الجنون فألقى الجميع بمشاعلهم نحو القبو فى فزع. واشتعل غضب الشياطين فراحت تتخطف عشرات الأرواح. بينما اشتعلت النيران فجأة فى جسد عبدالتواب وقد أصابته إحدى المشاعل. راح جسده يحترق وهو يتخبط ويمد يده نحو أزوث ملتمسًا منه النجدة بينما تابع الشيطان ما يجرى بغضبٍ لا حدود له. لقد هلك البشرى قبل أن يحوز هو على حريته كاملة. المشكله فى هذا أنَّهُ صار مُقَيَّدًا بالجسد المحترق المتفحم وصار عليه أن ينتظر لأعوامٍ لا حصر لها كى يتحرر من ربقة الجسد الميت المتفحم الجامد. عليه أن ينتظر أعوامًا لا حصر لها حتى يحرره أحد الأبناء والأحفاد. وزأر فى غضبٍ لا حَدَّ له. وردد الأتباع صرخاته

تفجرت الدهشة على وجوه الجميع مما يسمعونه، وتابع شريف هذه المرة، وهو يكمل مايرويه الحاج محمود عمدة القرية :

-لاتتخيلون أبدًا ما أحدثه فى النفوس، اختطاف أهالى القرية بصورة شيطانية من هلعٍ لا حَدَّ له. لا تسأل أحد حينها عن التَعَقُّل قبل الإقدام على رد فعلٍ ما.. لذا وحين هاجم أهالى القرية بيت عبدالتواب قاموا بإحراقه بلا تفكير. لكنهم لم يكتفوا بهذا بل هاجموا بيوت عائلة المنياوى الأخرى ولولا بعض التعقل لأهلكوا العائلة بأكملها..لكنهم اكتفوا ولحسن الحظ بطرد العائلة أجمعها من القرية فى ذلك الحين.

شعر عماد بالجزع وهو لايصدق أن أحد أجداده تسبب فى ما يسمعه الآن من أهوال، ولولا ما جرى معه من غرائب لما صدق ما يقال..بينما انتبه الدكتور محمد شاهين إلى أمرٍ آخر..الشيخ الذى قاد الجموع نحو دار عبدالتواب من أين أتى وكيف علم أن عبدالتواب هو المتسبب فى تلك الأهوال، لذا قال متشككًا:

-وماذا عن الشيخ الذى أرشد الجموع إلى عبدالتواب؟..لقد ذكرتم أنه كان غريبًا عن القرية ولم يتعرفه أحد..ماذا حدث له بعد ذلك وهل تَعَرَّفَ أحدٌ ما على هُوِيَّتِهِ؟.

تبادل العمدة والحاج مدبولى النظرات وصمت شريف، قبل أن يقول الحاج مدبولى :

-لا يعلم أحدٌ عنه أىَّ شىء..لقد اختفى الرجل هو الآخر فور انتهاء الأمر، أعتقد أنه ما من أحدٍ اهتم فى ذلك الوقت بالسؤال عنه، فالكل كان فى ذهولٍ مما جرى..وقد جرت الأحداث بسرعة مخيفة.

تذكر عماد البيت المتبقى كأثر وحيد من أسرته بالقرية, تمنى لو كان هذا البيت هو بيت جده وليس منزل أحدًا أخر غيره. ربما مازال محتفظًا ببعض الإجابات عما جرى من قبل, لذا قال بحذر:

-وماذا عن البيت المتبقى من تلك العائلة,أما زال قائمًا أم تَهدَّم؟. وهل سكنه أحد ما بعد ذلك.

هتف الحاج غنيم على الفور بجزع :

-أعوذ بالله من الشيطان الرجيم..بالطبع لم يسكنه أحد, إنه بيتٌ ملعون يا بنى ولا أحد يجرؤ على الإقتراب منه.

انتبه الدكتور محمد لما يقال عن البيت الملعون!. إنه بغيتهم بلا شك. وقبل أن يسألهم عن البيت عاد شريف ليتكلم :

-إنه منزل عبدالتواب نفسه وهو الشىء الوحيد المتبقى كأثر من أثار عائلة المنياوى كلها. وكما قال الحاج غنيم فالبيت ملعونٌ بحق.. فلا أحد يجسر على الإقتراب منه ومَن فَعَلَ وجَرَّبَ أن يدخله لم يعد أبدًا ليخبرنا ما رآه بداخله. تكرر هذا الأمر بضع مرات, فتعلم الجميع ألا يقربوا البيت. ليس هذا كل شىء, فهناك الاصوات المخيفة, والصرخات المُفزِعَة التى تصدر من داخله من حينٍ لأخر وهناك الأشباح التى تظهر من نوافذه فى بعض الليالى المظلمة. كل هذه أمور جعلت من البيت لعنة لا يقربها أحد.

وصمت للحظة وعيناه تنظر أثر كلماته على وجوه الجميع قبل أن تتوقف على وجه عماد المضطرب, فأكمل دون أن يرفع عينيه عن وجه عماد :

-لقد حاول البعض إحراق البيت بِضْعَ مرات. لكن لم يفلح أحد فى هذا أبدًا. فالنار وبصورة عجيبة لا تنتشر أبدًا فى جنبات البيت وكأنما هناك

قوى خفية تطفئها على الفور وتمنعها من التهام البيت. شخصيًا أعتقد أن هناك من يحرص على سلامة البيت والمحافظة على أسراره من المتطفلين.

كان هذا كافيًا للدكتور محمد. هذا البيت هو مقصدهم حتمًا. فكر للحظة هل يسمح لهم البيت بدخلوه أم يمارس معهم ألاعيبه؟. لكن عماد بينهم. حتمًا لن يرفض البيت دخول عماد وهو سيده الحقيقى الأن.لو كان بالبيت أسرار فالبيت لن يُفصِحُ عنها إلا لعماد. لذا نهض قائلًا :

-لا أدرى كيف أشكركم. لقد ساعدتمونا كثيرًا. لكن تبقى مساعدة أخيرة نرجوها منكم. هل يخبرنا أحدكم أين يكون هذا البيت؟.

رمقه العمدة باستنكار قبل أن يهتف :

-لا تخبرنى أنك ترغب فى رؤيته أو دخوله..أرجو يا دكتور ألا تفكر فى هذا..الأمر ليس مُزْحَةً ولم يدخل البيت أحدٌ من قبل وعاد..كلهم دخلوه ولم يغادروه قَطّ

-يؤسفنى أن أخبرك أننا مضطرون لفعلِ هذا..لدينا من الأسباب القوية ما يجعلنا نقوم بهذا

-ولماذا عليكم أن تفعلوا أمرًا كهذا؟.. لا شىءَ أبدًا قد يدفع المرء لأن يُلقِى بنفسه فى التهلكة.

هنا قال عماد هذه المرة لينهى هذا الجدل بشىءٍ من التوتر والحدة:

-وهل هناك ما يمنعنا من أن ندخل البيت؟

رمقه الجميع بتعجب من حدته وتوتره وفكر الدكتور محمد فى قول شىءٍ ما يخفف من وقع كلماته وخاصة أن الجميع يُظْهِرُوْنَ لهم وُدًّا حقيقيًا, لكن شريف قال بسرعة مجيبًا ببساطة وعيناه مثبته على وجهه:

-يمكنك أن تدخل البيت يا أستاذ عماد متى شئت مادمت ترغب فى هذا. البيت مهجور منذ قرنٍ كامل، ولم يعد مِلكًا لأحد كى يمنعك، وطالما هذه رغبتكم فهذا شأنكم.

-إذن هل تخبرنا كيف نصل إلى البيت إذن ؟..

-سوف أقودكم بنفسى له لأثبت لك أنه لا أحد يعترض على هذا. لكنى لن أدخله معكم بالطبع..

هنا قال الدكتور محمد شاهين بامتنان حقيقى:

-سيكون هذا كرمًا حقيقيًا منك يا بنى.

*****

(14)

كان البيت كئيبًا بحق..وحتى مع ضوء النهار الذى بدد الضلالات والأوهام بدا البيت مخيفًا، يبعث فى النفوس إحساسًا مبهمًا بالإنقباض وعدم الراحة، كلهم شعر بهذا حين لاح لأعينهم من بعيد وهم يتجهون إليه بوجوم، ومن خلفهم تبعتهم السيارة الجاجوار السوداء الفخمة يقودها ممدوح ببطء، وهى تخفى جسد ابتسام التى مازالت فى غيبوبتها فى جوفها وقد رقد بجوارها ابنها عماد نائمًا هو الآخر..

حمد الدكتور محمد الله فى سره أن الوقت مازال نهارًا، فلا يدرى كيف يمكن أن يدخل بيتًا كهذا فى ظلام الليل. ورغم أنه قد فعل هذا كثيرًا من قبل مع عشرات المنازل المسكونة، لكن هذا البيت كان مختلفًا.. هناك شىءٌ شيطانىّ يحيط البيت.أخفى مخاوفه فى أعماقه وسار ببطءٍ مفكرًا فى ما يمكن أن يجده بالداخل..ووجد نفسه يتمنى ألا يكون الموت بانتظارهم داخله

أما عماد فقد تباينت مشاعره التى تشتعل فى جوفه. شعر بالإثارة لأنه يعود لبيت تربى فيه أجداده، بيتٌ لم يعرف وجوده قبل الآن، لكنه يحمل بين جنباته مصيرًا لا يعرفه أُعِدَّ له منذ دهور بعيدة. حدَّثَتهُ نفسه أنه يقترب من نهاية الحكاية والكابوس الذى عاشه لأعوامٍ سبع..ولاح لعقله إحساسًا مُبهَمًا بأن هناك مفاجأة كبرى مازالت بانتظاره..

وصلوا للسور الحجرى القصير الذى يحيط بالبيت وقد تهدم أغلبه فتوقف شريف وقال ومازال محتفظًا بابتسامته الودودة على شفتيه:

-هنا تنتهى رحلتى أنا وتبدأ رحلتكم..لن أتقدم أكثر من هذا، كما أتمنى لو تفعلون مثلى وتُقلِعُوا عما انتويتم فعله، وتعودوا أدراجكم سالمين.

التفت إليه عماد ومَدَّ يده نحو مصافحًا وغمغم بشرود والبيت عالقٌ فى ذهنه:

-إننى أشكرك على كل ما قمت به من أجلنا يا شريف. أتمنى أن نلتقى ثانية لنتحدث مرة أخرى.

-هذا ما أتمناه وأدعو الله به. أتمنى أن أراكم ثانية بالفعل. سوف أنتظركم هنا فربما، احتجتم لشىءٍ ما.

اعترض الدكتور محمد على اقتراحه قائلًا:

-لا داعى لهذا يا بنى..قد نتأخر بالداخل ولا نريد أن نعطلك أكثر من هذا.. اذهب لبيتك، وكفى ما قَدَّمْتَهُ لنا.

قالها ثم أردف فى أعماقه بقلقٍ حقيقىَ بَثَّهُ البيتُ فى نفسه:

-ما جدوى الإنتظار وقد لا نعود ثانية أبدًا. فمن يدرى ما الذى ينتظرنا بالداخل.

هَزَّ شريف رأسه مُحَيِيًا قبل أن يتحرك ليتوقف تحت ظل شجرة التوت التى تنتصب فى مواجهة البيت مُراقبًا إياهم للحظات..رأى ممدوح الذى غادر السيارة على عجل وهو يتقدم نحوهم لاهثًا ليتبعهم..

توغل الثلاثة فى الحديقة الجرداء القاحلة ولاحظوا أكوام القمامة التى تنتشر فى جوانبها. اقتربوا من مدخل البيت ورأوا كيف صار تالفًا بشدة وقد تحطمت نوافذه تمامًا واختفى أغلبها مُخَلِّفَةً ورائها فجواتٍ مظلمة تثير الكثير من الخيالات والهواجس.. كان السقف الخشبى متهدم فى غير موضع وعلى الجدارن ظلت آثار حريق ودخان أسود تشى بما جرى من أحداثٍ مخيفة فى زمنٍ بعيدٍ مضى. تحركوا بحذر وصمت نحو باب البيت. كان موارِبًا,دفعه عماد بيده فتحرك للداخل مُصْدِرًا صريرًا صاخبًا مُرْعِبًا. تمنى حينها ممدوح لو كان قد انتظرهم بالسيارة, لماذا يندفع بحماقة فى كل مرة ليقوم بأشياء لا قِبَلَ له بها. إن البيت مُخِيفٌ كالجحيم ولا يدرى لماذا يشعر أن هناك من ينتظرهم بالداخل. كم تمنى لو يفر من المكان كله, لكنه لم يجسر على البوح برغبته هذه لهم فاكتفى بالسير خلفهم وأسنانه تصطك ببعضها فى خوف. وبداخل البيت كان أثر الحريق فى كل مكان. كانت هناك قطع خشبية محروقة وأثاثٌ مُحَطَّم وستائر ممزقة وأحجارٌ متساقطة. كما بدت جدران البيت نفسه متداعية توشك أن تَنْقَضَّ فوق رؤوسهم. إنها لمعجزة أن البيت لم يسقط حتى الآن ومازال قائمًا..

وفى منتصف صالة البيت المُظْلِم بالرغم من ضوء النهار المتسرب من مواضع شتى من الجدران, شاهدوا هيكلًا عظميًا مُلْقىً على الأرضِ ولا يغطيه إلا أسمالٌ بالية مهترئة. توتروا جميعًا وعيونهم تتسع وهى تُحَدِّقُ فيه بحذرٍ وغمغم ممدوح بهلع, وقد جَفَّ حلقُهُ:

-هل هذا هيكل بشرى حقيقى؟.

بدا السؤال غبيًا لا معنى له فلم يهتم أيهما بإجابته وانحنى الدكتور محمد نحو الهيكل الذى بدا راقدًا على وجهه. رفع أحد الذراعين العظمين فتفككت الأصابع والسلميات منه, ونظر إلى حواف العظام فلاحظ أنها متآكلة بالية فى غير موضع..أزاح الملابس البالية فتمزقت بين أصابعه بسهولة مخلفة ورائها عظامًا نظيفةً تمامًا بلا أنسجة يغلفها بعض الثرى..هنا انتصب ثانية وهو يقول :

- لقد مات منذ زمنٍ بعيدٍ للغاية, العظام مفككة لا يربطها شئٌ ببعضها البعض كما أن حوافها تالفة وبالية متحللة. إن عمر هذا الهيكل عشرات الأعوام كما أعتقد.

تأمل عماد الهيكل باضطراب وغمغم وهو يفكر فى صاحبه:

-أتعتقد أن هذا الهيكل العظمى هو ما تبقى من جدى؟..

-لا أظن أنه جدك. فعمره لن يصل أبدًا لقرنٍ كاملٍ مع عوامل التعرية تلك التى تحلل جسده فيها. أعتقد أنه يخص أحد المتطفلين الذين قبل أنهم دخلوا البيت ولم يخرجوا منه..يبدو أنه قضى نحبه هنا لسببٍ ما ولم يشعر به أحد ليهتم بدفنه.

-وما الذى قد يكون قد قتله؟

رمقه الدكتور محمد بعيونٍ هادئة قبل أن يجيب ببساطة :

-لا فكره لدىَّ على الإطلاق, العظام سليمة كما ترى لا أثر لكسورٍ بها..من الممكن أن تكون ميتة طبيعية ومن المحتمل أن يكون قد مات رعبًا مثلًا..أنت تفهم ما أقصده بالطبع.

فهم عماد مايقصده فصمت, ثم تحركوا ثانية بين الأثاث المحطم والمتراكم بلا انتظام ودخلوا حجرات المنزل ليروا ما فيها..لم يعثروا إلا على الأثاث

المُهَشَّم والغُبَار وأعشاش العناكب الكثيفة.. وفى المطبخ وجدوا هيكلًا عظميًا آخر..هيكل يرقد على ظهره وقد تبعثرت عظامه فى دائرة قطرها متر كامل.. وفى إحدى حجرات النوم رقد على الفراش هيكل عظمى ثالث لجثة ثالثة..

كلهم كانوا يشبهون الهيكل الأول وكُلُّهُم كان قديمًا يعود لسنواتٍ بعيدة وكلهم يحمل معه أسرار غامضة مخيفة بلا إجابات..

لماذا مات هؤلاء؟..

فى النهاية لم يعثروا على شىءٍ آخر ذا بال, فتوقفوا فى منتصف الصالة وعيونهم تدور فى المكان المُوحِش الرهيب وهتف عماد بحيرة مُحَدِّثًا الدكتور محمد الذى احتشد بعض العرق على جبهته وبدا مُرْهَقًا مريضًا فى هذه اللحظة:

-والآن ماذا تقترح أن نفعل؟..لا شىء فى البيت مُلْفِتٌ غير الجثث الثلاث.

-علينا أن نعثر على القبو..لقد حدث كل شىءٍ به كما أخبرنا عمدة القرية, ولهذا أتوقع أن نعثر على الإجابات به.

-لكننى لا أجد أثرًا له حولى. أين تعتقد أنه موجود.

تحول بصر الدكتور محمد إلى ركنٍ مُغَطًّى بالأحجار والأثاث المُهَشَّم والتراب فأشار إليه بإصبعه قائلًا:

-أعتقد أن علينا أن نُزِيلَ الأحجار تلك لنرى مات خفيه خلفها.

نظر ممدوح وعماد إلى كومة الأحجار التى أشار إليها وتمتم ممدوح بِحِيْرَة:

-وهل تعتقد أن القبو مخفىٌّ خلفها؟.

-أعتقد أن علينا ألّا نُضيِّعَ المزيد من الوقت فى طرح الاسئلة التى لا معنى لها وأن نبدأ العمل على الفور فى إزاحة تلك الأحجار..لقد اقترب الظلام ولا أُحِبُّ أن أبقى داخل هذا البيت حين يغيب الضوء.

تحركا على الفور وبدءا فى إزاحة الأحجار والأثاث القديم جانبًا بينما جلس الدكتور محمد ليستريح على مقعد خشبى بلا حشية. عربد الألم فى جسده كوحشٍ بَرِّىّ ينهش فى أوصاله بنهم, وراح بصعوبة يغالب دوارًا عنيفًا يجتاح عقله. أدرك الآن أنه بالفعل لم يعد قادرًا على تحمل الإثارة كما قالت مديرة منزله وداد حين اعترضت على رغبته فى الإشتراك بالأمر..كان عليه أن يستمع إليها ليتجنب تلك الالام التى يقاسيها الآن. مضى الوقت بطئيًا وعماد وممدوح يعملان بهمة فى إزاحة الأحجار وغمر المكان الكثير من الغبار قبل أن يهتف ممدوح بحماس وهو يشير لشىءٍ مخفىّ خلف الغبار الذى غمر الناحية كلها:

-رباه.. هناك بابٌ بالفعل يا رجال. هل تراه يا عماد..انظر هناك. إن الغبار يخفيه.

بالفعل رأى عماد الباب المخفىّ, فزاد من نشاطة هو الآخر, وبعد قليل كانوا قد صنعوا فجوة سمحت لهم بالوصول للباب الخشبى ذو الطلاء المتآكل. دفعه عماد بذراعه للداخل فلم يستجب له. تقدم نحوه ممدوح ليساعده وراح يدفع الباب معه بكل قوته فقاومهما الباب قليلًا قبل أن يستد لم أمامهما ويبدأ فى التحرك وينزاح للداخل رويدًا رويدًا.

وحمل إليهم الباب من داخل القبو رائحة عفنة, أشد شناعة من رائحة القبور. كانت رائحة عضوية قوية تقلصت أحشاء الثلاثة لها, وقد شعروا بغثيانٍ شديد ورغبة فى القىء جاهدوها بصعوبة. انتظروا حتى خفتت حدة الرائحة قليلًا ثم دلفوا القبو المظلم. أضاء عمادُ ضوء الكشاف الذى

جلبه معه وتقدمهم، ثم تبعه الدكتور محمد وممدوح الذى غَطَّى أنفه بمنديلٍ قُمَاشِىّ لِيُجَنِّبَهُ الرائحة الخانقة. هبطوا الدرجات الحجرية التى انتهت إلى أرضٍ فسيحة، وراح ضوء المصباح يُظْهِرُ مُحتواها الرهيب. طالعتهم الأجساد الهامدة المتحللة التى بلا رؤس وقد تكومت فى رأحد الأركان الجماجم المقطوعة فى مشهدٍ رهيب. وامتلأت الأرض والجدران بالكثير من النقوش والنجوم الخماسية والطلاسم التى أدرك الدكتور محمد من اللحظة الأولى أنها طلاسم حقيقية للسحر الأسود. لقد مورس فى هذا المكان سحرٌ شيطانىٌ رهيب.. لم يرى من قبل طقوسًا دموية كهذه. كما يدرك من خبرته أن الغاية من ممارستها فى الغالب قد تكون استحضار الشيطان نفسه.

لم يكن ضوء المصباح كافيًا ليبدد الظلام الدامس فأشار إلى مشاعل خشبية مُعلَّقة على الجدران وهتف فى عماد وهو يناوله علبة ثقاب أخرجها من جيبه :

-حاول أن تُشعِلَ تلك المشاعل يا عماد..

قَرَّبَ عماد السنة اللهب الصغيرة من المشاعل فاشتعلت على الفور.. كان عددها على الجدران خمس كَكُلِّ شىءٍ أخر فى المكان.. أنارت المشاعل القبو كله، وعلى ضوء اللهب بدا المكان رهيبًا بشدة.. رأوا كيف اصطفت الجثث المقطوعة الرؤس بانتظام داخل أذرع النجمات الخماسية المتداخلة.. وشاهدوا فى أحد الأركان الجسد البشرى المنتصب والذى تَفَحَّمَ تمامًا وقد بسط فى الفراغ ذراعًا عظمية. تبادل الجميع النظرات المرتجفة وهم يرمقون الوجة المسود الذى ذابت ملامحه، وهَزَّ الدكتور محمد رأسه ببطء وهو يلاحظ نظرات عماد المتسائلة وقال باقتضاب:

-أعتقد أنه جدك.

أطال عماد النظر إلى الجسد المتفحم ومشاعر شتى تتنازعه..ميتة بشعة تلك التى نالها الرجل. لكنه وأمام ما يراه حوله من أهوالٍ لم يشعر بالشفقة نحوه، إنه يستحق ما حدث له بلا ريب، لو كان هو من فعل تلك الممارسات البشعة.

تحرك الدكتور محمد نحو أحد الجثث التى غطَّت منتصف النجمة الداخلية وقد لمح شيئًا يبرز من أسفلها. حَرَّكَ الجثة التى تحولت لمومياء جافة الآن،فرأى الكتاب المُغَطَّى بالغبار أسفلها. رمق النقوش الغريبة التى حُفِرَت على غلافه الجلدى للحظة. ومَدَّ ذراعه بعدها ليرفعه من على الأرض.. لكنه وقبل أن تلمس كفه الممتدة الكتاب، سمع ذلك الصوت من خلفه والذى هتف به مُحَذِّرًا :

-حذارِ أن تفعل يا دكتور..لو لمسته سأقتلك على الفور.

انتفض الثلاثة فجأة فزعًا والتفتوا بِحِدَّة نحو مصدر ذلك الصوت، وعلى ضوء المشاعل رأوا المشهد المخيف الغريب..

شريف واقف على الدرج الحجرى خلف باب القبو ينظر إليهم بصرامة وحَزم وفى يده مُسَدَّس صغير يُصَوِّبَهُ إلَيهم. ومن نظرات عينيه أدركوا أنه لا يمزح أبدًا فى تهديده.

*****

(15)

طال الصمت والترقب لوقتٍ طويل وهم يتبادلون النظرات المذهولة مع شريف الذى ظل بمكانه ينظر إليهم بحذر ومسدسه بيده مُتحَفِزًا لأىّ شىءٍ طارئ، فى النهاية هتف عماد بحدة واستنكار:

-ما هذا الذى تفعله يا شريف؟. ولماذا تهددنا بهذا المسدس؟.

-أصَحّحُ خطأ فعله جدك منذ أكثر من قرن. إن عبدالتواب المنياوى هو جدك يا عماد. أليس كذلك؟

رمقه عماد بدهشة متسائلًا كيف عرف بينما قال الدكتور محمد بهدوء وقد رسم على شفتيه ابتسامة غريبة:

-إنه حفيده بالفعل. ولا يدهشنى أبدًا أنك أدركت هذا. لكن الفضول ينهشنى لأعلم من أنت؟. وما الذى مازلت تخفيه فى جعبتك.

رمقه شريف بحزم وقد اضطرب وجهه من تلك الإبتسامة التى يراها على وجه الدكتور محمد ثم قال:

-إننى حفيد رجلٌ آخر..رجل خانه هذا الرجل المتفحم منذ قرنٍ وسرق من بيته شيئًا خطيرًا للغاية.

-لنقل أنك حفيد ذلك الرجل الذى أرشد القرية فيما مضى لهذا البيت. أليس كذلك؟..

تحرك شريف نحوهم بحذر وهو يشير إليهم بالمسدس أن يتجمعوا سويًا ويتراجعوا نحو أحدِ الأركان ثم اتجه مباشرة نحو الكتاب دون أن تفارقهم عيناه وانحنى نحوه وحمله بيده الحُرَّة وهو يقول:

-هذا هو كتاب الدم يا دكتور. أعلم أنك لم تسمع به من قبل لا أنت ولا غيرك. إنه أحد الأسرار التى لا ينبغى أن يعلمها أحد. لقد كان إرثًا، عُهِدَ به إلى أجدادى منذ الأزل للحفاظ عليه وإخفائه عن الأعين. ولقد نجح أجدادى فى هذا حتى جاء جَدُّ عماد إلى جدّى الشيخ عبدالله المنياوى. لا أدرى كيف خدعه حينها، لكنه فى النهاية سرق الكتاب وهرب به ليتسبب فى كل هذه المجازر الوحشية التى ترون آثارها حولكم.

شعر الدكتور محمد بالحيرة الشديدة لأنه لم يسمع عن هذا الكتاب من قبل أبدًا. رغم أنه يعلم كل كتب السحر والخوارق والجان التى خَطّهَا البشر. هنا قال بفضولٍ وعيناه مُعَلَّقَةٌ بالكتاب الذى يحمله شريف ويقبض عليه بقوة:

-وماذا يكون هذا الكتاب. هل يكون كتابَ سحرٍ أم هو من اجل استحضارِ الشياطين والجان.

نظر اليه شريف بحيرة وظهر التردد على وجهه للحظة وهو يفكر. هل يخبره بسر الكتاب أم يصمت..فى النهاية قرر التحدث :

-إنه كتاب أزوث يا دكتور. هل سمعت به من قبل.

لكن الدكتور محمد أجابه هذه المرة مبتسمًا:

-سيدهشك أننى اعلم أزوث هذا. إنه أحد الشياطين القديمة. أحد أعوان إبليس نفسه وأحد أمراء الشياطين العِظَام. ربما لم أسمع عن كتاب الدم من قبل، لكننى قرأت مِرَارًا عن أزوث. شيطان النار والحرب..

-يدهشنى بالفعل أنك تعلم بشأنه يا دكتور. أجل. إن أزوث هو شيطان النار والحرب..الشيطان الذى كاد أن يحترق ويُقتل فى أحد المعارك القديمة فصنع إبليس من أجله هذا الكتاب وزوَّدَهُ بالطلاسم التى تحمى أزوث وأعوانه من التلاشى. إن كل قوى أزوث وأعوانه صارت حبيسة هذا الكتاب. إنها قوى مخيفة لا قِبَلَ لأحدٍ بها أبدًا. قوى خطيرة للغاية فى انتظار من ياتى ليحررها.

-وقد حاول جَدُّ عماد تحريرها كما أعتقد.

-للاسف هذا ما حدث..لقد كان الكتاب كما أخبرتك بحوزة أجدادى دومًا بعد أن انتهى إلى يدِ ساحرٍ غجريّ يمارس السحر الأسود كان قد عثر عليه

فى أحد المغارات. حدث هذا فى العصر الأيوبى. ولقد نجح أحد أسلافى فى الظفر بالكتاب منه وقد أدرك خطره فَزَوَّدَهُ بالطلاسم التى تحميه وتُخفِيهِ عن أعينِ الشياطين كى لا تصل إليه أبدًا حتى انتهى إلى جدى عبدالله ليأتى عبدالتواب المتفحم أمامكم، ليسرقه من جدى.

انكمش ممدوح حول نفسه فى الرعب وقد التصق بالجدار وهو لا يعنيه ما يدور الآن بينهم..لقد فهم أنَّ شريف يريد الكتاب وها هو قد حصل عليه. ليرحل إذن عنهم وليذهب بالكتاب إلى الجحيم فهذا لا يعنيه. أما عماد فراح يتابع ما يقوله شريف عن الكتاب وعن جده وهو يحاول أن يدرك الرابط بين ماحدث فى الماضى وماع حدث مع أمه وأخته وما شأنه به. وفى النهاية قال بِوَهَنٍ

-هل تعلم يا شريف أن أبى وجَدِّى وَجَدِ أبى قد ماتوا جميعًا فى الثانية والثلاثين من عمرهم..هل تعلم أن أمى قد أصابها استحواذٌ شيطانىٌ قتلها فى النهاية، ولا شَكَّ أنَّكَ لا تعلم أن أختى الوحيدة قد أصابها بالأمس نفس الإستحواذ الشيطانى اللعين. هل تعلم لماذا حدث كل هذا؟!

تراجع شريف للخلف قليلًا بظهره قبل أن يقول :

-أعتقد أن أعوان أزوث هم من فعل هذا. ذنبٌ آخر من ذنوب جدك الكثيرة..لقد ظن أنه يجلب القوة له ولذريته فاذا به يحمل الموت والهلاك لهم. لقد حرر جدك أزوث من الكتاب وأعوانه،لكنه مات قبل أن يُتِمَّ العهد معه. إن أزوث رغم قواه الرهيبة لا يمكنه العودة لهذا العالم إلا من خلال بشرى يقيم العهد مع الكتاب، ويورث العهد لذريته من بعده. لقد مات جدك قبل أن يفعل فصار أزوث حبيس الجسد المتفحم فى انتظار أن ياتى أحدًا من ذريته ليحرره ثانية. لابد أن أعوانه قد وصلوا إلى

أجدادك وأهلك ولابد أنهم طالبوهم بتحرير سيدهم ولما لم يفعلوا لجهلهم بالأمر قتلوهم.

نظر عماد نحو جده المنتصب مُتَفَحِّمًا وهو يُحِسُّ بغضبٍ ومقت لا حَدَّ له. إذن فهو من تسبب فى كل هذا. لقد كان جده لعنة بحق على أسرته. ليته لم ينتمى لهذا الجَدِّ.. بل ليته مات قبل أن يشهد كُلَّ هذا.

وسمع الدكتور محمد يقول لشريف :

-لكن أليس غريبًا أن تعلم مكان الكتاب ولا تأتى للحصول عليه..ألم تخشى أن يَعثُرَ على الكتابِ شخصٌ ما مصادفةً وقد يُقِيمُ حينها العهد مع ذلك الشيطان كما تقول.

ابتسم شريف وهو يُجِيب:

-لم يكن ممكنًا أن أقترب أنا أو غيرى من البيت وقد تحررت أعوان أزوث وراحت تحميه. إنهم أقوياء يا دكتور كما أخبرتك ولا قِبَلَ لى أو لغيرى بهم. لقد قتلوا كل من سَوَّلَت له نفسه دخول البيت..أعتقد أنك قد رأيت الهياكل العظمية لبعض هؤلاء بالخارج.

-ولماذا لم يفعلوا معنا هذا الآن؟..

-لأن عماد بينكم. ظننت هذا واضحًا. إنهم بانتظاره منذُ قرنٍ وها هو قد أتى، فلا مجال إذن للتعرض لكم..

هَزَّ الدكتور محمد رأسه مُتَفَهِّمًا وقال ببطء:

-إذن لم يكن الشياطين فقط هم من ينتظر عماد أو أحد أباءه. لقد كنت وأجدادك أيضًا فى انتظار أن ياتى أحدهم لتظفروا بالكتاب منه. ولقد كنت أنت سعيد الحظ الذى شهد هذا واستعاد الكتاب ثانية.

-هذا تحليلٌ دقيقٌ للغاية. أنت مُصِيب.

هنا تقدم ممدوح بعصبية وقد شعر بأعصابه تتوتر بشدة وقال:

-وها قد حصلت على الكتاب..هلّا غادرت المكان وتركتنا نغادره نحن أيضًا.

ابتسم شريف هذه المرة بمرارة وهو يرقُبُ ممدوح الذى يقترب منه وقال:

-للأسف هذا غير ممكن الآن..لا ينبغى أن يعلم بالكتابِ أىَّ أحَد. ولهذا فأنا مضطر فى هذه اللحظة للتخلص منكم جميعًا قبل أن أختفى بالكتابِ ثانية.

هنا قال الدكتور محمد ببطء وقد أيقن أن شريف لا يمزح فيما قاله:

-حتمًا لن تفعل يا شريف. لا مُبَرِّرَ أبدًا لجريمة جديدة. خُذِ الكتاب واذهب به حيث شئت و نَعِدُكَ أن نلتزم الصمت.

نظر نحوه شريف لِيُعَقِّب وفى اللحظة التالية حدث مالم يتوقعه أحد..كان ممدوح قد فقد كل تَعَقُّلَهُ فى هذا الوقت وقد أيقن هو الآخر بهلاكه..لم يكن يرغب حتمًا فى الموت لذا قرر ان يجازف ويفعل محاولة ما وحين التفت شريف نحو الدكتور محمد وهو يُحَدِّثَهُ, اندفع نحوه مرة واحدة مُحَاوِلًا القبض على يده التى تُصَوِّبُ المسدس نحوهم. لكن شريف انتبه إليه فى اللحظة الاخيرة وتراجع للخلف بسرعة قبل أن يطلق نحوه رصاصة استقرت فى صدره..

صرخ عماد وهو يندفع نحو صديقه الذى تَكَوَّمَ على الأرض مُحْتَضِرًا وجسده ينتفض بشدة, وخيطٌ من الدماء يتسلل من جانب فمه للخارج. وانحنى نحوه الدكتور محمد هو الآخر بأسى وقد أيقن إن إصابته مميتة. وقال شريف بأسفٍ حقيقى:

-أرجو ألا تَحْقِدُوا علىّ. كنتُ مُضْطَرٌّ لهذا. إنه ذنب جَدِّكَ يا عماد فى النهاية, وهو من تسبب فى تلك الفوضى. إنه من يستحق حنقى وحنقكم جميعًا. والآن من فضلك أغمضوا أعينكم واستعدوا للموت. لا أحب أن أطلق رصاصى نحوكم وأنتم تنظرون إلىّ.

لم يفعل الإثنان وارتفعت أعينهم نحوه فى حقد وتَحَدٍّ وتحرك إصبعه نحو الزناد وضغطه بلا تردد.

*****

(16)

لم تنطلق الرصاصة حين ضغط شريف الزناد. بل ولم يتحرك الزناد من مكانه. وقبل أن يفكر شريف ويبحث عن تفسيرٍ ما لما حدث سمع تلك الضحكة الصاخبة التى أتت من خلفه. التفت على الفور ليرى ابتسام التى لم يرها من قبل. كانت تتقدم نحوه وعلى وجهها تلك الإبتسامة الساخرة وفى يدها سار عمادُ الصغير بخطواتٍ آليةٍ كأنما يُحَرِّكُهُ شىءٌ ما.

وهتف عماد بقلق وقد خشى أن يُطلِقَ شريف عليها نار مسدسه:

-احذرى يا ابتسام. ابتعدى بالطفل فقد يؤذيك.

لكنها واصلت التقدم نحو شريف الذى تراجع أمامها فى خوفٍ حقيقىّ. فى النهاية اصطدم ظهره بالحائط ومازالت يده تحاول بلا جدوى إطلاق الرصاص نحو ابتسام التى تتقدم نحوه, ويده الأخرى تَقْبِضُ على كتاب الدم بقوة.

وصلت إليه ومَدَّتْ أصابعها نحوه. هنا صرخ بألمٍ رهيب وهو يلحظ القوة الخارقة الخفية التى أحاطت بمعصمه فحررت الكتاب من يده ليطير فى الهواء نحو عماد الذى تلقفه بدهشة, وفى نفس الوقت سقط المسدس

من اليدِ الأخرى التى تقبض عليه ودَوَّى معه صوتٌ شنيع لعظام يده التى هَشَّمَتْها قوى خفية فراح يصرخ.

هنا راحت عشرات الظلال تتحرك فى الحائط وراحت الهمسات تُدَوِّى فى المكانِ من كُلِّ مكان، وقالت الشياطين بصوتٍ غليظ خرج من فم ابتسام وهى تنظر إلى عماد..

-حان الوقت لتُحَرِّرَ أزوث. أطلق سراح السيد. إنه بانتظارك. حرر أزوث أيها البشرى.

راقب الدكتور محمد الذى مازال مُنْحَنِيًا حول جسد ممدوح المحتضر، بتوتر عماد الذى تجمد فجأة وهو ينظر للكتاب..وشعر بالصِراعَ الخفىَ الذى يدور فى عقلِ عماد فى هذه اللحظة. هل يتلقى اتصالاً ما من قوى خفية فى هذه اللحظة.

الحقيقة أنه كان مُحِقًّا فى اعتقاده..ففى تلك اللحظة كان عماد مع جده..كانا فى مكانٍ آخر وزمنٍ آخر انتقل اليه بعقله، وراح جده يُحَدِّثَهُ بحماسٍ عن كتاب الدم. حَدَّثَهُ عن أسراره. حَدَّثَهُ عن القوة التى تنتظره لو حرر سيده. وذَكَّرَهُ بما ينتظره لو لم يفعل. سيقتله أعوان أزوث كما فعلوا مع أبوه وأجداده. وإن لم يفعلوا فهناك جثة سوسن التى ستعثر عليها الشرطة حتمًا وسيتهمونه بقتلها وقد يُعْدَمَ من أجلِ هذا. رأى عماد منى ورأى زوجها الذى أَذَلَّهَا طويلًا. رأى الممرض حكيم وتداعت لذاكرته ما فعله معه ومع الآخرين. ثم رأى أخته التى ظلمها ابن زوجها وحرمها من حقها وأموالها. هنا كره ضعفه الذى منعه من الأخذ بثأره ممن ظَلَمَهُ وظَلَمَ أحبائه من قبل.. إنه لا يرغب فى الموت كما لا يرغب فى أن يظلَّ ضعيفًا. وحين أفاق كان يُدرِكُ ما عليه أن يفعله..

رآه الدكتور محمد يتحرك بثباتٍ نحو منتصف النجمة الخماسية التى تتوسط المكان وفى يده الكتاب فأدرك ما ينتويه. نهض على الفور وتحرك نحوه وهو يهتف مُحَذِّرًا:

-إياك أن تفعل يا عماد..لا تُقْدِمُ على أىّ حماقةٍ الآن.

لكن قوى خَفِيَّة أوقفته بغتة ورفعت جسده فى الهواء ثم دفعته نحو الجدار المقابل للجدار المُثَبَّت به شريف، الذى مازال يصرخ برعبٍ وألم. شعر الدكتور محمد بالقيود الخفية التى تُقَيِّدُهُ للجِدار، فتضاعف الألم فى جسده ولم يعد قادرًا على الكلام..

وفى منتصف النجمة الخماسية توقف عماد ورفع عنقه لأعلى ثم رفع الكتاب عاليًا فى الفراغ، وهتف بصوتٍ غريب :

Antiquum jus demones inferni

Ossa principibus tenebrarum.

Ius Beelzebub et sacerdotes Ozmideus magicenque et magos Antoninum sepulchra

O Veni in auxílium nigra reversus AZOTH..

Ozoth Vamrhawwa reversus..

Computatis Ozot Fattabek Salvator exspecta

وارتجفت الجدران وتراقص لهب المشاعل فى تَوَحُّشٍ واشتعلت الشموع السوداء التى تملأ أركان المكان فجأة. تراقصت عشرات الظِلَال المُتَوَهِّجَة على الجُدْرَان قبل أن تتجسد فى شكل كياناتٍ مُخِيْفَةً بعيونٍ نارية ووجه

مطموسة سوداء. وراحت الشياطين الخفية تردد ترانيمها الوحشية فى صوتٍ مخيف:

أزوث. أزوث. أزوث.

رفع عماد يده نحو شريف، فطار جسده ليقبع فى منتصف الدائرة راقدًا على ظهره وقد بسط كلًا من ذراعيه وكَفَّيْهِ على اتساعهما. وبينما راح شريف يصرخ فى رعب، شَقَّ الفراغُ من مكانٍ خَفِىّ خنجر قديم مُطَلْسَم التقطه يد عماد اليسرى، ثم انحنى نحو شريف وأغمض عينيه وهو يصرخ بنشوة:

-المجد لأزوث..

وبلا تردد هوى بالخنجر على صدر شريف واخترقه، فتفجر الدم، وارتفع الخنجر ثانية فى الهواء قبل أن يهوى هذه المرة على عنقه.

سالت أنهار الدم من الجسد المنتفض فالتقط عماد بعضها بِكَفِّهِ، وسكبها على الكتاب. فارتجت الجدران وتزلزلت.

وعلى جدرانِ القبو تَجَسَّدَ الثُعْبَان النارى وهو يَلْتَفُّ حول نفسه ويرفع رأسه عاليًا وفى منتصفه ظهرت جمجمة شيطانية بعيونٍ مُشْتَعِلَة وقرنين ناريين على جانبيها..

و من وسط الثعبان برز أزوث وتجسد. غادر الجدار المشتعل ونظر إلى عماد ثم أشار بكفه نحوه. كان بشعًا مخيفًا، فلم يجسر الدكتور محمد على النظر اليه وأغمض عينيه فى خوفٍ حقيقىّ.

لم يرى عماد الذى ركع أمام أزوث..لم يرى الخاتم النارى الذى خرج من إصبع أزوث ليلتفَّ حول إصبع عماد..وحين كَفَّتِ الهمسات المُخِيفَة عن التردد واختفت الأصوات الشيطانية فتح الدكتور محمد عينيه ثانية..

كان بمفرده هذه المرة ولا أثر لعماد أو أخته أو الطفل الصغير ولا كتاب الدم. مازال جسد ممدوح كما هو وقد فارق الحياة ومازال جثمان شريف المُمَزَّق على حاله فى منتصف النجمة الخماسية. وقد أظل المكان صمتٌ ثقيل. كانت القيودُ الخَفِيَّةِ التى قَيَّدَتْهُ للجدار قد تلاشت هى الأخرى فتحرك فى وَهَنٍ نحو باب القبو فغادره ثم سار مُتَرَنِّحًا إلى سيارته وقد غابت الشمس خلف الأفق وحل الظلام. تحرك بالسيارة وهو بالكاد يرى أمامه ولا يدرى هل يستطيع الوصول بها إلى فيلته بالمقطم أم لا. تحركت السيارة، وعقله يأبى أن يُصَدِّق كل ما جرى الآن من أهوال، حتى أنه تمنى لو كان يحلم. لكن الواقع المُخِيف الذى ما زال يترائى لبصره أعْلَمَهُ أنه ولسوءِ حظه لا يحلم.

*****



الخاتمة

" من صفحة الحوادث لجريدة الأخبار المصرية"

"جريمتا قتل غامضتين فى يومٍ واحدٍ بالمطرية"

كتب:محمود عبدالعليم:

تجرى نيابة المطرية تحقيقاتها فى جريمتى قتل غامضتين, حدثتا فى حيِّ المطرية بالقاهرة..

ففى الحادثة الأولى, عثر الأهالى على جثة فتاة كانت مفقودة تدعى سوسن.م.ع. فى شقة جارها عارية تمامًا وقد تم ذبحها وقد وُصِمَ جسدها بالنار. وفى التحقيقاتِ اتهمت الأم الجار, ويُدعَى"عماد.س.م"بفعل هذا, وأكَّدَ الشهود أن ذلك الجار قد خرج لتوه من مستشفى الأمراض العقلية بعد إيداعه فيها بتهمة قتل أمة قبل سنواتٍ بصورةٍ قريبةٍ مما حدث مع الفتاة, وتُواصل النيابة تحقيقاتها فى انتظار تقرير الطِبِّ الشرعى, ليؤكد هل أعتدى ذلك الشاب عليها قبل قتلها أم لا..علمًا بأن الشاب قد اختفى قبل اكتشاف الجريمة مع أخته وطفلها..

كما تُحَقِق النيابة فى جريمة مماثلة فى نفس الشارع راح ضحيتها أحد تجار المخدرات ويدعى"محمد.ع".. كان القتيل قد وُجِدَ مقتولًا فى فراشه محترقًا وقد تفحم جسده تمامًا. الغريب فى الأمر أنه لا آثار حريق ظهرت بالجوار, هذا وتُواصل الشرطة تحرياتاها عن الحادث لمعرفة ملابساته كما تبحث

عن زوجة القتيل وتدعى "منى.م.أ" التى اختفت هى الأخرى فى ظروف غامضة ولا يعلم أحدٌ مكانها"

*****

قصاصة من صفحة الحوادث لجريدة المصرى اليوم

"مقتل ممرض يعمل بمصحة نفسية بطريقة بشعة"

كتب: عماد رشاد.

تُواصل مباحث السيدة زينب تحرياتها لكشف غموض مقتل ممرض يعمل بمستشفى الأمراض العقلية بالعباسية يدعى"حكيم.ع. م" 34 عام..

كانت زوجته قد اتصلت بقسم شرطة السيدة زينب وهى فى حالة انهيار تام لتُبْلِغَهُم بعثورها على جثة زوجها مَصْلُوبَةً بالحائط وقد تم سلخ جلده عن لحمه تمامًا وشاهدت على الحائط المُثَبَّت به, الكثير من الرموز الغريبة مرسومة بالدم.

وأضافت الزوجة أنها كانت وقت ارتكاب الجريمة فى منزل أمها لزيارتها وحين عادت وجدت زوجها مقتولًا هكذا. وقد دَلَّت تحريات المباحث أن القتيل لا أعداء له ولم تتهم زوجته أحد بفعلِ هذا"

*****

من صفحة الحوادث بجريدة المصرى اليوم
"العثور على جثة شاب مشنوقًا فى بيته"

كتبت: داليا فؤاد.

تُواصِل مباحث قصر النيل تحقيقاتها فى جريمة قتل راح ضحيتها شاب يدعى"أدهم.س". كانت زوجته قد عثرت على جثته مُعَلَّقَةً من رقبتها فى سقف حجرة نومه ويداه مُقَيَّدَتَانِ للخلف.. هذا ولم تتهم الزوجة أحد بفعل هذا كما نَفَت أن يكون الحادث من أجل السرقة حيث أَكَّدَت أنها لم تفقد شيئًا من شقَّتِهَا..كما دَلَّت تحريات المباحث أنه لا آثار عنف بالشقة ومازالت تُواصِل تحرياتها للوصول لغموض هذا الحادث.

*****

وعلى فراشه رقد الدكتور محمد شاهين بيأس فى انتظار النهاية السرمدية. صار الألم لا يُطَاق ولم تعد تُجدِى المُسَكِّنَات والأدوية المُخَدِّرَة التى يتناولها فى تخفيف حدته.

كانت هى النهاية. أدرك هذا مستسلمًا وهو يرى عجز من حوله عن إيجاد حل لتلك اللعنة الرهيبة التى عصفت به..

زاره الكثيرون. كائنات خَفِيَّة لا تنتمى للبشر. حكماء من الجان. بل وأيضًا بعض سحرتهم العِظَام. ومع هذا فشل الجميع رغم قواهم الرهيبة فى إزالة اللعنة عنه أو تأخير النهاية. بل وفشلوا حتى فى تخفيف تأثيرها وآلامها.

لقد آن للدكتور محمد شاهين أن يموت. ومع أنفاسه اللاهثة المتسارعة, والدوار العنيف الذى يختطف وعيه, أدرك أن الأمر أقرب مما يتخيل. وربما تكون هذه الساعات هى الأخيرة له فى هذا العالم.



قبض على غليونه بأصابع مرتعشة واهنة وقرّبَهُ من فمه وبالكاد سَحَبَ نفسًا ضعيفًا أخرجه على الفور من فمه قبل أن يصل لصدره. لم تُعَارِضْهُ وداد ولم تعد تسأله أن يَكُفَّ عن التدخين، وقد حاصر عقلها حُزنٌ لا ينقطع.

شعر بحركتها وهى تقترب من الحجرة، ولدهشته وجدها تحمل صندوقًا مُغلقًا غريبًا. وضعته أمامه، وأخرجت منه خطابًا، وهمست:

-لا أدرى إن كان صوابًا أن ترى هذا الآن أم لا. لقد وجدت هذا الصندوق فى صندوق البريد. إنه لا يحمل اسمًا ولا يحوى غير هذا الخطاب الموجه إليك، وقنينة زجاجية سوداء لا أدرى كُنهها وبعض قصاصات الصحف. لم أدرى وأنا أرى على الخطاب كلمة"هام للغاية" إن كان من الصواب أن تقرأه أم لا. لكننى أحضرته فى النهاية لتُقَرِّرَ ما عليك أن تفعله.

مَدَّ يده نحو الخطاب المغلق والتقطه من يدها.. ثم فَضَّهُ ببطءٍ وبدأ فى مطالعة ما به وما زالت وداد بجواره فى انتظار أن ينتهى منه.

"مرحبًا يا دكتور.

أتمنى أن تكون فى خيرِ حالٍ حينَ يصلك خطابى هذا، وإن كنت أخشى أنَّ هذا غير ممكن.. لقد أعلمنى أزوث بأمر اللعنة التى أصابتك..أخبرنى أنها أكبر منه وأنه لا أحد قادرعلى إنهائها غير صاحبتها.

بالطبع تعلم من أنا. نعم.

أنا عماد..

أردت فقط أن أخبرك أننى فى خيرِ حال. كما أننى لست بمفردى، فهناك ابتسام وعماد الصغير وهناك حبيبتى منى وطفلتها الجميلة. كل هؤلاء يشاركوننى حياتى الجديدة. إننى لم أغادر مصر كما تظن. بل مازلت أعيش بها. لكن الأمر تَبَدَّلَ الآن. لم يعد هناك ما يمكننى أن أخشاه وقد حُزتُ القوة. لقد أدركت الآن لماذا فعل جدى ما فعله..

أرجوا أن تصدقنى حين أخبرك أن الأمر يستحق..يستحق أكثر مما تتخيل..

إن أزوث قوىّ. قوىٌّ وسخىٌّ للغاية مع أعوانه. كما أنه لا يطلب المستحيل. لا داعى لأن أخبرك ما يحتاجه، فأنت تعلم حتمًا ماذا يتم فى تلك الأمور..

لقد حققت انتقامى من الجميع.. فى الواقع لم يعد هناك من أعداء لى على قيد الحياة..سترى قُصَاصَات الصحف فى نفس الخطاب..إنها لأشخاص ماتوا فى وقتٍ واحدٍ بطريقةٍ رهيبةٍ غامضةٍ. يمكنك ببعض الخيال أن تُخَمِّنَ من فعل..

تعتقد أنى قد تبدلت. أنت طبيب نفسى ويمكنك أن تدرك لماذا حدث هذا، وهل كان أمامى سبيلٌ أخر غير هذا أم لا.

جميلة هى الحياة الآن. جميلة هى الحياة التى تتمتع بكل لحظة فيها ولا ينقصك شىءٌ من مباهجها. هناك الأخت التى عادت لتحبنى وهناك الحبيبة التى عادت لأحضانى، وهناك القوة، وهناك المال، وهناك الأعداء المتعفنين الآن فى قبورهم..

وهل هناك ما هو أكثر إبهاجًا من هذا؟..

بالمناسبة هناك قنينة فى نفس الصندوق. إن بها ترياقًا صنعه أزوث بنفسه من أجلك.. لن يُزيلَ اللعنة بالتأكيد، فكما أخبرتك من قبل، هذا أكبر منه.. لكن الترياق سيؤخرها لبعض الوقت، ويُزيلُ فى الوقت نفسه آلامك. إنها هديتى لك.

هذه هى المرة الأخيرة التى تسمع فيها عَنّى..لقد انتهى عماد الذى تعرفه وأتى بدلًا منه رجل سعيد آخر.. رجل لن تلقاه أبدًا.

المُخْلِص

عماد."

انتهى الخطاب فأخرج القصاصات وقرأها. شعر بالنفور مما يقرأه فألقاها جانبًا، ثم طلب من وداد أن تأتيه بقنينة الترياق. ناولته إياها ففتحها وتجرع ما بها بلا تردد. كان السائل مُرًا للغاية، لكنه احتمل. وأغمض عينيه بعدها وتسلل النوم إلى عقله..

وحين استيقظ كانت أشياء كثيرة بجسده قد تَبَدَّلَت. زالت آلامه تمامًا، وشعر بالقوة تسرى فى دماءه. نهض من فراشه فطاوعته أطرافه ببساطة ونشاط. فراح يتقافز على الأرض مستمتعًا بالصحة التى يشعر بها الآن!

وحين نظر إلى وجهه فى المرآة رأى كيف اختفت الكثير من التجاعيد عن وجهه وكيف عاد عمره سنوات للخلف. أراد ان يصرخ فرحًا. أن يرقص طربًا !!!

وحين دخلت وداد حجرته ووجدته صحيحًا هكذا لم تُصَدِّق بصرها وصرخت فى ذهول:

-يا إلهى.. لقد ذهب عنك مرضك؟..كيف حدث هذا؟. إن الشياطين ترعاك بلا شك!. أنت تخيفني يا دكتور. صرت تخيفني حتى الموت!

وفَرَّت من أمامه مُسرِعَةً كأنما تَفِرُّ من الجحيم، وضَحِك..

ضَحِكَ كما لم يفعل فى عمره كله.

ثم تحرك بنشاطٍ نحو حديقته ليقرأ جريدة الصباح..



حديثنا اليوم عن الساحر الشيطاني كروالي وعن الشيخ عبدالله المنياوي وعن سحرة وشيوخ آخرين.

لكننا لن ننسى أن هناك أم قد قتلت فاتهموا ابنها بقتلها رغم أنه يُصِرُّ أنه لم يفعل ..

هناك أيضا عائلة تعيسة تجري في دمائها لعنة مُخيفة .. فكل رجالها يموتون في الثانية والثلاثين من عمرهم.

كما أن علينا أن نجد **الشيخ الأسود**. السيد الذي لم يره أحد ولا يعرف أحد أين يكون رغم أنه دومًا موجود.

الحكاية مُتَدَاخِلَة وكبيرة. لكن الشيء المميز فيها هذه المرة أن الرعب هو رفيقها الذي لم يفارقها قط

هل حدثت بالفعل تلك الرواية وهل تشعر بأبطالها من حولك وهل يمكنك أن تكون يومًا طرفًا في وقائعها المُرِيعَة..

هذا ما اتركه لخيالك بعد ان تنتهي منها!

تصميم الغلاف: أسامة علام



